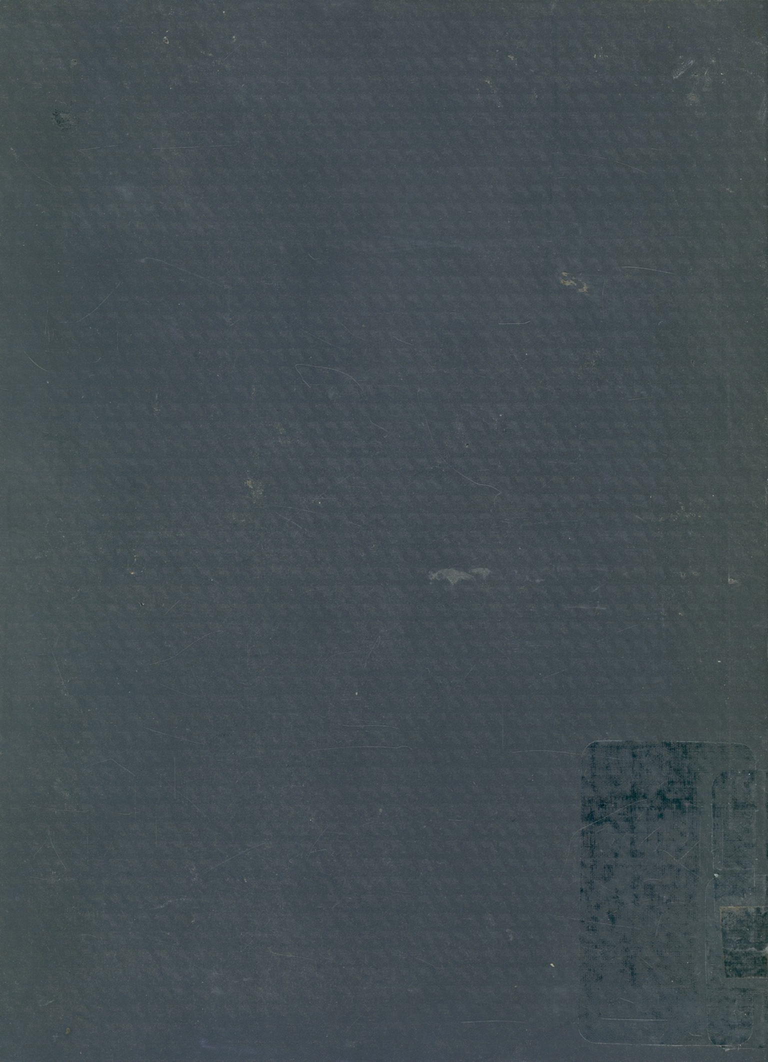


السياسة في اسرائيل

تأليف

ليونارد ج. فـين

القسم الأول

ترجم بمعرفة المخابرات العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	العرض العام	أ ـ ج
٢	استهلال	١
٣	مقدمة	٤
*	الجزء الأول ـ أصول النظام	
٤	الفصل الأول : المسرح	١٢
٥	الفصل الثاني : الثقافة السياسية	٤٥
٦	الفصل الثالث : الأحزاب والايديولوجيات	٨٨
*	الجزء الثاني ـ كيف يعمل النظام	
٧	الفصل الرابع : التكييف السياسي	١٣٦

العرض العام

هذا الكتاب دراسة سياسية مقارنة عن السياسة فى اسرائيل قبيل وبعد انشائها وعلى الرغم مما يدعيه المؤلف من حيدة وموضوعية ، الا أن حديثه عن اسرائيل لا يخلو من التحيز المأثور عن الكتاب اليهود الذين يدعون أنهم يتكلمون عنها بموضوعية تامة •

ويستهل المؤلف كتابه بمقدمة يقارن فيها بين عملية انشاء الدولة فى اسرائيل على أسس فريدة معينة ، وانشاء الدول الأخرى الجديدة • وهو هنا يحرص على ابراز طبيعة التفرد فى وضع اسرائيل كأمة وكدولة • ويتكلم عنها على أنها ، فضلا، التجسيد الواقعى لحلم اليهود فى انشاء وطن قومى يضم شتات اليهود فى العالم ويعيد الى الحياة مملكة اسرائيل القديمة •

ويشتمل الكتاب على جزأين : الأول بعنوان " أصول النظام " ، ويشمل الفصول الثلاثة الأولى ، والثانى بعنوان " كيف يعمل النظام " ، ويشمل الفصول الثلاثة الباقية • ثم ينهى المؤلف كتابه بخاتمة مؤثرة عن الوضع فى اسرائيل والمصاعب التى تواجهها مستقبلا ، والمشكلات التى تعانيها حاليا ، ثم يعمد الى نغمة تشاؤمية حول مستقبل الدولة اليهودية لكى يثير شفقة وعطف ومساعدات الآخرين •

ويتناول المؤلف فى الفصل الأول ، تحت عنوان " المسرح " ، قصة حركات الهجرة اليهودية الى اسرائيل منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وكيف بدأت هذه الهجرات ، ويسميها اليهود " الصعود " ، والدوافع التى دفعت يهود العالم ـ وبخاصة يهود أوروبا الشرقية ـ الى الهجرة الى فلسطين لاقامة مستوطنات تكون نواة للدولة اليهودية فيما بعد • والمؤلف يتكلم بالتفصيل عن حركات الهجرة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة ، وعن الحركة الصهيونية ومبادئها وتأثيراتها على يهود العالم • ثم يتكلم عن وضع يهود فلسطين ـ من أهالى البلاد والمهاجرين على السواء ـ قبيل " الاستقلال " •

أما الفصل الثانى ، تحت عنوان " الثقافة السياسية " ، فيتكلم فيه المؤلـــف باسهاب عن أصول الثقافة السياسية للشعب اليهودى فى اسرائيل • وهو هنا يبرز بصورة جلية الفروق الكبيرة المميزة بين المجموعتين الرئيسيتين فى اسرائيل اليـــوم ، أى بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين • ويستشهد المؤلف باحصاءات وبيانات وأرقام وما الى ذلك للتدليل على عمق الهوة التى تفصل بين المجموعتين ، ثم ينتقل من ذلك الى الكلام عن تأثيرات ذلك على العلاقة بينهما حاليا ومستقبلا •

وأما الفصل الثالث ، بعنوان " الثقافة السياسية ــ الأحزاب والايديولوجيات " ، فهو استمرار للفصل السابق ، اذ يتناول فيه المؤلف بالتفصيل الفروق البارزة بيـــن ثقافتى اليهود الشرقيين والغربيين • ثم ينتقل الى الأحزاب السياسية فى اسرائيل ويبرز الاختلافات القائمة بينها من الناحيتين السياسية والايديولوجية • والواقع أن هذا الفصل يعطى صورة واضحة وتفسيرا لا بأس به للأحزاب السياسية المختلفة فـى اسرائيـــــل •

وفى الفصل الرابع ، بعنوان " التكييف السياسى " ، يتناول المؤلف الوسائل التى تتبعها الدولة والأحزاب لاستيعاب المهاجرين سياسيا واجتماعيا ، مع العمل على تهيئتهم واعدادهم للظروف السياسية والاجتماعية الخاصة باسرائيل • وهنـــا يبرز المؤلف دور الأحزاب والمدارس والمؤسسات المختلفة فى هذه العملية ، ومـدى النجاح الذى حققته فيها •

وفى الفصل الخامس يتكلم المؤلف باسهاب عن " مراكز القوى " فى اسرائيـــل • وهو هنا يقوم بعرض تاريخى موجز يفسر فيه الأسباب التاريخية والاجتماعية الــــتى أوجدت هذه المراكز ومكنت لها من السلطة ، كما أنه يتكلم عن الأحزاب الرئيسيـــة ثم عن الهستدروت (اتحاد العمل الاسرائيلى) ، والأحزاب الدينية المتطرفـــــة بصفة خاصة • ويعطينا المؤلف صورة احصائية عن مراكز القوى فى اسرائيل لبيـــان قوة كل مجموعة سياسية أو نقابية أو اجتماعية أو دينية • وفى هذا الفصل جداول

بنتائج انتخابات الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) ، وهى تشير بصورة واضحة الى قوة المراكز وأحوال المد والجزر فى شعبيتها ونفوذها .

والفصل السادس والأخير ، تحت عنوان " السياسة " ، يتناول ـ بصورة محددة عملية ـ اتخاذ القرارات ورسم السياسة فى اسرائيل ، ويسلط الضوء على المراكز والقوى التى لها اليد الطولى فى هذه العملية . وهو ، فى هذا الصدد ، يبرز دور الحكومة والكنيست ـ كل على حدة ـ فى هذه العملية الأساسية ، ثم يتناول ـ بايجاز ـ الظروف والأسباب التى تدعو الى أن تكون الأمور مثلما هى عليه .

ويختتم المؤلف كتابه بنغمة تشاؤمية بعض الشىء عندما يتحدث أو يتكهن بمستقبل هذه الدولة الجديدة التى تعيش وسط بحر من العداوة القائمة والمستمرة التى خلقت بصورة عفوية ، وأن على اسرائيل أن تحافظ على كيانها بشتى الطرق ـ وان كان المؤلف هنا لا يخفى تشككه فى امكانية تحقيق ذلك !

استهلال

لقد استغرق هذا الكتاب زمنا طويلا ليتم اعداده ، فانني لا أذكر وقتاه حتى عندما كنت طفلا — لم تمثل فيه اسرائيل معنى خاصا بالنسبة لي . ومنذ عشرين عاما لم يكن فى مقدورى التنبؤ بأن ارتباطى الشخصى بدولة اسرائيل الحديثة التأسيس سوف يترجم يوما ما الى اهتمام مهنى. وان تمكنى من وصل الخيطين معا في هذا المجلد لتجربة سعيدة ، وان أثارت بعض المشاكل ، فقد تعذر فى بعض الاحيان فصل دعامة التجربة الشخصية والتعرض الشخصى عن التقييم العلمى وسداد الحكم. وقد حاولت فى كل مكان أن أحافظ على المسافة التى تقتضيها قواعد الدراسة الحقة ، وأدركت طوال الوقت أن صفاة الدارسين بها مسام أكثر مما ينبغى !! فليكن ذلك اذن ، حيث أننى لا أجد غير ذلك سبيلا. غير أن هناك بلا شك مواطن يتضح فيها الأمور ويلقى الضوء عليها اهتمام عشرين عاما ، ولولا ذلك لظلت فى الظلام . ومن المؤكد أيضا أن هناك مواطن أخرى حيث يقف الارتباط الشخصى فى سبيل الحكم المتدبر الصائب. وعلى أى حال ، فهذه هى النتيجة لأقدمها مصحوبة باعتذار ، ولكن بتحذير واضح .

قام بمساعدتى وتأييدى فى عملى فى هذا الكتاب أشخاص عديدون يسعدنى أن أسرد أسماءهم هنا . لقد استفدت كثيرا من معاونة عمانوئيل جوتمان ، ولويس جوتمان ، وجوزيف بن دافيد ، ودافيد بن جوريون ، وشيمون بيريز ، وآبا ايبان، وروبين باركات ، وموشى ريفلين ،واسرائيل

شيفير ، وموشى كيريم ، وزيف ليفين ، ومناحيم بيجين ، وموشى روزيتى ، وحاييم رادا ى ، وروبرتو باخى ، وشموئيل بندور ، وأندريه خوارتى ، وموشى قسول ، ويهودا ايلان ، وديهاهاعام أمير ، وروبين شارى ، وثاديس لوز ، وشيمون أرجانات ، وآباهوشى ، وشراجانذير ، واليا هوساسون ، ودون هوريووتز ، واسحق نائون ، وايرك كوهين ، وأوديد ميسير ، ودافيد بورسلاو ، ويورام بن بورات ، وشيمشون أراد .

كذلك قرأ أجزاء من مخطوط الكتاب وقدم النصح والارشاد كل من : دان شيمشونى ، واليكس فاينجولد ، وميرون دينر ، وهارولد اسحق ، ورواش فاين . أما بن هالبرن وشموئيل أيزنستات ولوسيان باى فقد طالعوا النص بأكمله ، وكان لتفاعلهم الحساس واقتراحاتهم أعظم الفائدة . اننى لاأريد ، بأى حال من الأحوال ، أن أورط هؤلاء الأشخاص الطيبين فى أخطائى ، كما أعلم أن الكثيرين منهم سوف يخالفوننى الرأى فيما أقول . على أننى آمل أن يكون عزاؤهم العلم بأنه لولا مساعداتهم لانحرفت الى أبعد من ذلك . كذلك أدين بالشكر الى هادلى كانتريل بمعهد البحوث الاجتماعية الدولى ، فقد وضع تحت تصرفى بطاقات العقل الالكترونى الخاصة بدراسته الأخيرة حول " الموقف فى اسرائيل " فاستعنت بالمعلومات التى تضمنتها طوال عملى بهذا الكتاب ، وكانت لى ذات فائدة كبيرة .

كما أدين بجزيل الشكر لمجلس بحوث العلوم الاجتماعية على منحه المنظمة الأهلية ، ولمركز الدراسات الدولية ، وأخص بالشكر ماكس ميليكان

ودونالد بلاكمور على كرمهما فى مد يد العون لهذا المشروع ، وعلى اعفائهما لى من بعض الأعباء المزعجة التى تقترن عادة بمثل هذا العمل .

لقد كان ريموند ر بمؤسسة " ليتل وبراون " مشجعا ملما ورقيقا ، أما لوسيان باى الذى كان أول من اقترح القيام بهذا المشروع فقد ظل طوال الوقت منبعا لاهتمام وعون الزميل ، ولهذا أقدم شكرى لكليهما .

أما زوجتى وأولادى فقد كانوا صبورين الى درجة مروعة أثناء كل من فترة التصور والتكوين وفترة الوضع ، كما كانوا — كعادتهم دائما — مصدرا لالهامى .

بالرغم من علمى يقينا بجرأة هذا الاهداء فلا أجد بامكانى أن أفعل غير ذلك . ان هذا الكتاب دليل صغير وغير كاف بالمرة لأعبر عن احترامى وحبى لأولئك الرجال والنساء الذين أسرد قصتهم بداخله .

ليونارد ج . فايندر

مقدمـــــة

ان جميع الدول تتفرد وتتميز الواحدة عن الأخرى بمزيج خاص مـــن الجغرافيا ، والتقاليد والتنظيم الاقتصادى والسياسى ، والتكوين الجنسى ، والايديولوجية ، والثقافة . ولكن بعضها يزيد تفردا عن الأخريات ، ويجب ادراج اسرائيل بينها .

وهنـاك ، بلاشك ، دول أخرى تعيش واحدا أو أكثر من بين تلـك الظروف التى تجعل من اسرائيل — قبل أى شىء آخر — دولة منعزلـــة ولكن واحدة منها لاتواجهها جميعا : حدود أرضية تشترك جميعها مــــع جـــيران معاديـــن ، لاتستطيع عبورها أن تطير طائرة أو يرسل خطاب أو ينشأ طريق ولغة لايتكلمها أى شعب آخر ، وماض خلو من أية روابـــط خاصة بأى شعب آخر ، سواء داخل أو خارج حدود الدولة ، كما أنها تقع فى منطقة غريبة ثقافيا ومعادية سياسيا ، وكذلك يجب اضافة حجم الدولـــة الى كل ذلك ، اذ أن صغر اسرائيل (ثمانية آلاف ميل مربع ، أو ثلث مساحة بحيرة ميتشيجان ، أى أصغر من كل ولايات أمريكا الخمسين ، باستثناء ست فقط) يعزز عزلتها بصورة عسيرة .

وليست هذه العزلة الشهيرة هى وحدها الصفة المميزة لاسرائيـــل ، فهى وحدها — من بين دول العالم — التى ولد أغلب مواطنيها البالغـــين فى أماكن غيرها وأتوا الى الوطن حاملين معهم مختلف ثقافاتهم الأصلية أجـــزاء لم تمس وعلى غرار شعبها ، فان المؤسسات السياسية الاسرائيلية ترجع أصولهـا

الى زمن آخر ، وبدرجة ما الى مكان آخر أيضا . ونتيجة لذلك يتعين على اسرائيل ، فى بحثها عن شخصية وطنية ، أن تسلك سبيلا موحشا مليئـــــا بالمثولات ، فلا يرغب أثارة آخرون ، ولا رفقاء يشاركونها رحلة المخاطر .

والى جانب ذلك ، فان اسرائيل دولة ذات متناقضات مثيرة حــادة ، ويصعب هذه المتناقضات لاقيمة له وان كان مثيرا بالنسبة لرجوعه الى ذلـــك التجاور القريب لعديد من الأشياء : فان أعلى مبنى بمدينة القدس اليهودية هو مبنى جمعية الشبان المسيحيين ، ومدينة القيصرية .. Caesarea الأثرية تضم ملعب جولف أنيقا ، أما أنوار النيون فى مدينة تل أبيب فتتكلـــم لغة التوراة . أما المحض الآخر فله أهمية كبيرة ، ونظرا لأن الصراعـــات التى تولدها وتشلها هى مادة الحياة السياسية لاسرائيل فسوف نتعرض لهـــا ، مرة تلو المرة ، خلال مضينا فى هذا العمل . على أن أكثر المتناقضات اثارة ، وأقلها وضوحا يحتاج الى تأكيد خاص منذ البداية .

ومما يدل على هذا التناقض ادخال أقسام من اسرائيل فى الدراســات من " الأمم الحديثة " " والأمم الناشئة " (١) على السواء . ان الواقع بالنسبة للأمر الأول مثير حقا ، فان اسرائيل واحدة من أكثر دول العالم تحضـــــرا ، ونسبة الأطباء فيها بالقياس الى عدد المرضى تفوق أى دولة أخرى ، وهى تشبه دول الغرب الحديثة أكثر من تشابهها لأى المجتمعات الأحدث منهـــــا (٢) سواء من حيث التعليم أو الاتحادات النقابية ، أو التطور الزراعى ، أو البحث العلمى الأساسى ، أو عدد التلاميذ بالتعليم الابتدائى ، أو النشاط الاقتصادى ، أو عدد الصحف بالقياس الى عدد السكان ، وبالرغـــم من

ذلك فهناك واقع يدفع الى ادراج اسرائيل في عدد الدول الناشئة ، يتمثل في الأعداد الضخمة من السكان البالغين الذين هاجروا اليها من المناطق الأقل نموا كاليمن ، وشمال افريقيا ، وكردستان ، ومعظم هؤلاء أقرب اجتماعيا ونفسيا الى شعوب مستقلة رؤوسهم من مواطنيهم الجدد . ومعظم السكان العرب الـ ٢٥٠٫٠٠٠ (١٢ ٪ من عدد السكان) من الريفيين التقليديين كما أن من السكان اليهود أقلية صغيرة — وان كانت ذات أهمية — من اليهود الأرثوذكس المتعصبين ممن يعتنقون الماضي أكثر من المستقبل ، والايمان أكثر من العلم ، ومازال الانتماء ينافس الانجاز كدعامة أساسية للانخراط في الادوار الاجتماعية البارزة ، ومازالت الايديولوجية القديمة الريفية المنبع تعرقل التسليم الكامل للعلم والتكنولوجيا ، وأخيرا يظل على الجهاز السياسي نفسه أن يبلغ ويتخطى مرحلة الانتقال الحرجة عندما يسلم عنان القيادة من أيدى الآباء من عهد ماقبل الاستقلال الى جيل أحدث وأصغر ، فما زال عليه أن يجد وسيلة لارضاء أهداف ماقبل الاستقلال بموارد مابعد الاستقلال .

ومع ذلك فلا يكفى مجرد القول بأن اسرائيل قد حققت " العصرية " من وجهة النظر الاقتصادية ، وما زالت حياتها الاجتماعية السياسية تمر بمرحلة الانتقال ، فليس فصل مجالات الوجود الوطني على هذه الدرجة من اليسر ، حتى وان كان لغرض التحليل — ذلك بأن حقيقة أن التقاليد لاتزال تسيطر بشدة على منطقة ما أكثر مما تسيطر على منطقة أخرى تغير من كاتيهما كما تغير من مضمون ومادة السياسة . ولهذا السبب — من بين أسباب أخرى — فاننا نجد أن نماذج السياسة الانتقالية التى تكونت داخل اطارات تقليدية نوعا

لاتصلح الا لاستخدامها موقتا لتفهم السياسة فى اسرائيل .

وربما يكون التأكيد على تفرد اسرائيل بذلك شيئا مبالغا فيه . فلو أن اسرائيل مفرطة فى خصوصيتها الى درجة تمنع رسم نماذج موازية مفيدة فى أية جهة ، بينها وبين البلاد الأخرى ، لوجد المرء صعوبة فى تبرير الجهد المبذول فى استكشاف نظامها السياسى . ولكن القطع والأجزاء التى تميز اسرائيل عن غيرها من البلاد ، من خلال تركيبها الخاص ، لها — فى حد ذاتها — سوابق وأشباه . وفضلا عن ذلك فان بعض نواحى التجربة الاسرائيلية يمثل نماذج أولية قد تفيد فى تفهم التغيير والتطور السياسى فى دول أخرى . وهكذا ، فان القول بأن جماع تجربة اسرائيل " أكثر تفردا من غيره " لايعنى أن دارسى السياسة المقارنة لن يجدوا شيئا يتعلمونه أو أى شئ يستعينون به على تفهمها .

قد تحير هذه الفقرات الافتتاحية القارئ الأمريكى الذى ليست لديه معرفة خاصة باسرائيل ، فبالنسبة لأغلب الامريكيين تركز الاحساس والوعى باسرائيل حول الحدث الدرامى الذى عرف " بميلادها الجديد " علاوة على دورها فى مشكلة الشرق الاوسط المستمرة . صورة اسرائيل كدولة شابة محاربة تسكنها سلالة قوية مرنة قد اكتسبت قوة دفع أولية من خلال الكفاح من أجل الاستقلال ، وعززها بعد ذلك التاريخ اللاحق والأخبار الصحفية ، كما استمدت تأكيدا نهائيا من الرواية الرائجة والفيلم السينمائى " الخروج " (EXODUS) بالرغم من فرط بساطة الوسيلة . كذلك شكلت سياسة

الشرق الأوسط الدولية الوعى الامريكى باسرائيل : فحملة سيناء ، ومشكلة اللاجئين العرب ، وتطلع غزة وغيرها — قد احتل كل ذلك مكانا فى ذلك المعجم المحير الدائم النمو ، الذى يشعر المواطن المسئول بضرورة التمكن منه .

ان هذا البحث لايبدأ بتلك الاصطلاحات الشائعة ، وليس الاختيار بمحض الصدفة كذلك ، فان الدراما الاسرائيلية أكثر تعقيدا وتأثيرا مما قد يوحى به أى عنوان صحفى أو قصة روائية ، وان ممثليها أناس عاديون وليسوا من الخوارق ، كما أنها تشمل المأساة والفشل كما تشمل النجاح والانجاز . والأمريكى الذى يبغى تفهم عالمه له عذره اذا زاد اهتمامه بدور اسرائيل فى سياسة الشرق الاوسط عن اهتمامه بمشاكلها الداخلية ، ولكن التقدير السليم للجانب الاول يتطلب ، على الأقل ، بعض المعرفة بالجانب الثانى — معرفة يستلزم الأمر أن تتخطى الصورة الشائعة . كذلك يتطلب تحليل الموقع الداخلى وعيا بالبيئة الدولية المتعددة الجوانب . وهكذا ، وعلى سبيل المثال ، فبينما يبدو جليا أن على الدارس لسياسة اسرائيل أن يأخذ فى الاعتبار العلاقات الاسرائيلية — العربية ، فانه يتعين علينا ألا نعرف فقط ماتمثله هذه العلاقات بالنسبة لاهتمامات الدولة ، بل وكيف تشكل شخصيتها أيضا .

وبقدر المستطاع ، سوف نؤكد العلاقات المترابطة بين مختلف المجالات المتعلقة بعالم السياسة ، وسيكون علينا ألا نسأل ببساطة عن كيفية اتخاذ

البرلمان (الكنيست) للقرارات بل — على الأرجح — من كيفية اتخـاذ القرارات فى مجتمع مازال الاجماع على الرأى فيه هشا ضعيفا ، حيث بدأت الايديولوجيات القديمة فى الاضمحلال وان لم يحل محلها جديد ، وحيث يؤثر الخطر المحدق بالدولة من الخارج باستمرار فى كل مايحدث فى الداخـل . ولن يرضينا أن نذكر فقط أن برامج التنمية لادماج المهاجرين الجدد فى المجتمع الأقدم عهدا تمثل مشكلة سياسية ذات أبعاد ضخمة بل سيكون علينا كذلـك أن نفحص الوسائل التى تكيف بها هؤلاء المهاجرون — أو التى فشلوا فـى التكيف بها — مع النظام السياسى القائم ، والوسائل التى غيرت بها تصرفاتهم من النظام نفسه .

وتستمد محاولة التمكن من هذه المسائل ومثيلاتها دعما ضئيلا من المادة المتوافرة حاليا حول موضوع سياسة اسرائيل . فكما هو متوقع ، نجد أن الجزء الاكبر من هذه المادة محل جدل عنيف من حيث مضمونه وغالبا فى لهجتـه وأسلوبه أيضا . أما القليلون ممن يعالجون النظام ككل وبدون تحيز عاطفـى فيركزون ، أساسا ، على وصف مؤسسات الدولة السياسية ، ويكادون يهملـون كلية سلوكها السياسى .

الا أن هناك بعض استثناءات ملحوظة فى هذا الجو المقفر ، كمـا أن هناك كمية صغيرة — وان كانت متزايدة — من التقارير المهنية على بحـوث التجارب العملية فى مجالات معينة (٣) . وتخرج معظم المواد الجديـدة من الجامعة العبرية ، كبرى معاهد التعليم العالى العامة . وقد ازداد عددها

خلال السنوات الأخيرة زيادة يرجع بعضها الى تخفيف القيود المفروضة على البحوث الاجتماعية فى الأمور ذات الدلالة الايديولوجية ، ولكن جزءا كبيرا من هذه المادة العلمية محدود الأفق ، مما يفرض استنتاجات هزيلة ، ولكن لاغنى عنه بالنسبة لدارس السياسة الاسرائيلية (٤) الجاد . كما أن هناك موردا آخر لايقل أهمية ، وذلك هو التقارير المدهشة التى يصدرها مكتب الاحصاء المركزى ، وهو وكالة الاحصاء الرسمية فى اسرائيل . (٥)

وبالرغم من التوسع الحالى فى مجال البحث الاجتماعى والسياسى ، لايزال هناك الكثير من المجالات المهمة لاتتوافر عنها أية معلومات بتاتا ، مما يخلق هوة سحيقة أمام أية محاولة للترتيب المنهجى . وأفضل مايفعله المرء فى مثل هذه الأحوال هو أن يستخدم مايتوافر من المعلومات وأن يستغل معرفة زملائه ويستفيد من ملاحظاته الخاصة ، ويحذر القارىء من أن الاستنتاجات المستمدة من مثل ذلك الاجراء لابد أن تكون تجريبية بالضرورة .

ان ندرة المعلومات الحاسمة ليست الا واحدة من المصاعب التى يواجهها علماء السياسة ، أما المشكلة الثانية التى تساويها فى الاهمية فهى امكانية توافر اطار مفاهيمى ذى معنى يمكنه أن يقوم بتنظيم وتوضيح مايتوافر من مثل تلك المعلومات ، مما يزيد وفرة المصادر أمامنا . فخلال السنوات العشرين الماضية استفاد دارسو السياسة المقارنة استفادة جمة من كتاب " جبرييل ألموند " وأعمال لجنة السياسة المقارنة التابعة لمجلس بحوث العلوم الاجتماعية (٦) ، فلقد استمد هذا الكتاب الكثير منها ، وان قل عما كان ممكنا . أما المواد التى

أوحت بها اللجنة فتتميز ، على وجه الخصوص ، باهمالها لحدود العلوم الاجتماعية التقليدية ، وباهتمامها بتعريف واظهار العلاقات المتماسكة بين جوانب النظام الاجتماعي — السياسي الواضحة التباين ، وكذلك بتأكيدها للمتغيرات العملية دون المتغيرات التنظيمية البحتة ، وبذلك تكون النتيجة ولا تزال ، هي تكوين مجموعات صنفة معدة للتحليل السياسي تعمل على الاسراع باقامة علوم سياسية مقارنة أصيلة.

ان الوصف الحرفي جامد بالضرورة ، ولذلك يستحيل ، بأية حال ، أن يكون الوصف الحرفي لنظام ديناميكي قاطعا ونهائيا . لهذا يتعين على المرء أن يواظب على تعديل التكهنات القاطعة ظاهريا ، أو أن يستشف منهما هذا التعديل ، وهذا يكون فقط اذا ظلت جميع الأشياء والعوامل الاخرى من غير تعديل ، في حين تكون الأشياء الاخرى متساوية . ومع ذلك فهناك أشياء أخرى لاتكن الاحترام للذات العلمية وترفض أن تظل متساوية ، وهذه " الأشياء الاخرى " لايمكن ايقاف تحركها ، ولو لوقت محدود ، في نظام سياسي مازال في مرحلة التقلب ولم تثبت التقاليد دعائمه بعد . ولهذا فمن دواعي الدقة أنه يتحتم أن تظهر في كل فقرة من فقرات هذا الكتاب ملحوظات تحذير أو عبارات تعريف أو تحفظات أو انكارات ، ولكن الأسلوب ، هو الآخر ، يجب أن يأخذ مجاله . ولذلك أرجو أن يتقبل القارئ برحابة صدر هذا الاقرار بعدم القطع بشئ نهائي على أنه يسري على جميع الصفحات التالية.

* * *

الجـــزء الأول

أصـــول النظـــام

الفصل الأول

المســـرح

" لقد جئنا الى الأرض لنبنى ولكـــى
نولد من جديـــد .. .. .. "

جرى العرف اليهودى على تسمية الهجرة الى اسرائيل بـ " عاليه " Aliyah (وجمعها " عاليوت ") ، وهكذا تشهد اللغة نفسها بالدلالـــة الخاصة جدا لصهيون فى التاريخ اليهودى . وطوال القرون الطويلة لتشـــرد اليهود كان العرف والعقيدة الدينية يربطان المجتمعات المختلفة بعضهـــــا بالبعض ، وقد ربطها نفس هذا العرف وهذه العقيدة الى صهيون .. الى فلسطين . وكان الايمان بأنه فى يوم ما ، " فى نهاية الالام " ، سوف تكـون هناك عودة الى صهيون ، ايمانا راسخا عميق الجذور ، وحتى يأتى ذلـــــك اليوم اعتبر اليهود فى كل العالم أنفسهم فى " جولاه " أو منفى (Golah) .

ولم يكن مفهوم المنفى شيئا غامضا ثانويا بالنسبة لحياة المجتمع الطبيعية ، ففى أجزاء كبيرة من أوروبا ، التى كانت موطنا لأغلب اليهود خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كانت معاداة السامية سياسة رسمية للدولـة ، كما أنها تسلية شائعة ، وخصوصا فى أوروبا الشرقية ، حيث عاش الكثـــيرون من يهود أوروبا . فقد كان الاضطهاد نظاما راسخا . أما ماكان بين آن وآخر

من الاتجاهات الى التحرر ، فانها كانت قصيرة الأجل ولم تعط أو تؤخذ مأخذ الجد . ونتيجة لذلك ، لم يشعر سوى عدد قليل جدا من اليهود باخلاص عميق للبلاد التى ولدوا بها ، وعدد أقل أخلص للهيئات الحكومية . وهكذا أسرع العشرات من الألوف ، بل والملايين أخيرا ، لانتهاز فرص الهجرة عند اتاحتها .

المحركــات : لم تكن فلسطين وجهة المهاجرين اللهم الا القليلين منهم ، فقد فضلوا الرحيل الى الولايات المتحدة ماعدا استثناءات متفرقة ، وفى حالات أقل الى انجلترا والأرجنتين أو أوروبا الغربية . ومنطق ذلك واضح ، فلم يكن لفلسطين القرن التاسع عشر مايزكيها ، فالأرض مقفرة قاحلة ، وغالبية السكان المسيطرة مختلفة ثقافيا ، كما أن الحكام الأتراك لم يكونوا مؤيدين لاستقرار اليهود فيها ، وذلك علاوة على افتقارها الى مجرد حياة فكرية بدائية ، بالاضافة الى أنها لم تكن وطنا الا لخمسين ألفا من مجموع يهود العالم البالغ عددهم حوالى أحد عشر مليونا . (١) وكان أولئك السكان اليهود هم فى الغالب شيوخا غير منتجين من أتقياء اليهود حضروا الى الأرض المقدسة بغرض الدراسة الدينية ولكى يتوفوا بها ، أما السكان العرب فكانوا يمارسون بالكاد ، حياة زراعية تقليدية . ومن الواضح اذن أن مثل هذه البيئة القاسية لم تكن لتصمد أمام منافسة اسطورة الطرق المرصوفة بالذهب فى أمريكا . (٢)

وبالرغم من ذلك ، فبين الحين والآخر كان يقال ان ظهور حكم ذاتى مستقل للشعب اليهودى سوف يضع نهاية لمعاداة اليهود (اللاسامية) وكان ذلك الحكم الذاتى القومى يعنى حكما ذاتيا فى فلسطين . ومهما كانت

مساوىء فلسطين ، فقد كانت لها ، على الاقل ، ميزتان أساسيتان كموقع لهجرة جماعية لليهود . وأولى هاتين الميزتين ، على وجه التحديد ، هى أنها منطقة غير مستغلة ، مما يوفر فيها مكانا لمجتمع جديد يشكل فيه طريقته الخاصة فى الحياة طبقا لمقاييسه وتطلعاته الخاصة . ولم يكن احتمال هذا التشكيل بأقل أهمية ، بالنسبة للكثير ممن نادوا بالهجرة الجماعية الى اسرائيل ، من حل مشكلة الاضطهاد ، فقد يعنى الحكم المستقل الذاتى جعل الثقافة اليهودية " طبيعية " أى خلق طبقة من الفلاحين حيث لم يسبق لهما وجود ، واحياء العبرية كلغة متداولة فى الحديث ، وتنمية عقلية عامة ومجتمع يخلو من التشويهات التى يولدها الاضطهاد . وكانت الحجة هى أن مثل هذه العملية تتطلب ثورة فى ظروف الحياة اليهودية .

ويزيد أهمية عن ذلك أنه لايوجد مكان آخر يجد فيه اليهود كلا من الرابط التاريخى والعاطفى ، علاوة على الصلة الدينية القوية — هذه الصلة التى بنيت ، الى حد كبير على أساس حقيقة أن كل الأماكن المقدسة اليهودية تقريبا كانت موجودة فى فلسطين . أما قوتها الحقيقية فتكمن فى أن فكرة صهيون كانت تحتل مكان المركز فى اللاهوت اليهودى ، فالعهد بين الله والشعب اليهودى الذى تميزه طقوس ختان شعائرى ، مثلا ، يتضمن وعدا من الله يقول : "سوف أهبك ولذريتك من بعدك وكل أجيالهم اللاحقة ، أرضا لاقامتكم ، كل أرض كنعان لتملكوها الى الأبد " .
أضف الى هذا الرابط الدينى الصفة التاريخية غير العادية للديانة اليهودية ، فعلى خلاف أية ديانة أخرى ، ترتبط الديانة اليهودية أصولها بشعب بذاته وليس بلحظة من الوحى أو طائفة عقائدية ، فأعيادها تحيى ذكرى أحداث مرت

بتاريخ ذلك الشعب ، وكتبها المقدسة تسرد قصته ، وفلسطين هى أرض ذلك التاريخ النابض الذكرى (أرض الميعـــاد) .

ولكن نداء التقاليد وجاذبية الايديولوجية الصهيونية النامية لم يكونـــا كافيين للتعويض عن حقيقة فلسطين الكئيبة حتى عام ١٨٨٠ . وقد تقـــدم الغرب امكانيات تعليمية ، وخدمات اجتماعية ، ورعاية طبية ، وغيرهــــا من التسهيلات ، وكان أفضل ماتقدمه فلسطين هو المغنى الروحى فقط . وفضلا من ذلك ، فان أكثر يهود أوروبا قابلية للحركة والانتقال كانوا فى الغالـــب ممن اكتسبوا الطبائع الغربية والدنيوية . واكتساب الشخصية الغربية والدنيوية يعنى أن الارتباط الدينى بفلسطين قد ضعف ، وأن الشعور بمدى التضحيـة فى الرحيل الى تلك الأرض البعيدة المقفرة قد ازداد قوة . وحتى هؤلاء مـن ذوى العقيدة الأقوى والأشد ارتباطا بالتقاليد اليهودية وجدوا الكثير مما يثبط الهمة بالنسبة لمشروع الاقامة فى فلسطين ، فكانت الصلاة من أجل العودة شيئا ، والتخطيط لها شيئا آخر بالمرة . وربما كان من الممكن أن تنال الدعـــوة الصهيونية اهتماما أكبر لو لم تكن الأبواب مفتوحة للولايات المتحدة ، ولكنهـــا كانت مفتوحة على مصراعيها ، ومهما كانت قوة روابط التقاليد فلم يستطع مقاومـة اغرائها سوى أشد الصهاينة تعصبا وايمانا .

وان الاعتقاد بأن اليهود يجدون فى الغرب الملجأ حيث تتوافر لهــم حرية ممارسة الدين اليهودى ، أو أن يصبحوا جزءا من المجتمع الأكبر لــو رغبوا فى ذلك ، قد اكتسب قوة من تجارب المهاجرين السابقين . وبالرغــم من أن الترحيب باليهودى كان بدرجة أقل من الحماس ، الا أنه كان يمنح الحرية

السياسية والاقتصادية والدينية ،ولم تمارس معه الحكومات الاضطهاد المكشوف . وحتى بعد مرور زمن على قيام الحركة الصهيونية ، حيث أصبحت الهجرة الى فلسطين أكثر تشجيعا عن ذى قبل ، ظل معظم اليهود على اعتقادهم بأن حل " المشكلة اليهودية " يوجد فى الولايات المتحدة وفى أوروبا الغربية .

الصهيونية : وعلى هذا الأساس الذى كان قائما خلال السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ، تحولت الصهيونية من حنين لاكيان له الى حركة سياسية(٣) . وقد شجع هذا التحول ، وربما سببه أيضا بعد ضياع وقت ، هذا الجو من القومية الذى ساد أغلب أوروبا طوال العقود السابقة . وكما قال " هاين " : " اذا كان الأمر هكذا مع المسيحى فانه لكذلك مع اليهودى ". ولكن الصهيونية كانت حركة شاذة بين الحركات القومية ، فالقومية اليهودية لاتملك القاعدة الجغرافية ،ولم يكن اليهود يسعون لتوحيد أرض وطن مجزأة ، أو لطرد سيد استعمارى ، بل — على العكس — كانوا يبغون استرداد أرض لم يعيشوا فيها ، بأعداد تذكر ، لمدة تقرب من الألفى عام ، وتوحيد شعب تشتت فى أنحاء الأرض ماديا طوال هذين الألفين من الأعوام ، تفرقه قرون من التاريخ ، وبالتالى من اللغة والتجربة كذلك .

وبالنسبة لأغلب أصحاب النظريات الصهيونية ، كان افتقار اليهود الى أرض تخصهم وحدهم هو المسئول عن " المشكلة اليهودية " ، وقد فسرت هذه المشكلة على أنها أعمق بكثير من مجرد مشكلة أمن ،فكما قال " أحد هاعام" وهو واحد من أبرز الكتاب الصهاينة الأوائل : " على اليهود ألا يواجهوا

مشكلة اليهودى فحسب ،بل أيضا مشكلة اليهودية ، أى احياء ثقافة يهودية مستقلة "(٤) .

ولقد كان واضحا أمام هذه المجموعة الصغيرة أنه على الرغم من أن الغرب كان يقدم لليهود مأوى ، فانه لن يقدم ، فى أحسن الاحوال ، الا وطنا لليهود ، وليس وطنا يهوديا (قوميا) . كذلك لم يكونوا يميلون حتى الى الاعتقاد بأن مشكلة السلامة المادية الجوهرية قد تم حلها فى الغرب. وأخيرا ، فانهم كانوا مقتنعين بأن جموع اليهود فى أوروبا الشرقية يمكن بمرور الزمن ، أن تتأثر بالدعوة الصهيونية ،لأنها لن تتأثر أبدا بمفاتن الغرب ، مهما بلغت روعة تصويرها .

وعندما اكتملت تلك الأفكار الرئيسية ، تمكنت بالفعل من مس وتر حساس بين أعداد صغيرة من يهود أوروبا الشرقية. وهكذا نظمت حركة سميت " محبة صهيون " Hibat Zion ، وبدأ خيط رفيع من الهجرة الى فلسطين (٥) . ولكن الصهيونية فى هذه الأيام لم تستطع الظهور كقوة كبرى ،فبالرغم من قوة اغرائها التقليدى فقد كانت تفتقر الى امكانيات القيام بعمليات اسكان أو استثمار واسع النطاق فى فلسطين ،كما لم يكن باستطاعتها اقناع الحكم التركى بتخفيف معارضته لمثل ذلك النشاط ، فكان المصدر الوحيد لذلك التأييد المطلوب فى الغرب ، بين المجتمعات اليهودية فى الدول المستقلة. ولكن مع اتجاههم صوب الغرب ،اضطر اليهود الروسيون الى تعريض ايديولوجيتهم للخطر ، فلم يكن بمقدورهم أن يطالبوا اليهود الامريكيين

بالمساعدة فى وقت يطلقون فيه اسم " الهروب " على الهجرة الى الولايات المتحدة ،وينادون فيه بأن الحل الوحيد " للمشكلة اليهودية " يتمثل فى اعادة بناء فلسطين . أضف الى ذلك أن وجود اليهود الامريكيين فى وضع يمكنهم من الاستجابة لمطالب الصهيونية يعنى ،فى حد ذاته ،أنه بامكان اليهود أن يعيشوا حياة طيبة فى الولايات المتحدة. وقد ظلت تلك المعضلة العويصة عبئا على مشروع الصهيونية طوال فترة كبيرة من تاريخها (٦) .

ولم يكن الافتقار الى الموارد الا أحد العراقيل فى سبيل اعادة الاستيطان فى فلسطين على نطاق واسع ، فلم يكن عدد المستوطنين قد وصل الى الحد الادنى الذى يتطلبه الشعور بمجتمع راسخ فى فلسطين ، وكذلك فان المستوطنين الأوائل ممن أمكنهم شق طريقهم الى الأرض قد وجدوا أنفسهم متفرقين معزولين فقد أقاموا بدون أية معونة نظامية " لاعادة بناء الشعب اليهودى " ، عدة مستعمرات تدعمها معونات من الخارج ،واستقروا فى اطارات ثابتة نوعاما ،ولم تكن لديهم المهارة أو الامكانيات الاقتصادية أو الايديولوجية أو القوة العاملة لكى يؤثروا فى الواقع الفلسطينى تأثيرا له أهمية .

ولقد بدأ هذا الوضع يتغير فى منتصف التسعينات من القرن الماضى ، وكانت قضية " درايفوس " فى فرنسا هى الحافز المميز ، وان لم تكن مسألة منعزلة عن غيرها بأية حال — ذلك بأن اعتقال " درايفوس" اليهودى زورا فى فرنسا ، قلعة الاستنارة والحرية ،ورد الفعل المادى لليهود الذى أثاره ذلك الاعتقال ،كانا بمثابة تذكرة مريرة لليهود فى كل مكان بأنه حتى فى الغرب المستنير لم تحل مشكلة معاداة اليهود ولكنها احتجبت فحسب. وفى ذلك الوقت كتب " تيودور هرتزل " ،وهو صحفى من فيينا ، كتابا صغيرا بعنوان "الدولة

اليهودية ، رفض فيه فكرة الهجرة الى الغرب كحل "للمشكلة اليهودية" . وأصر على أنه بالعمل السياسى يمكن الوصول الى دولة يهودية قومية ذات سيادة(٧). ولم تكن هذه الفكرة جديدة بصورة خاصة ، ولكن الجديد أن المنادى بها كان يهوديا "غربيا" ، وكان الناس أكثر استعدادا للانصات اليه ،وكان ذلك شيئا جديدا أيضا .

وعلاوة على ذلك فان "هرتزل" كان رجلا غير عادى بالمرة ، فقد كان مخلصا بصورة غير عادية ، وكان يمتاز بجاذبية غريبة(٨). وقد كللت محاولاته لخلق منظمة سياسية من شأنها تشجيع البديل الصهيونى وتوحيد جميع مؤيديه بنجاح فائق ، فمع حلول عام ١٨٩٧ اجتمع المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل بسويسرا وحضره مندوبون عن كل الطوائف اليهودية الرئيسية فى العالم . وهكذا أصبح للصهيونية منظمة ترعى ايديولوجيتها .(٩)

الحركة الصهيونية : لم تكن الحركة الصهيونية أبدا تمثل وحدة متواصة متجانسة ، فقد اختلف أعضاء المنظمة فى مسائل رئيسية مثل : أى الاستراتيجيات السياسية أسرع من غيرها فى اقامة الحكم الذاتى ؟ هل تحتم المطالبة بالاستقلال الكامل والحكم الذاتى أصلا ؟ وعند توزيع الموارد الشحيحة جدا ،هل يعطى الاستيطان الفعلى فى فلسطين الاولوية على المفاوضات السياسية من أجل الاستقلال ؟ ماالذى ينبغى أن تكون عليه طبيعة وشخصية الدولة اليهودية التى ستتحقق يوما ما ؟ بل انه فى أول أيام عمل المنظمة ثار داخلها نقاش مرير حول ماذا كان من الواجب قبول مايبدو أنه عرض من الحكومة البريطانية لانشاء دولة يهودية فى أوغندا . وتبعا لطبائعهم فقد فضل الكثيرون من اليهود الغربيين ،و"هرتزل" نفسه من بينهم ، عرض

أوغنــدا هذا ، حيث أن السلامة المادية كانت مفهومهم الأساسي "للمشكلــة اليهودية " . أما مندوبو أوروبا الشرقية الذين كانوا يعتقدون أن النهضــة اليهودية تتساوى مع ذلك في الأهمية ، فقد تمسكوا باصرار بأن فلسطــين فقط يمكن أن تكون مكان الخلاص ، وذلك على الرغم من أنهم كانوا يواجهون أشد المخاطر المادية .

وباستثناء مسألة أوغنــدا القصيرة الأمد فقد ساد الاتفاق على أن هدف المنظمة هو العمل على ايجاد وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطــين . وبمرور الوقت فسر هذا الهدف على أنه يقتضي ، ضمنا ، تعضيد ومسانــدة الاستيطان اليهودي في فلسطين ، والسعي للسماح للمجتمع اليهودي النامي هناك بقسط من الحكم الذاتي . وقد كان الجدال حول الاستراتيجيــة والتكتيك حامي الوطيس ، ولكن الاتفاق الأساسي كان في نفس الوقت قويا . (١٠)

وبعد زمن ، وان طال عشرات السنين ، أصبحت المنظمة الصهيونيــة بمثابة " القابلة التي أولدت " دولة اسرائيل ، فلولا المساندة والتشجيــع اللذين منحتهما الى أبعد حد لمستوطني فلسطين لكان من المحتمل ألا يصير ذلك الخيط الوضيع من المهاجرين الذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر سيــلا قويا متدفقا في الأعوام التالية لمولد الدولة . وفي نفس الوقت ، جعلت مجهودات المنظمة السياسية منها شيئا أكثر من مجرد هيئة خيرية أخرى ، فقد كانــت مصــدرا أساسيا للعزيمة والنشــاط والايديولوجية والــروح المعنوية ، فقــد كانت حكمتهــا ــ أو على الأقل حكمة بعض أعضائها ــ ترتكز في وعيهم بأنه بــدون الأمر الواقع من الاستيطان المتسع الناجح فوق أرض فلسطين ، لن تثمر أبــدا

المفاوضات السياسية من أجل الاستقلال ، فى حين كان المجهود السياسى نفسه ، فى نفس الوقت ، يشجع الاستيطان ويمنح المجتمع الوليد فى فلسطين مكانة وأملا .

ان دولة اسرائيل تدين بأكثر من تأسيسها للمنظمة الصهيونية ، فقد بدأ الكثيرون من زعمائها السياسيين حياتهم العملية بالعمل فى واحد أو آخر من الأحزاب الممثلة فى المنظمة ، كما أن عددا من المؤسسات التى بدأتها مازال قائما الى اليوم ، وربما كان أبرزها الصندوق القومى اليهودى ، الذى أمكن عن طريقه شراء الاراضى فى فلسطين واستصلاحها لصالح الشعب اليهودى ككل .

كذلك تنبثق أكثر تقاليد اسرائيل السياسية من عهد الصهيونية السابق لانشاء الدولة .

وهكذا نجد أن أبرز الأنماط السياسية لاسرائيل — وهو نظام الانتخابات البرلمانية حسب التمثيل النسبى لقوائم الأحزاب — ماهو الا امتداد مباشر للحزبية المتعصبة التى كانت تكتنف المنظمة الصهيونية . كذلك فان الميل الى المجادلات الايديولوجية المطولة يستمد جذوره من فترة لم تكن فيها المنظمة نفسها ، فى داخلها ، تهتم بشىء آخر اللهم الا القليل . وكما هى الحال مع الكثير من الحركات الثورية ، فان فترات الركود بين فرص العمل والنشاط المتفرقة كانت تشغل بالمجادلات الدينية المذهبية الحامية — ذلك بأن الانشغال بالأخرويات (كالبعث والحساب) هو دائما أفضل وسيلة لشغل أوقات أناس مكتوفى الايدى .

والآن ، يجب أن نحول اهتمامنا الى التطورات داخل فلسطين ، فضلا عن عظم أهمية المفاوضات السياسية الخارجية بالنسبة للكفاح من أجل الاستقلال فانها تشكل فصلا من تاريخ اسرائيل السياسى سبق سرده سردا وافيا فى مجال آخر (١١). ومع ذلك فلايمكننا اهمال اعطاء صورة مختصرة لليشوف (yishuv) ، وهو الاسم الذى أطلق على المجتمع اليهودى فى فلسطين خلال فترة ماقبل الاستقلال ، وخاصة وأن بقاء ثقافته السياسية حية يمثل احدى مشاكل اسرائيل الكبرى اليوم.

<u>الصعود (Aliyah) الاول (الهجرة الأولى)</u>

ان أفضل طريقة لسرد قصة اليشوف هى وصف " العاليوت " ، أو موجات الهجرة التى استوعبها اليشوف . استمرت الموجة الاولى من عام ١٨٨٢ الى عام ١٩٠٣ ، وهى فترة لم تكن فلسطين فيها بيئة مشجعة بأية حال ، وبالرغم من ذلك فقد " صعد " اليها خلال تلك الاثنتين والعشرين سنة حوالى خمسة وعشرين ألف يهودى وفد معظمهم من أوروبا الشرقية. ولم يكن لهؤلاء المستوطنين الجدد تأثير ظاهر على بيئتهم الموحشة ، ولكنهم قد يوصفون بعد مرور السنين ، بأنهم كانوا الرواد الاوائل ، ويعطون حقهم من التقدير لتوفيرهم الظروف الممهدة للمجهودات التالية. أما فى أيامهم فقد بدت انجازاتهم تافهة غير مجدية ، فقد تبخر حماسهم الأول بسرعة بسبب الظروف التى قابلتهم ، وبسبب عدم خبرتهم بالزراعة ، فتحول معظمهم الى حياة أقرب الى حياة المستعمرين منها الى حياة الرواد . ومع بداية عام ١٩٠٠ لم يكن بالقرى القليلة التى أسسوها سوى ٤٧٣ عاملا يهوديا (١٢)، فقد تحول

آلاف اليهود الآخرين الى العمل فى المدن ، أو أصبحوا من أصحاب المزارع يستأجرون اليد العاملة العربية ، أو — فى حالات غير قليلة — عادوا الى روسيا .

المرجة الثانية للهجرة :

خلال السنوات العشر التى استغرقتها موجة الهجرة الثانية (١٩٠٤ — ١٩١٣) ، وصل الى فلسطين حوالى أربعين ألف مهاجر يهودى جديد ، وهذا معدل يزيد عن ضعف معدل الموجة الاولى " (ان الخمسة والستين ألف مهاجر فى الموجتين الاولى والثانية ليسوا سوى جزء صغير جدا بالنسبة لأكثر من مليونين ونصف مليون يهودى تركوا أوروبا الشرقية الى الغرب بين عامى ١٨٨٢ و ١٩١٤) . وقد تكونت كلتا الموجتين للهجرة أساسا من المهاجرين القادمين من روسيا ، ولكنهما اختلفتا فى جوهرهما ، فموجة الهجرة الثانية تستوجب منا اهتماما خاصا بسبب دورها الحاسم فى تشكيل شخصية " الييشوف " .

هناك ثلاثة عوامل تسبب الاختلاف بين الهجرتين الاولى والثانية :
الأول أن أفراد موجة الهجرة الثانية تأثروا تأثرا شديدا بالايديولوجيات الاشتراكية النامية فى ذلك الوقت ، فكان تصورهم لأنفسهم كشخصيات مأخوذة من روايات تولستوى تعد الى حياة جديدة رومانسية أقل من تصورهم لأنفسهم كدعاة لنظام اشتراكى جديد ، وقد ميزهم عن غالبية معاصريهم فى روسيا أنهم كانوا على استعداد لتطعيم الايديولوجية الاشتراكية التقليدية باتجاه

قومى ، وهو الاتجاه الذى تنكره النظرية الاشتراكية التقليدية صراحة.
والعامل الثانى أن وفودهم الى فلسطين كان بعد تكوين المنظمة الصهيونية ، وبعد موجة الهجرة الأولى ، وبالتالى كان وضعهم يؤهلهم لاستمداد معونة مادية ونفسية أكبر نوعا من سابقيهم ، كما أن ذلك يعنى أن مكونات المجتمع كانت موجودة فعلا ، وأن مشاكل التكيف المبكر قد تم حلها جزئيا ، وأن أمامهم مجموعة من السوابق والتجارب والأفكار المتعلقة بحل المشاكل المنتظر مواجهتها لم تتوافر لأفراد الهجرة الأولى . والعامل الثالث والأخير أن الأعداد القادمة مع الموجة الثانية كانت من الضخامة بحيث خففت من تلك العزلة القاتلة للروح المعنوية.

ولم تتحسن الظروف الطبيعية عند قدوم الموجة الثانية من المهاجرين. أما القطاع اليهودى للاقتصاد فكان يرتكز أساسا على الأيدى العاملة العربية. وكما حدث لمن سبقهم فان الكثيرين من المهاجرين الجدد انتظموا داخل الاطار الاجتماعى القائم ، ولكن أقلية مميزة تدفعها ايديولوجية الاشتراكية الصهيونية حاولت الانفصال عما تصوره أعضاؤها كواقع غير ملهم ، وكذلك أصروا على أن عودة الحياة اليهودية الى فلسطين تتطلب أكثر من مجرد الوجود المادى لليهود فى البلد ، فهى تتطلب بذل الجهد لاقناع أصحاب الأعمال اليهود ، وبالأخص فى قطاع الزراعة ، باستخدام الأيدى العاملة اليهودية لتكوين طبقة عاملة وطبقة من الفلاحين ، كما تتطلب من اليهود أن يتولوا مسئولية الدفاع عن مستوطناتهم بأنفسهم بدلا من استئجار الحراس من العرب حتى يصبح مجتمعهم معتمدا على نفسه معتمدا بذاته ، وكذلك لا يمكن قيام النهضة

اليهودية الا على احياء العبرية كلغة قومية مشتركة بين المستوطنين اليهود .

ولم يكن فرض أي من هذه المتطلبات بالأمر اليسير ، فقد قامت اعتراضات على استخدام الأيدى العاملة اليهودية بسبب ما يعنيه ذلك من أجور مرتفعة علاوة على عدم خبرة الفلاحين المنتظرين ، كما أن عدم الثقة بقدرة اليهود على حفظ النظام ، والصعوبة الجمة فى التحدث بلغة ليست لغة أصلية الا بالنسبة الى القليلين جدا (اللغة العبرية) ، فضلا عن افتقارها الى الكثير من مفردات اللغة العادية — كل ذلك شكل عقبات خطيرة فى سبيل قبول هذه المتطلبات . ومع ذلك فقد تحقق كل منها بمساعدة ايديولوجية محكمة مدروسة .

لقد استحدثت موجة الهجرة الثانية الجديدة ، حيث واجهت العقبات الخطيرة . وهكذا كان تكوين الكيبوتز (أو المستعمرات الجماعية) أكثر ابتكارات اسرائيل الاجتماعية تطرفا ، كما كان يلقى معارضة من أول مبادىء الايديولوجية الماركسية ، فقد تكون كرد فعل لعدم كفاية فرص العمل فى مجال الزراعة التقليدية . وفى حالة مماثلة ، بدأ ما يقرب من ستين مستوطنا فى بناء مدينة تل أبيب بالقرب من ميناء حيفا حيث لم يتوافر لهم العمل أو المسكن بسهولة ، ولم تكن تل أبيب فى ذلك الوقت سوى رقعة ممتدة قاحلة من الكثبان الرملية . وهكذا ، وببطء ، بدأ ظهور احساس بالمجتمع ، وبدأت الدوافع القومية فى الظهور .

الموجة الثالثة : بوصول الموجة الثالثة من المهاجرين (وقد بلغ عدد أفرادها حوالى خمسة وثلاثين ألفا بين عامى ١٩١٩ و١٩٢٢) اكتسب قطاع الرواد فى مجتمع الييشوف تعضيدا جوهريا . وقد كان أغلب رجال ونساء الموجة الثالثة ، كسابقيهم ، من المهاجرين الروس المعوزين ، ولكن الكثيرين منهم كانوا قد ضربوا لأنفسهم جذورا قوية فى الحركة الصهيونية قبل وصولهم ، كما أن بعضهم كان قد تلقى بعض التدريب المعين فى الزراعة . وهكذا ، لم يعد للواقع الفلسطينى سابق صرامته ، كما أصبح الوافدون الجدد على خير استعداد لمواجهته ، وبذلك تبلوروا مع أسلافهم الذين كانوا قد اكتسبوا بعض الخبرة فى ذلك الوقت ، فتوسعوا فى مد المستوطنات الأولى على نمط الكيبوتز ، كما وضعوا أسسا جديدة فى عدة نواح فافتتحت المدارس من مرحلة الحضانة الى الجامعة ، وأنشىء الهستدروت ، وهو اتحاد العمال الرئيسى فى اسرائيل ، كما اختبرت طرائق جديدة للتنظيم الزراعى ، وعندما وضح امكان تنفيذ الاستيطان العملى الناجح بحيث يوفر بدايات قاعدة اقتصادية لمجتمع الييشوف النامى ، بدأ الاهتمام بالاتجاه الى تكوين تنظيمات للحكم الذاتى الكميونى والى حد ما اعتبرت هذه التنظيمات كتمهيد للاستقلال ، وكذلك اعتبرت ، الى حد ما ، كرد فعل لفشل السلطة الحاكمة فى توفير الخدمات الاجتماعية والتخطيط المركزى ، كما أنها نتجت بالطبيعة من الوضع الايديولوجى لمجتمع الييشوف ، حيث أن الجماعات التى تكونت كانت مبنية على أساس قومى فى الأصل .

لم يكن كل أولئك المهاجرين ، أوحتى أغلبهم ، القادمين ابتداء من عام ١٨٨٢ والأعوام التالية ، من ذوى الاتجاهات الايديولوجية ، فلم

يستجيب أغلبهم لنداءات العمل الرائد وإعادة البناء الشخصى . وبالرغم من ذلك ، فان الأقلية هى التى أمدت بتماسكها ونشاطها لونا للمجتمع النامى وأضفت على البلاد طابعا ساعد فى وجه تغييرات جذرية فى جميع الجهات تقريبا . لقد تمكن الرواد من القيام بهذا العمل ، لا بسبب حماسهم فقط ، ولكن لأنهم كانوا يعملون داخل نوع من الفراغ الاجتماعى ، فقد كان هناك افتقار كامل لأى تنافس واضح حول النفوذ الثقافى ، حيث أن العوائق التقليدية التى يتميز على الحركات الثورية صراعها ومكافحتها — من صلات القرابة المتوطدة ، والطبقية ، والارتباطات العاطفية فى أماكن ومناطق معينة — لم تكن موجودة أصلا (١٣) .

وقد يبدو من الغريب وصف الصهاينة الاشتراكيين بأنهم ثوريون ، اذ لم يكن هناك ، فى ذلك الوقت على الأقل ، أى نظام حكم قائم يمكنهم السعى فى الاطاحة به ومع ذلك فقد اعتبروا أنفسهم ثوارا — ثورتهم ضد تقاليد وسلوك يهود " الدياسبورا " (المنفى) ، كما أنها ضد تقاليد وسلوك المجتمع اليهودى القديم فى فلسطين . كذلك لم ينظروا الى أنفسهم كمهاجرين أو مستعمرين ولكن كرواد يصرون على قطع كل صلة لهم بالماضى قطعا جذريا . وبالرغم من اعتقادهم بأن الاستقلال السياسى خطوة ضرورية فى سبيل تأسيس نظام جديد ، كان جل اهتمامهم موجها الى المجتمع وليس الى السياسة ، فقد كانوا فى طريق خلق مجتمع من نوع جديد وليس دولة جديدة فحسب ، وكان أملهم فى مجتمع يعتمد على ذاته ويرتكز على المشاريع التعاونية والطوعية الاختيارية . كذلك كانوا على وعى كامل وغير هوى بأن مثل هذا المجتمع سوف يأخذ المطالبة

بالاستقلال السياسي ، فأخذ أكثر جدية من أمة من " رجال الجو " .

وفي تلك الأثناء ، أصبحت التطورات السياسية خارج فلسطين أكثر تشجيعا ، ففي سنة ١٩١٧ أصدرت الحكومة البريطانية وعد بلفور الذي عبرت فيه عن تحبيذها " لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ".(١٤) وعندما تمت تصفية الامبراطورية العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وأعطيت بريطانيا سلطة الانتداب على فلسطين من قبل عصبة الأمم اكتسب وعد بلفور على الفور أهمية عظمى وعلى مر السنين صار حجر الزاوية للحجة شبه القانونية والمعنوية للحركة الصهيونية .

وبالرغم من ذلك ، ففي خلال نهاية موجة الهجرة الثالثة ، كان مجتمع الييشوف لايزال يبدو وكأنه مشروع وقتي سريع الزوال ، فقد كان تعداده خمسة وثمانين ألف نسمة ، أي أقل من ١ % من تعداد يهود العالم ، وأقل من ١١ % فقط من تعداد السكان في فلسطين . كذلك قل تأييد بريطانيا السياسي له عندما تولت مهام الانتداب من عصبة الامم ، فحاولت شق طريق آمن بين المطامح الصهيونية ومعارضة العرب المتزايدة لهذه المطامح . ولم تكن قوة احتمال الاستحداثات في المؤسسات اليهودية الأولى قد تبينت بعد ، كما أنه لم يكن من المؤكد أن مثل هذه المؤسسات ستكون كافية في حالة بدء هجرة جماعية اذ لم يكن من السهل توفير رؤوس الأموال المستثمرة كما أن أصحاب القدرة على استثمار الأموال لم تشجعهم نذر الاضطراب السياسي في المستقبل وصعوبة تصور اقتصاد مبنى على العمالة اليهودية . ولقد اجتذبت الدعوة الراديكالية

للصهيونية الاشتراكية أعدادا ضخمة من الشباب المهاجرين من روسيا ، ولكنها حتى ذلك الوقت فشلت في ايجاد أى استجابة ملموسة بين اليهود الأكبر سنا من الدول الأخرى ، وهم أصحاب المهارات المهنية والتكنولوجية ، وربما أيضا النفوذ الذى يساعد على الاستقرار وتثبيت الأوضاع ، مما ستظهر الحاجة اليها جميعا ، طال الوقت أو قصر . وهكذا ، وحتى سنة ١٩٢٢، لم يكن التأكد من احتمال حكم ذاتى يهودى ممكنا ، وهذا بصرف النظر عن قرب قيامه . وأخيرا ، تطورت الأمور بحيث أصبح الحكم الذاتى المستقل مقيدا ومحددا على أية حال ، فقد قامت بريطانيا عند توليها سلطة الانتداب بتقسيم فلسطين الى قطاعين اداريين يفصلهما نهر الاردن . ومنذ ذلك الوقت كان القطاع الغربى فحسب هو الذى يعرف باسم فلسطين .

وقد اقتصرت المجهودات الصهيونية على ذلك القطاع (كذلك سوف نرى أنه بعد مرور سنوات أصبح تقسيم فلسطين هذا نقطة هامة فى المخطط السياسى لأحد الأحزاب السياسية الرئيسية فى اسرائيل) .

<u>الموجة الرابعة</u> : قدمت موجة الهجرة الرابعة بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٢٥ الشىء الكثير فى سبيل تدعيم أسس مجتمع الييشوف ، فقد كانت أعدادها أكبر من موجات الهجرة السابقة ، اذ بلغت حوالى ستين ألفا من المهاجرين ، ولكنها — على خلاف سابقاتها — تكونت فى الغالب من مهاجرى الطبقة المتوسطة البولنديين ، وقد انجذب معظم هؤلاء الى المناطق الحضرية النامية فى فلسطين حيث كان ٧٥ ٪ من السكان اليهود يقيمون بالفعل ، وبسبب غناهم النسبى فانهم لم يستنزفوا قدرة البلاد على استيعاب المواطنين كما كان متوقعا

فى غير هذه الحالة ، بل انهم — على العكس من ذلك — قدموا خميرة نافعة من " النسقية " للمجتمع الوليد .

وبالرغم من أن موجات الهجرة الأربع الأولى قد أسفرت عن زيادة تبلغ ٦٠٠ % فى حجم الييشوف ، الا أن مدى سرعة تدفق الهجرة كان مخيبا لآمال الحركة الصهيونية ، فمن بين عدة ملايين من اليهود ممن تركوا بلادهم الأصلية بين عامى ١٨٢٢ و ١٩٣٢ وفد الى فلسطين أقل من مائتى ألف منهم فقط . وقد خاب الأمل فى أن يجعل عمل المستوطنين الأوائل البلاد أكثر جاذبية من الولايات المتحدة بالنسبة لجموع المهاجرين . وبالرغم من تأييد معظم اليهود فى جميع أنحاء العالم للحركة الصهيونية فان القليلين منهم كانوا على استعداد لاتخاذ خطوة " الهجرة " الحاسمة . ولذلك ، فعند نهاية موجة الهجرة الرابعة التى أطلقتها التغييرات التخريبية فى السياسة البولندية وسياسة الولايات المتحدة الجديدة لتقييد الهجرة اليها ، قلت الهجرة عموما بشكل ظاهر . كذلك فانه بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ ترك فلسطين بالفعل عدد من اليهود أكبر من عدد القادمين اليها . وعلى الرغم من أنه كان هناك مايحمل على الرضى ازاء مايحرزه الييشوف من تقدم كيفى ، فقد كان هناك أيضا قلق متزايد من أن خيبة الأمل من حيث الكم قد تكون وبالا على الدعوة الصهيونية . وبحلول عام ١٩٣٢ كان ١٧ % فقط من تعداد سكان فلسطين من اليهود ، ولم يكن ذلك نذيرا خطيرا بالنسبة للحكم الذاتى المستقل المأمول فحسب ، بل انه كذلك قد أثار تساؤلات خطيرة بالنسبة للافتراضات الأساسية للايديولوجيات الصهيونية .

الموجة الخامسة : لقد بددت ذلك القلق تلك الزيادة الحادة فــي سرعة الهجرة بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٩ ، وهى سنوات موجة الهجرة الخامسة . وقد كانت تلك سنوات الحزن والكرب فى أوروبا كما ظلت أبواب أمريكا محكمـــة الاغلاق تماما حتى سنة ١٩٣٦ على الأقل . ونتيجة لذلك ، وفد الى اسرائيل مائتان وخمسة وعشرون ألف مهاجر خلال تلك الفترة ، ولأول مرة يتدفق سيــل جارف من وسط أوروبا يشمل الكثير من المهنيين . ولذلك ، فعند نهاية تلــك الفترة ، اقترب مجتمع الييشوف من رقم النصف مليون وشكل حوالى ٣٠ ٪ مــن تعداد السكان .

وكان تعداد سكان تل أبيب يقارب الالفين ، فى حين بلغ تعدادهــا قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية مائة وخمسين ألفا . أما مدينة القدس فلـم يكن بها سوى عدد يقل من العشرة آلاف يهودى فى سنة ١٩١٩ ولكـــن تعدادها من اليهود ازداد الى تسعين ألفا فى سنة ١٩٣٩ ، وخلال تلـك الفترة أيضا تضاعف سكان مدينة حيفا من اليهود الى ستة أضعاف فوصل الــى ستين ألف يهودى عند نهاية فترة الهجرة الخامسة . وهكذا انتظم حوالــى أربعين ألف تلميذ فى مدارس الييشوف ، وفى كل مجال اقتصادى تقريبــا بدأت المئات من المنظمات التعاونية فى العمل تحت رعاية الهستادروت ، أو منظمـة اتحاد العمال بمجتمع الييشوف التى أسست كذلك جهازا شاملا للصحـــة العمومية . كذلك أصبحت الوكالة اليهودية جهازا شبه حكومى بعد أن كلفــت من قبل الانتداب بالتشاور والتعاون مع الادارة فى فلسطين فى الشئـــون الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الامور التى تتعلق بانشاء " الوطن القومى اليهودى " ، كما أصبحت لها سلطة واسعة فى الأمور المتعلقة بالييشوف واعتبرها

المستوطنون ممثلة شرعية لهم .

وهنا أصبح من الواضح لأول مرة أن الييشوف نفسه أصبح قوة لهـــا اعتبارها ، نبعت تماما عن قوة المنظمة الصهيونية العالمية أو جاذبيـــة الايديولوجية الصهيونية ، أصبح الآن في فلسطين مجتمع كبير قائم بذاتـــه له من القوة مايكفي لخلق مطالبه واستراتيجياته الخاصة ، ولم يعد بامكـــان الدبلوماسيين أن يتجاهلوا وجوده ، أو بامكان زعماء الصهيونية الأجانـــب أن يدعوا أنهم يمثلونه حق التمثيل .

وهكذا انتقلت زعامة الحركة الصهيونية بشكل قاطع الى فلسطين حيـــث رسخت جذور ايديولوجية الاستقلال . وقد مال بعض الصهاينة من الاجانـــب الى الاخذ بصيغة " بالفور " ، أي " انشاء وطن قومي للشعب اليهودي فـــي فلسطين " ، وهذه الصيغة تلمح بشيء أقل من الاستقلال ، كما أنها تتفـــق ونظرة يهود الغرب الى فلسطين كمأوى وملاذ ، ولم يكن ذلك بالمقبـــول لأكثرية مجتمع اليیشوف نفسه ، الذي كانت ايديولوجية " النهضة " توجهه . وقد تمكن اليیشوف — بسبب حجمه وقوة مؤسساته — من التعبير عن نفسه وكـــان مطلبه انشاء كومنولث يهودي مستقل في فلسطين .

نحو الاستقلال : وكما ازدادت قوة اليیشوف ، كذلك ازدادت معارضة العرب لأي استيطان يهودي جديد ، فقد كان للغالبية السائـــدة من السكان العرب تطلعاتهم القومية الخاصة ، وقد وجدوا في المجتمع اليهودي النامي خطرا على هذه التطلعات . وبالرغم من أن عروض الاستقلال العربيـــة

واليهودية على السواء قد شملت ضمانات لحقوق الأقليات، الا أنه لم يكن من المتوقع أبدا أن تصير مثل هذه العروض بديلا مجديا عن تقرير المجتمع لمصيره .
وقد شجع تقدم الدول العربية المجاورة نحو الاستقلال قومية عرب فلسطين كما أنهم كانوا على وعى بالأهمية الاستراتيجية والسياسية لتعاون العرب بالنسبة لدول الغرب ، وخصوصا بالنسبة لبريطانيا العظمى ولفرنسا . وفى نفس الوقت ، يبدو من المحتمل أيضا أن نجاح المجتمع اليهودى قد أثار حقدهم ، ففى كل مجال اقتصادى بما فى ذلك مجال الزراعة — كما فى المحيط السياسى والتعليمى والحياة الثقافية للمجتمع ، كان اليشوف قد جاوز بكثير المستويات السائدة بين الغالبية العربية .

وبالرغم من وجود مجالات شاع فيها التعاون بين اليهود والعرب ، الا أن اليشوف واجه عدة اضطرابات عربية شاملة ، أبرزها وقع سنة ١٩٢٩ وكذلك سنة ١٩٣٦ . ولم يكن اشتعال هذه الاضطرابات نتيجة للشعور القومى الحق بين الفلاحين العرب بقدر ما كان نتيجة لحسابات المجلس الاسلامى الاعلى الاستراتيجية ، يوجهها عدد من أكبر ملاك الأرض من العرب (١٥) ممن كانوا على اقتناع بأن فى استطاعتهم سلوك نفس الطريق الذى سار فيه عرب العراق ولبنان وسوريا ومصر ، ففى كل مرة تمكن هؤلاء من الحصول على تنازلات من السلطات البريطانية أو الفرنسية عن طريق اثارة الاضطرابات المدنية ، وقد كانوا يأملون أن يجبروا بريطانيا على اعادة النظر فى أمر تعهدها بانشاء وطن قومى لليهود عن طريق اعلانهم أن العنف سيكون نتيجته الحتمية .

وبالفعل لقد تراجعت بريطانيا بشأن الحكم الذاتي اليهودي ، وكان ذلك نتيجة للاضطرابات ، من ناحية ، وبسبب الموقع الاستراتيجي للشرق الاوسط في حالة نشوب الحرب العالمية الثانية المحتملة . وليس من السهل تفسير سلوك بريطانيا أثناء الانتداب فما زالت كتابة تاريخ كامل محدد لتلك الفترة مطلوبة ، ولكن كان من الواضح أن بريطانيا لم تكن تشعر بالارتياح تجاه ماكان يتطور بسرعة ليصبح " المشكلة الفلسطينية" ، كما أنها قامت بعدة محاولات للحد من نمو الييشوف بفرض القيود على شراء الاراضي والهجرة على السواء ـ وكذلك عارضت استخدام قواتها الخاصة لحفظ السلام خلال فترات العنف ، ولكنها عارضت في نفس الوقت السماح لليبشوف بتكوين تنظيمه الدفاعي الخاص ، وفي سنة ١٩٣٧ أوصت اللجنة الملكية البريطانية الخاصة (لجنة بيل) بتقسيم فلسطين الى دولتين منفصلتين : دولة عربية وأخرى يهودية . وبحلول عام ١٩٣٩ ، وبالرغم من قبول المنظمة الصهيونية لفكرة التقسيم بعد جدال مرير وبتحفظات أساسية ، تم سحب الاقتراح وابداله بكتاب أبيض ، لم يكن اقتراحا هذه المرة ، ولكنه كان بمثابة بيان عن السياسة فمنذ خرق اتفاقية ميونيخ شعرت بريطانيا بحتمية نشوب الحرب العالمية وقررت اكتساب ثقة العرب . ولقد وضع الكتاب الابيض حدا أعلى لهجرة اليهود الى فلسطين خلال السنوات الخمس التالية قدر بخمس وسبعين ألف يهودي ، لا يسمح بعده بمزيد من الهجرة الا باقرار من العرب ، كما حدد شراء اليهود للأراضي بخمسة في المائة فقط من مجموع الاراضي ، أي في منطقة تركيز الاستيطان اليهودي . كما أعلن أيضا أن هدفه هو خلق فلسطين " عربية " مستقلة خلال ذلك العقد من السنين " اذا سمحت الظروف ".

وفى سنة ١٩٣٩ لم يكن بامكان أحد أن يتنبأ بالمأساة التى تنتظر يهود أوربا خلال السنوات الست التالية ، ولكن كان واضحا بالفعل أنه سوف يكون على اليشوف أن يتأهب لاستقبال أعداد ضخمة من اللاجئين أثناء وبعد الحرب المتوقعة ، فلم تكن هناك دولة أخرى على استعداد لتوفير الملجأ اللازم ، وهذا بصرف النظر عن تفضيل الصهيونية للهجرة الى اسرائيل . وعلى هذا الأساس وحده عارض اليشوف الكتاب الابيض بمرارة ، كما عارضته المنظمة الصهيونية وقد حبذت عدة جماعات يهودية سياسة العنف لفرض الغائه ولكن بعد أن تكشفت الامور تبين أنه ليس بامكان اليشوف أن يعارض بريطانيا اذ أن معارضته لبريطانيا كانت تعنى ارضاء المانيا النازية ، وعندما اضطر اليشوف الى الاختيار بين هدفه الاقرب ، وهو الاستقلال ، وبين مسألة البقاء اليهودى الأبعد مدى ، لم يكن هناك مجال للتردد فى التحالف مع الغرب خلال فترة الحرب.

ولم يكن هناك شك فى أن هذه الهدنة كانت مؤقتة فقط ، فان " الكتاب الابيض " والحرب اتحدا فى فرض تغييرات أساسية فى الاستراتيجية الصهيونية . وبما أن بريطانيا قد سمحت بالهجرة والتنمية الواسعة النطاق فان عدم تحمسها للكفاح الصهيونى ؛ لم يكن بالمشكلة الأساسية ، وفى داخل المنظمة الصهيونية ، كانت المالية وعلى رأسها ممثلو اليشوف مؤمنة بأن الواقع المطلق لوجود مجتمع يهودى ضخم حيوى داخل فلسطين سيكون أعظم تأثيرا وفاعلية فى الكفاح من أجل الاستقلال من تصريحات التعاطف والتأييد التى تكسبها المشروعات الدبلوماسية . وبالرغم من الاستياء الشديد بسبب تفسير بريطانيا للانتداب ، فلى هذا

التفسير لبعرقل المجهودات الصهيونية بشكل جدى الى أن صدر الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ . ومع ذلك ، فبصدور الكتاب الأبيض برز التساؤل حول مستقبل الييشوف كله ، فقد كان تأجيل الاستقلال الذاتى الى المستقبل البعيد من أجل التركيز على الهجرة والاستيطان شيئا ، والوضاء بما تحول الى مجرد تجميد لليشوف على مستوى سنة ١٩٣٩ شيئا آخر تماما .

لم تؤد الحرب العالمية الا الى تعزيز الوضع السياسى الجديد ، فلم يعد أى توسع منتظم بطىء فى مجتمع الييشوف بالشىء الكافى حتى ان سمحت به بريطانيا ، فاما أن تسحب بريطانيا الكتاب الابيض وتسمح بسيل لم يسبق له مثيل من مهاجرى بعد الحرب ، واما أن يصبح على الييشوف أن يصر على حقه فى تقرير المصير . وقد بدا كل ذلك واضحا تماما حتى أمام صهيونيى الضرب الحذرين نوعا ، ممن لم يأخذ الكثيرون منهم فكرة الدولة اليهودية بجدية تامة . وقد ظلت أبواب فلسطين محكمة الاغلاق خلال سنوات الحرب . وبالرغم من التشريد الجماعى ليهود أوروبا ، فقد استطاع خمسة وسبعون ألف يهودى فقط أن يدخلوا فلسطين وشهدت تلك السنوات أيضا تحول الهاجاناه أو قوة الدفاع الرسمية للييشوف من مجموعة سرية من المتطوعين لم يتدربوا الا على حرب العصابات ، الى نواة جيش منظم . وبصرف النظر عن تلك الخطوة البارزة ، كانت تلك فترة من الكبت الشديد ، فان أكثر من ٨٠ ٪ من يهود فلسطين قدموا من أوروبا خلال الأربعين سنة السابقة ، ونصفهم تقريبا وفد منذ ١٩٣٢ . ولهذا فان مذابح اليهود فى أوروبا كانت تعنى فى كل حالة تقريبا ، فقد الأقارب والاصدقاء .

وهكذا مرت فترة من الزمن بدا خلالها أن سنوات الاعداد والتمهيد قد تذهب سدى ، فهناك قدرة متزايدة على الاستيعاب ، ولكن لم يبق هناك أحد يستوعب، واذا ظلت هناك بقية فقد توافرت أسباب الشك فيما اذا كانت الأوضاع السياسية بعد الحرب ستسمح لها باللجوء الى فلسطين .

قبيل الاستقلال : لقد قتل ستة ملايين يهودى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبموتهم تبدد أهم احتياطى لتدعيم المخطط الصهيونى . أما يهود روسيا البالغ عددهم ٢٠٥٠٠٠٠٠ نسمة فمهما كانت درجة تعلقهم وارتباطهم بفلسطين فانهم لم يمنحوا الفرصة للتعبير عن مشاعرهم ، بصرف النظر عن أمر الهجرة ، وأما المجتمع اليهودى الأمريكى ، الذى أصبح فجأة أكبر المجتمعات اليهودية فى العالم ، فقد كان فى سبيل الاندماج السريع فى أسلوب الحياة الأمريكية . وقد تستجيب أعداد صغيرة لنداء الصهيونية ، وقد تقدم أعداد كبيرة المساعدات المادية والمعنوية ، ولكن أية هجرة واسعة النطاق الى فلسطين لم تكن متوقعة من هذه الجهة . وهكذا بقى من نجا من عمليات الابادة فى أوروبا ، وحوالى مليون يهودى ممن كانوا يعيشون فى البلدان الآسيوية والأفريقية فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط الاسلامى فى الغالب ، فاذا كان لمجتمع الييشوف أن يظل حيا فأولئك كانوا يمثلون موارده البشرية الوحيدة .

وفى تلك الأثناء ظلت المشاكل السياسية بدون حل ، فلم تكن حكومة العمال البريطانية التى تولت الحكم بعد الحرب أكثر استعدادا لتأييد

الاستقلال اليهودى فى فلسطين من حكومة المحافظين التى سبقتها قبل الحرب . وازداد الحاح اليهود فى طلب الهجرة الحرة ، وسبب رفض الحكومة البريطانية المستمر للسماح للاجئين الأوروبيين بالاقامة فى فلسطين تعليقة شبه كاملة بين اليشوف والسلطات البريطانية . وقد تمت الهجرة غير المشروعة على نطاق واسع ، كما أن عدة جماعات ممن بدأت القيام بأعمال تخريبية ضد الانجليز فى أواخر عام ١٩٢٠ عاودت ممارسة نشاطها . ومن أبرز هذه الجماعات جماعة " الارجون زفاى ليومى " ، وكانت استراتيجيتها هى فرض حل يجعل البريطانيين فى وضع يصعب الدفاع عنه أو احتماله ، كما كان أملها أن يجعل عطف العالم على الشعب اليهودى المضطهد هذا الحل فى صالح اليشوف .

وعندما أصبح وضع بريطانيا صعب الاحتمال فعلا لانها كانت تشعر بالحرج فى العودة الى معسكرات المشردين بالنسبة للمهاجرين المنتظرين من أوروبا ومواجهة معارضة العرب للدولة اليهودية ، الى جانب العناء والخطر المتزايد من الاعمال التخريبية ضدها ، وتكاليف اقامة حامية من مائة ألف جندى بريطانى فى فلسطين ، بالاضافة الى تمسك المنظمة الصهيونية واصرارها على المطالبة برفع القيود عن الهجرة — ازاء هذا كله ، أحالت بريطانيا مشكلة فلسطين الى الأمم المتحدة .

وبعد عدة شهور من التحرى ، اقترحت لجنة خاصة من الأمم المتحدة انهاء الانتداب البريطانى ، وتقسيم فلسطين الى دولتين ذاتى سيادة

احداهما يهودية والأخرى عربية ، وقد رفض العرب هذا الاقتراح بشدة وعنف ، ولكن البيشوف قبله بالرغم من أن عديدا من شروطه كان يمثل تنازلات رئيسية ، مثل تدويل مدينة القدس ، ولكنه — مع ذلك — كان يمنح البيشوف حــدا أدنى من ضمانات السيادة التى تمكنه من القيام بأكثر واجباته الحاحا ، وهــو استيعاب اللاجئين الاوربيين ،كما أنه كان يبدو واضحا أنه أفضل مايمكــن الحصول عليه حينذاك .

وأصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم فى التاسع والعشرين من نوفمــبر سنة ١٩٤٧ بأغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ صوا ، وتلت ذلك عدة شهور مــن الاضطرابات العامة شملت البلاد حيث أن بريطانيا رفضت توجيه مرحلــة الانتقال الى الاستقلال لكل من الدولتين الجديدتين ، كما تصاعدت الأعمــال العدوانية العربية ،وقد أثارت تلك الاضطرابات المشتعلة قلق المجتمع العالمى، وبالأخص فى الولايات المتحدة ، فبدأت اعادة التفكير بشأن قرار التقســيم ، ولكن البيشوف ، تحت زعامة دافيد بن جوريون ، لم يكن على استعداد لقبــول أى مزيد من التأخير . وعندما سحبت بريطانيا آخر حامياتها من فلسطــين فى شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، بادرت الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية باعــلان الاستقلال ، وفى الرابع عشر من مايو سنة١٩٤٨ تم اعلان قيام دولة اسرائيل .

وهنا أصبحت الاضطرابات غير الرسمية حربا رسمية بين العرب والدولــة الجديدة ، وقامت جيوش الدول العربية المجاورة ، التى لم يكن تفوقها مــن ناحية الموارد البشرية والمعدات محلا للجدل،بمهاجمة اسرائيل وان كـــان

اخلاص وفاعلية الجيوش العربية ، باستثناء الفيلق العربي الأردني ، موضعا للشك . واستمرت الحرب الى شهر مارس سنة ١٩٤٩ ، وانتهت بتدخل الأمم المتحدة . واذا جاز أن نقول ان الحرب أسفرت عن فوز أحد الطرفين فان اسرائيل كانت هى المنتصرة فى هذه الحالة ، فان الدولة الجديدة لم تتمكن من منع أى اقتحام خطير للمناطق التى خصصها لها قرار التقسيم فحسب ، بل تخطت تلك الحدود ووسعت مساحتها بزيادة حوالى الثلث على حساب دولة فلسطين العربية المفترضة (ضم معظم ماكان سيصبح فلسطين العربية الى المملكة الأردنية . ووضع جزء صغير منها ، وهو قطاع غزة ، تحت الادارة المصرية) . وبتوقيع اتفاقية للهدنة بين اسرائيل ومصر ، تلت اتفاقيات مماثلة بين اسرائيل والدول المعادية الأخرى ، انتهى ماتسميه اسرائيل بحرب الاستقلال . (١٦)

وهنا لانجد داعيا للكلام باسهاب عن أن العلاقات العربية الاسرائيلية لم تحرز قدرة من التقدم خلال السنوات التى تلت ذلك ، فأغلب حياة اسرائيل السياسية يستمد طابعه من واقع العداء العربى المستحكم ، كما أن أكثر مواردها يخصص لمواجهة ذلك العداء ، وسوف نتناول دراسة هذه الصعوبة الدائمة فيما بعد . وحيث أننا قد قدمنا بطل دراستنا الرئيسى ورسمنا تاريخه ، فعلينا الآن أن نتحول الى سياسته ، فما الماضى الا مقدمة ، ومقدمة فقط .

أخيرا : هناك بعض الخطر في أن تدعم المناقشة الى هذا الحد صورة ازدياد شيوعها بعض الشيء ، وان كانت غريبة نوعا عن اسرائيل . فبالنسبة لأناس كثيرين تمثل اسرائيل صورة شبه اسطورية سيريالية لحالة نفسية أكثر منها شيئا هائلا رهيبا ، وحالة ذهنية أكثر منها دولة . وربما لاتكون هذه النظارة بعيدة عن الحقيقة بصورة غريبة ، ولكن من الأفضل أن نبقى في أذهاننا أن دولة اسرائيل المستقلة ، سواء كانت أقرب أو أبعد من الأسطورة أو المثل المنشود ، فانها — على أقل تقدير — شيء آخر الى جانب ذلك ، فجنودها يسيرون على دقات طبول حقيقية ، ومدافعها تحدث جروحا قاتلة ، كما أن فيها بيوتا ومدارس ومحطات للاذاعة ومدافن وأضواء مرور وقاذورات ، ومطلبات وجرارات وعملة وحلاقين ، وهي لغز كغيرها من الدول ، وربما كانت أكثر غرابة من أغلبها ، ولكنها أيضا بلد له قوانينه وسجونه وشرطته ، وكل عتاده الآخر من معدات ولوازم الدولة الملموسة . ولكي يفهم المرء سياستها ، يجب عليه أن يتعرف أولا على جهازها علاوة على مزاجها . وبالطبع فان القصة السياسية تكمن قصة التفاعل بين المزاج والأجهزة .

ومن المفيد لنا ، قبل أن نمضي في الكلام عن ذلك ، أن نرسم ، ولو باختصار شديد ، القواعد الرسمية للعبة السياسية في اسرائيل : ذلك لأن على اللاعبين ، الذين سنقدمهم الآن ، أن يسلكوا طريقهم في حدود هذه القواعد . (١٧)

ان اسرائيل دولة ديموقراطية برلمانية ، وجهازها التشريعي الأساسي هو الكنيست ، وهو برلمان يتكون من مائة وعشرين عضوا يتم انتخابهم مرة كل

أربعة أعوام على الأقل . والكنيست يعتبر أقوى أجهزة الدولة السياسية رسميا . وليس لاسرائيل دستور مكتوب ، ولهذا فان للكنيست أن يصدر أى قانون يريده . واذا كانت فائدة الدساتير الاساسية هى ضمان حقوق الاقليات وحرية المعارضة ، فلدى اسرائيل بديل فعال ، اذ لم يحرز أى واحد من الأحزاب أغلبية مقاعد الكنيست أبدا ، ولا يبدو أن أيا منها سوف يتمكن من ذلك فى المستقبل القريب على الاقل . وبدلا من ذلك ، فان الكنيست يضم ممثلين لتسعة أحزاب أو أكثر ، لايسيطر أكبرها على أكثر من ٣٨ ٪ من المقاعد ، وحيث أن بقاء الحكومة يستلزم أن تؤيدها أغلبية أعضاء الكنيست ، فقد كانت كل حكومات اسرائيل ائتلافية ، تقوم على أساس تنازلات بين عدة أحزاب .

وعندما تظهر نتيجة الانتخابات يدعى زعيم أكثر الأحزاب أصواتا لتأليف الحكومة وحيث أن هناك حزبا واحدا ، فى الواقع ، كان دائما هو الاكبر ، وبما أنه لايمكن لأية مجموعة من الأحزاب أن تشكل حكومة ائتلافية قابلة للاستمرار دون ضم أكبر الأحزاب اليها ، فان زعيم ذلك الحزب — وهو حزب " ماباى " ، هو الذى يجرى مفاوضات الائتلاف ، وهو الذى يصبح رئيسا للوزارة ، ويشاركه كأعضاء فى الحكومة أعضاء آخرون من الحزب مع عدد من أعضاء الأحزاب الأخرى المؤتلفة مع الماباى . وقد اختلفت تلك الأحزاب المؤتلفة مع الماباى على مر السنين . وتعتبر عملية المفاوضات التى يتم اختيار هذه الأحزاب للوزارة بواسطتها ، والتنازلات التى يتضمنها هذا الاختيار ، من أغرب الظواهر فى سياسة اسرائيل ، مما سنتحدث عنه بافاضة فيما بعد .

ولحزب الماباى أيضا كلمة مسموعة فى كثير من المؤسسات شبه الحكومية وغير الحكومية ، مثل الوكالة اليهودية التى تتولى معظم المشاكل المتعلقة بالهجرة ، والهستدروت ، وهو اتحاد العمال الاسرائيلى العملاق ،

ولهذه الأسباب وغيرها ، يعتبر هذا الحزب أقوى التنظيمات فى البلاد . وبالرغم من ذلك ، فان عدم حصوله أبدا على أغلبية مطلقة فى الكنيست يحد من قوتــه بصورة أساسية . وبالرغم من أكثريته النسبية فانه لايستطيع البقاء بدون حلفـاء ، وبالتالى بدون المساومة والتسويات .

وهناك ماهو أبرز من الأجهزة الحكومية المحددة ، وهو عدم وجــود تحد أساسى لسلطة المؤسسات الحكومية منذ الاستقلال ، فالضرائب تحصــل ، والقوانين تسود ، وأحكام المحاكم تنفذ طبقا للقوانين ، وتجرى الانتخابــات بدون مصاعب أو مشاكل ، ويعتبر كل هذا بالنسبة لتجارب الكثير من الــدول الجديدة خلال العقد ونصف العقد الماضيين ، انجازا باهرا غير عــادى . ومما هو جدير بالذكر مما يقابل ذلك أن تاريخ اسرائيل لم يتسم منذ البدايــة بمشاكل النمو والاستقرار الاقتصادى التقليدية فحسب ، بل وبأخطر مشاكــل الأمن ومشاكل الهجرة الجماعية ، وهذا بالاضافة الى عدد من الانقسامــات الخطيرة داخل المجتمع الاسرائيلى كانت تنتظر حلا يفهمها . ومع وجود مثــل هذه المشاكل التى من شأنها أن تعوق قدرات أكثر الحكومات تجربة واستقرارا ، كيف تسنى لاسرائيل أن تحقق ذلك النجاح الكبير ؟ كيف تفادت أعمال الشغــب والتمرد ، والأزمات المتعلقة بالشرعية ، التى واجهتها كثير من الحكومات الــتى لاتثقل كاهلها مثل هذه المشاكل الجسيمة ؟ وكيف أمكن لاسرائيل أن تحافــظ على طابعها الديموقراطى الاصلى وسط كل هذه الأحداث ؟

ان الاجابات على هذه الاسئلة ستكون فى الصفحات التالية ، وهــذه الاجابات تعزو الفضل فى ذلك كله الى عملية التمهيد للحكم الذاتى المستقــل الذى وفرته الحكومة الاولية المجتهدة أيام الانتداب ، والى الاستثمــارات الحكومية الضخمة فى التعليم وعملية التكييف الاجتماعية التى جعلت الفواصــل

أربعة أعوام على الأقل . والكنيست يعتبر أقوى أجهزة الدولة السياسية رسميا . وليس لاسرائيل دستور مكتوب ، ولهذا فان للكنيست أن يصدر أى قانون يريده . واذا كانت فائدة الدستور الاساسية هى ضمان حقوق الاقليات وحرية المعارضة ، فلدى اسرائيل بديل فعال ، اذ لم يحرز أى واحد من الأحزاب أغلبية مقاعد الكنيست أبدا ، ولا يبدو أن أيا منها سوف يتمكن من ذلك فى المستقبل القريب على الاقل . وبدلا من ذلك ، فان الكنيست يضم ممثلين لتسعة أحزاب أو أكثر ، لا يسيطر أكبرها على أكثر من ٣٨ ٪ من المقاعد ، وحيث أن بقاء الحكومة يستلزم أن تؤيدها أغلبية أعضاء الكنيست ، فقد كانت كل حكومات اسرائيل ائتلافية ، تقوم على أساس تنازلات بين عدة أحزاب .

وعندما تظهر نتيجة الانتخابات يدعى زعيم أكثر الأحزاب أصواتا لتأليف الحكومة وحيث أن هناك حزبا واحدا ، فى الواقع ، كان دائما هو الاكبر ، وبما أنه لا يمكن لأية مجموعة من الأحزاب أن تشكل حكومة ائتلافية قابلة للاستمرار دون ضم أكبر الأحزاب اليها ، فان زعيم ذلك الحزب — وهو حزب " ماباى " ، هو الذى يجرى مفاوضات الائتلاف ، وهو الذى يصبح رئيسا للوزارة ، ويشاركه كأعضاء فى الحكومة أعضاء آخرون من الحزب مع عدد من أعضاء الأحزاب الأخرى المؤتلفة مع الماباى . وقد اختلفت تلك الأحزاب المؤتلفة مع الماباى على مر السنين . وتعتبر عملية المفاوضات التى يتم اختيار هذه الأحزاب للوزارة بواسطتها ، والتنازلات التى يتضمنها هذا الاختيار ، من أغرب الظواهر فى سياسة اسرائيل ، مما سنتحدث عنه بافاضة فيما بعد .

ولحزب الماباى أيضا كلمة مسموعة فى كثير من المؤسسات شبه الحكومية وغير الحكومية ، مثل الوكالة اليهودية التى تتولى معظم المشاكل المتعلقة بالهجرة ، والهستدروت ، وهو اتحاد العمال الاسرائيلى العملاق ،

ولهذه الأسباب وغيرها ، يعتبر هذا الحزب أقوى التنظيمات فى البلاد .وبالرغم من ذلك ، فان عدم حصوله أبدا على أغلبية مطلقة فى الكنيست يحد من قوتـــه بصورة أساسية . وبالرغم من أكثريته النسبية فانه لايستطيع البقاء بدون حلفـــائه وبالتالى بدون المساومة والتسويات.

وهناك ماهو أبرز من الأجهزة الحكومية المحددة ، وهو عدم وجــــود تحد أساسى لسلطة المؤسسات الحكومية منذ الاستقلال ،فالضرائب تحصـــل ، والقوانين تسود ، وأحكام المحاكم تنفذ طبقا للقوانين ،وتجرى الانتخابـــات بدون مصاعب أو مشاكل ، ويعتبر كل هذا بالنسبة لتجارب الكثير من الـــدول الجديدة خلال العقد ونصف العقد الماضيين ،انجازا باهرا غير عـــادى . ومما هو جدير بالذكر مما يقابل ذلك أن تاريخ اسرائيل لم يتسم منذ البدايــــة بمشاكل النمو والاستقرار الاقتصادى التقليدية فحسب ، بل وبأخطر مشاكـــل الأمن ومشاكل الهجرة الجماعية ، وهذا بالاضافة الى عدد من الانقسامـــات الخطيرة داخل المجتمع الاسرائيلى كانت تنتظر حلا ينهيها . ومع وجود مثـــل هذه المشاكل التى من شأنها أن تعوق قدرات أكثر الحكومات تجربة واستقرارا، كيف تسنى لاسرائيل أن تحقق ذلك النجاح الكبير ؟ كيف تفادت أعمال الشغـب والتمرد ،والأزمات المتعلقة بالشرعية ،التى واجهتها كثير من الحكومات الـــتى لاتثقل كاهلها مثل هذه المشاكل الجسيمة ؟ وكيف أمكن لاسرائيل أن تحافـــظ على طابعها الديموقراطى الاصلى وسط كل هذه الأحداث ؟

ان الاجابات على هذه الاسئلة ستكون فى الصفحات التالية ، وهــــذه الإجابات تعزو الفضل فى ذلك كله الى عملية التمهيد للحكم الذاتى المستقـل الذى وفرته الحكومة الاولية المجتهدة أيام الانتداب ، والى الاستثمـارات الحكومية الضخمة فى التعليم وعملية التكييف الاجتماعية التى جعلت الفواصـــل

الاجتماعية أقل حدة ، والى فاعلية الحكومة فى معالجتها لمشاكلها المختلفة وخاصة مشاكل الدفاع والتنمية، والى الصفات الخاصة والتزامات الهجرة الثانية التى وجه أعضاؤها مرحلة الانتقال ، والى التماسك القوى الذى قدمته " يهودية " الدولة اليهودية ، وأخيرا الى المشكلة الأساسية نفسها : خطر الابادة الذى يظهر بقسوة ، الأخطار الكامنة فى عدم الاستقرار. وان هذه الانجازات التى سرعان ماتناولها بالافاضة والشرح ، تبلغ مجتمعة ، كلا أكبر بكثير من أجزائه وان لم يصبح ، بعد ، كلا محصنا ضد الازمات الداخلية. ان مستقبل اسرائيل كدولة ديموقراطية مستقرة يبشر بالخير ، وان كان ذلك غير مؤكد حتى الآن . وسننتقل الآن الى الكلام عن مكونات مايبشر بالخير ، وكذلك عن عناصر الشك .

الفصل الثاني

الثقافة السياسية

ان دراسة السياسة تشير بالضرورة الى دراسة الثقافة السياسية ، أى كيف يفكر الناس ، وما هو شعورهم بالنسبة للعالم السياسى ، وما هى اعتقاداتهم ، وما الذى يؤمنون به ، وكيف يتصرفون ، وكيف تتوزع كل هذه المعتقدات وطرائق السلوك والمشاعر بين المجموعات داخل المجتمع (١) ومن الواضح أن التفريق بين احدى الدول والأخرى على أساس الاختلافات بين ثقافتيهما السياسية أمر نافع ، ولكن من الواضح أيضا أنه كثيرا مايكون مفهوم الثقافة السياسية مضللا بما يوحيه من قيم وعقائد ومشاعر موحدة داخل أى بلد واحد .

وعلى سبيل المثال ، فاننا نستطيع بل وينبغى أن نتكلم عن ثقافة الولايات المتحدة السياسية وكأنها ليست فكرة تجريدية مائة فى المائة ، ولكننا لن نحرز الكثير من التقدم فى فهمنا بدون أن نكون على استعداد لتحليل هذا التجريد الكلى الى تجريدات أقل روعة ولكنها أكثر مرونة : الثقافة السياسية فى الشمال ، والثقافة السياسية فى الجنوب — فى المناطق الزراعية والمناطق الحضرية ، فى الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة ، بين الزنوج والبيض ، بين اليهود والكاثوليك ، بين الرجال والنساء ، بين الشيوخ والشباب ، وهكذا ، وفى النهاية ، فان كل فرد فى حد ذاته يمثل ثقافة من نوع ما ولكننا لانجد المقدرة أو الحاجة لاختبار كل شجرة فى الغابة على حدة ، فاننا نسعى لتعريف البساتين المهمة ، أى التجمعات البارزة سياسياً . ان الثقافات

الفرعية شيء حيوي بالنسبة لأى نظام سياسى ، كما أن لها أهمية خاصة بالنسبة للدول الجديدة حيث يمكن أن تتهدد الشعور بالشخصية القومية التى لم يتم نموها بعد .

وليس من المحتم أن تكون الثقافة السياسية الفرعية مجموعة سكانية متميزة تربطها ببعضها البعض روابط المنطقة أو روابط الاصول أو المركز الاجتماعى — الاقتصادى أو العنصرية أو أى متغير " جامد " آخر ، ولكنها قد تكون ايديولوجية أو حتى مزاجا يسود أجزاء من المجتمع دون غيرها . وبالرغم من أن الكثير من الاختلافات الايديولوجية يتبع فى العادة خطوط التركيب الاجتماعى ، الا أنه ليس من الغريب أن نجد نماذج مختلفة للتوزيع الايديولوجى : نماذج تتبع البناء الاجتماعى المفترض بصورة غامضة فحسب .

ان كلا النوعين من الثقافة الفرعية له أهميته فى اسرائيل ، كما هى الحال بالنسبة للأفكار التى تتداخل فى كل المجموعات ، مكونة — الى حد ما — ثقافة سياسية قومية .

وفى هذا الفصل من الكتاب سوف لا نؤكد على الجانب السياسى ، بل سنؤكد على الجانب الذى يتصل بالأمر من الناحية السياسية ومن الواضح أن المجموعات والتجمعات التى نفحصها ذات صلة وثيقة بالثقافة السياسية . ومع ذلك ، فاننا نصور فيما يلى أهم الظواهر الاجتماعية الثقافية التى لها أهميتها الكبرى بالنسبة لسياسة اسرائيل ، ولكننا لن نصور السبل التى تجعلها هامة . وقد أجلنا المناقشة المفصلة للروابط بين المجتمع والسياسة ، أو حتى الميول السياسية لمختلف المجموعات المذكورة فيما يلى ، وذلك حتى ندرس تماما هيكل اسرائيل السياسى وأسلوبها :

الشرق والغرب

مرت فترة من الزمن كانت الثقافة القومية النامية فيها أكثر مايستوقف اهتمام الدارسين لاسرائيل ، واعتبرت الثقافات السياسية الفرعية — ان كانت قد نوقشت أصلا — أمورا غير مهمة ، وكان ذلك زمن الييشوف ، مجتمع ماقبل الاستقلال . وبين عامي ١٨٨٢ و ١٩٤٨ كان تسعة من بين كل عشرة مهاجرين الى فلسطين من القادمين من أوروبا ، وأكثر من نصف هؤلاء كانوا من روسيا وبولندا فقط ، أما أغلب اليهود من مواليد فلسطين فقد كانوا لآباء أوروبيين .

وبالرغم من كثرة المتناقضات داخل مجتمع الييشوف ، فان طابع الحياة الغالب عليه كان أوروبيا بصورة واضحة ، كما أن الصهيونية الرائدة كانت هي الايديولوجية السائدة . أما في التعليم والمطامح ، وفي التنظيمات السياسية والمضمون الثقافي ، وفي الحياة الأسرية والاستهلاك ، فقد كانت التقاليد الغربية هي الأهم والأبرز ، وحيث نبذت هذه التقاليد صراحة — كما حدث في حالة التأكيد على القيم الجماعية ، وعلى التعاون والتطوعية — فان هذا النبذ نفسه كان نابعا من تجربة اليهود الأوروبيين ، فقد كانت الصهيونية نفسها ايديولوجية أوروبية بقدر ماهي يهودية ، وقد استمدت مضمونها اليهودي من تجربة اليهود في أوروبا .

لم يفهم كل فرد في مجتمع الييشوف أخلاقيات الريادة ، كما لم يندمج كل فرد في نظرية الصهيونية ، فالأغلبية وفدت الى فلسطين لأسباب شخصية خاصة ، وعندما استقرت بها عاشت حياتها الخاصة ، ولكن النخبة الناقدة في السياسة والثقافة والاتصال كانت ، بلا استثناء من الملتزمين بالصهيونية .

وبالرغم من وجود خلافات بين الصفوف الصهيونية فقد ساد شعور مشترك شديد القوة بأنهم يمثلون طليعة تطور تاريخى كبير . وفى الحقيقة ، لم يكن هناك أى ايديولوجية معارضة ذات بال ، أو أية منافسة حقيقية لمضمون الأخلاقيات العامة .

ولقد عملت الظروف التاريخية على تقوية وتدعيم التزام مجتمع اليشوف بالقيم التى أصبحت تنسب أساسا لموجة الهجرة الثانية . وقد جعل اهمال بريطانيا من الفضيلة الايديولوجية للمسئولية الشخصية ضرورة عملية ، أما الوضع فى أوروبا فقد جعل من خلاص اليهود حاجة ملحة . وهكذا تحول ماكان من المحتمل أن يمر كاحدى تجارب التاريخ العقيمة لخلق مجتمع مثالى الى رد فعل عملى لبيئة معادية . وقد كان رد الفعل مؤثرا ، وأمكن تطبيق الايديولوجية فاكتسبت بتطبيقها وممارستها احكاما وتوسعا ومكانة . وحتى قبل الوصول الى الاستقلال كان من الواضح أن اليشوف مشروع ناجح ، ولا يهم أن هذا النجاح قد شمل بلاشك الكثير مما لاعلاقة له بالايديولوجية الرسمية ، ولكن الايديولوجية أصبحت ضرورة حتمية . وأصبحت الصهيونية الرائدة ، بسعة انتشارها وتهجين موسسيها ، عقيدة عامة للجميع ، وايمانا خاصا للكثيرين ، وامتدت جذور قواعدها : دعوتها للمساواة ، والعمل ، وتحقيق الذات بالتضحية بالنفس ، والتوجيه الجماعى بدلا من الفردى . وتلاشى تدريجيا احساسها القديم بالحرمان والضياع والاستغلال ، والفردية ، والقيم والسلوك البورجوازى ، فلم يبق لاستكمال البعث اليهودى سوى الاستقلال السياسى، ولكن ثبت أن الحصول على الاستقلال سنة ١٩٤٨ لم يكن بالخطوة الأخيرة فى تحقيق مبادئ الصهيونية بقدر ماكان الخطوة الاولى فى تحول جذرى فى مجتمع اليشوف — تحول فى كل المجالات تقريبا . والى حد ما ، فقدكان سبب ذلك هو وضع الدولة

ذاتها ، فالمهام التى كانت تنجز حتى قيام الدولة بروح المغامرة تم تسليمها للدولة حيث أصبح انجازها أميل للرسمية والبيروقراطية . وحتى بالرغم من أنه لم يكن هناك تغير كبير فى الموظفين فى السنوات الاولى بعد الاستقلال ، فان مقاييس النجاح تحولت من الارتجال الخيالى الى مستويات أكثر تقليديـــة : الكفاية والتدبير . فما كان مجرد ميليشيا أصبح جيشا نظاميا ، وماكان مجـرد عرف اجتماعى أصبح التزاما قانونيا، وماكان مجرد تجربة أصبح مؤسسة . ويبـــدا من الواضح أنه اذا كانت الصهيونية هى الايديولوجية الجذابة التى جلبت الآلاف من الناس من المجتمعات اليهودية التقليدية فى أوروبا ، فان اسرائيـــل على أعتاب مرحلة تصير فيها الجاذبية روتينية ، ولو بالتدريج .(٢)

ومع ذلك فقد كانت الخطوة بين الروتينية والتحول الجذرى واسعة ، ولـم تكن حقيقة الاستقلال هى المسئولة عن أبرز التحولات من طرق اليشـــــوف . ومن المرجح أن الهجرة الجماعية كانت هى المسئولة عن ذلك ، فخلال الستـــة والستين عاما من الاستيطان فى فترة ماقبل الاستقلال وفد الى فلسطين حوالـــى خمسمائة ألف يهودى . وحتى خلال أكثر فترات الهجرة تركيزا ، بين عامـــى ١٩٣٢ و ١٩٣٩ ، وفد مائتان وخمسون ألفا فقط ، ومع ذلك فبعد مـــرور ستة أشهر على الاستقلال وفد مائة ألف مهاجر خلال الشهور الثمانية عشر الأولى وثلاثمائة وأربعون ألفا عند نهاية عام ١٩٥١ ، أى حوالى سبعمائة ألـــــف ، أما عدد المهاجرين منذ سنة ١٩٤٨ حتى اليوم فقد تعدى المليون بكثير .

وحتى لو كان جميع القادمين الجدد أصحاء وأثرياء وعقلاء فان استنزافهم لموارد الدولة الجديدة لابد أن يكون مربكا ، ففى أحسن الأحوال كان وجـود جهاز حكومى موسع ضروريا لحل مشاكل الاسكان والتعليم وتوفير فرص العمـــل

وغيرها من عشرات الآلاف من متطلبات الأعداد الضخمة من الناس. وفي هذه الحالة كانت ظروف الهجرة الجماعية أبعد ماتكون عن أحسن الأحوال ، فان التدفق الفوري للأشخاص المشردين من أوروبا من الذين ظلوا على قيد الحياة بعد كارثة لايمكن تصورها ولم تكن في الحسبان ، وفدوا الى اسرائيل بمزيج من اليأس والخيال ومن أضغاث أحلام من الماضي ورؤى مستحيلة لمستقبل مثالي . لقد كانوا لاجئين وليسوا روادا ، كانوا منهوكي القوى ومرضى ، وكانوا يائسين . وبالرغم من استجابة القليلين للصهيونية قبل الحرب العالمية الثانية، فقد أصبحوا الآن جميعا " عائدين الى الوطن " ،ولأن اسرائيل كانت " الوطن " فان توقعاتهم كانت كبيرة ،فهنا سترفع المظالم عن كاهلهم وهنا سوف يرتاحون بعد عناء ، وتقدم لهم الخدمات . ولم يكن الأمر باختصار وببساطة ،هو أنهم تركوا أوروبا بعد رجال ونساء الييشوف بعشر أو عشرين سنة ، وانما تركوا أوروبا مختلفة كما أنهم كانوا أناسا مختلفين .

ويشير هذا الاختلاف مرة ثانية ، كما أشارت الأعداد وحدها من قبل ، الى توسع في خدمات الدولة والى نهاية عهد وضع القواعد الذاتية غير الرسمية كما كان الحال في الأيام الأولى القليلة . والأهم من ذلك أيضا هو انتهاك التجانس المميز لليشوف وظهور الانشقاقات في ذلك الاجماع في الرأي الذى تم تكوينه بنجاح وبعد عناء .

وبالرغم من ذلك فقد كان هناك أمل في أن تزول ذكريات مهاجري أوروبا المؤلمة ، وأن يكون لهذه الأرواح المعذبة ، كما كان لأسلافهم الاشداء ،خلاص داخل اطار القيم القائمة في اليشوف . وبالرغم من أنهم كانوا مختلفين فانهم كانوا نفس الناس . فقد قرأوا نفس الكتب ، وهللوا لنفس الألحان ،وصلوا بنفس

الأسلوب ، وورثوا نفس التاريخ ونفس الأبطال ، كما ربأهم نفس الآبـــاء ،
والآن ، ألا يتعلمون نفس اللغة الجديدة ، والمهارات الجديدة ، والقيم
الجديدة ؟ لقد كان اليشوف غربيا ويهوديا ، وكذلك أيضا كان المهاجرون
الجدد ، وإن لم يكونوا روادا مخلصين أو صهاينة متفانين فان الايديولوجيـة
القديمة لم تكن غريبة عنهم على أى حال .

لقد أصبح مصير ايديولوجية اليشوف واحدا من أهم مسائل السياســة
الاجتماعية فى اسرائيل ، ولكننا لم نصل ، بعد ، الى المرحلة المناسبة لمناقشته
فقد تأثر جوهره ، كما تأثرت جميع مظاهر الحياة الاسرائيلية ، بحقيقة أن أكثر
من نصف المهاجرين الذين قدموا الى البلاد منذ عام ١٩٤٨ لم يكونوا من مواليـد
أوروبا ، بل من مواليد الشرق الأوسط . والواقع أنه منذ عام ١٩٥١ وخــلال
عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٢ أيضا ، كان أكثر من ٧٠ ٪ من المهاجرين القادمين
شرقيين (٣) ويلخص الجدول التالى (٢ ـ أ) تاريخ الهجرة الى فلسطين
ثم الى اسرائيل ، أما الجدول (٢ ـ ب) فيبين التغييرات التى طـرأت
على تعداد سكان اسرائيل من اليهود كنتيجة لهجرات ما بعد الاستقلال :

• • •

يقدم الجدول رقم (٢ ـ أ) بيانات عن المهاجرين فقط (٤) ، وفيـه
نجد أنه بين عامى ١٩١٩ و ١٩٤٨ كان المهاجرون الى فلسطين من أفريقيـا
وآسيا يمثلون ٤ر١٠ ٪ من مجموع المهاجرين ، وأنه بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٦٢
عندما ازدادت الهجرة ازدادت نسبة الشرقيين الى ٦ر٥٤ ٪ . وعلينـــا
أن نذكر هذه الحقائق عند فحصنا للجدول رقم ٢ ـ ب ، حيث يمثل كل سكان
اسرائيل اليهود مقسمين حسب مسقط رؤوسهم .

جدول رقم (٢ — أ)

المهاجرون حسب القارة الأصلية وسنة الهجرة

التاريخ	الأعداد الكلية: أفريقيا وآسيا	الأعداد الكلية: أوروبا وأمريكا	الأعداد الكلية: المجموع (أ)	النسب المئوية: أفريقيا وآسيا	النسب المئوية: أوروبا وأمريكا	النسب المئوية: المجموع (ب)
١٩ — ١٩٤٨	٤٤,٨٠٩	٣٨٥,٠٦٦	٤٥٢,١٥٨	١٠,٤	٨٩,٦	١٠٠
٤٨ — ١٩٦٢	٥٧٥,٧٥٥	٤٧٩,٦٠٥	١,٠٧٤,٧٩٢	٥٤,٦	٤٥,٤	١٠٠
١٩٤٨ (من ٥ — ١٤)	١٢,٩٣١	٧٧,٠٣٢	١٠١,٨١٩	١٤,٤	٨٥,٦	١٠٠
١٩٤٩	١١٠,٧٨٠	١٢٣,٠٩٧	٢٣٩,٠٧٦	٤٧,٣	٥٢,٧	١٠٠
١٩٥٠	٨٣,٢٩٦	٨٤,٦٣٨	١٦٩,٤٠٥	٤٩,٦	٥٠,٤	١٠٠
١٩٥١	١٢٣,٤٤٩	٥٠,٢٠٤	١٧٣,٩٠١	٧١,١	٢٨,٩	١٠٠
١٩٥٢	١٦,٧٢٥	٦,٦٤٧	٢٣,٣٧٥	٧١,٦	٢٨,٤	١٠٠
١٩٥٣	٧,٧٦٠	٢,٥٧٤	١٠,٣٤٧	٧٥,١	٢٤,٩	١٠٠
١٩٥٤	١٥,٤٩٣	١,٩٦٦	١٧,٤٧١	٨٨,٧	١١,٣	١٠٠
١٩٥٥	٣٣,٧٣٦	٢,٥٦٢	٣٦,٣٠٣	٩٢,٩	٧,١	١٠٠
١٩٥٦	٧٤,٦١٧	٧,٣٠٥	٥٤,٩٢٥	٨٦,٧	١٣,٣	١٠٠
١٩٥٧	٢٩,٣٦١	٣٩,٧٦٣	٦٩,٧٣٣	٤٢,٥	٥٧,٥	١٠٠
١٩٥٨	١١,٤٩٠	١٤,٤٢٨	٢٥,٩١٩	٤٤,٣	٥٥,٧	١٠٠
١٩٥٩	٧,٦٣٥	١٥,٣٤٨	٢٢,٩٨٧	٣٣,٢	٦٦,٨	١٠٠
١٩٦٠	٦,٨٠١	١٦,٦٨٤	٢٣,٤٨٧	٢٩,٠	٧١,٠	١٠٠
١٩٦١	٢٢,٠٠٤	٢٤,٥٦٤	٤٦,٥٧١	٤٧,٣	٥٢,٧	١٠٠
١٩٦٢	٤٦,٦٧٧	١٢,٧٩٣	٥٩,٤٧٣	٧٨,٥	٢١,٥	١٠٠
المجموع الكلي (من ١٩١٩ إلى ١٩٦٢)	٦٢٠,٥٦٤	٨٦٤,٦٧١	١,٥٢٦,٩٥٠	٤٣,٤	٥٦,٦	١٠٠

تضم مجموعات (أ) ٤١,٧١٥ مهاجرا لم تذكر قارة موطنهم الأصلي .

جـــدول رقم (٢ ـــ ب)

سكان اسرائيل اليهود : التكوين المتغير(١٩٤٨ ـ ١٩٦٤)

بالنسب المئويـــــة

السنة	أفريقيا وآسيا	أوروبا وأمريكـــا	مواليد اسرائيـــل	المجموع
١٩٤٨ (أ)	٩ر٨	٥٤ر٨	٣٥ر٤	١٠٠
١٩٤٩	١٨ر٦	٥٣ر٩	٢٧ر٥	١٠٠
١٩٥٠	٢٢ر٤	٥١ر٨	٢٥ر٨	١٠٠
١٩٥١	٢٧ر٦	٤٧ر٢	٢٥ر٢	١٠٠
١٩٥٢	٢٧ر٦	٤٥ر٣	٢٧ر١	١٠٠
١٩٥٣	٢٧ر١	٤٣ر٧	٢٩ر٢	١٠٠
١٩٥٤	٢٧ر١	٤٢ر٠	٣٠ر٩	١٠٠
١٩٥٥	٢٨ر٠	٣٩ر٩	٣٢ر١	١٠٠
١٩٥٦	٢٩ر٤	٣٧ر٧	٣٢ر٩	١٠٠
١٩٥٧	٢٩ر٢	٣٧ر٤	٣٣ر٤	١٠٠
١٩٥٨	٢٨ر٩	٣٦ر٥	٣٤ر٦	١٠٠
١٩٥٩	٢٨ر٤	٣٥ر٧	٣٥ر٩	١٠٠
١٩٦٠	٢٧ر٨	٣٥ر١	٣٧ر١	١٠٠
١٩٦١	٢٧ر١	٣٤ر٨	٣٨ر١	١٠٠
١٩٦٢	٢٨ر٤	٣٣ر٢	٣٨ر٤	١٠٠
١٩٦٣	٢٩ر٠	٣٢ر٢	٣٨ر٨	١٠٠
١٩٦٤	٢٨ر٧	٣١ر٩	٣٩ر٤ (ب)	١٠٠

(أ) أرقام عام ١٩٤٨ هي بالنسبة الى ١٥ مايــو أما جميع الأرقام الاخرى فبالنسبة الى ٣١ ديسمبر .

(ب) أما عن عام ١٩٦٤ فقد كان أطفال الآباء الأفرو ـ آسيويين يمثلون نسبة ٤٣ر٢ % مـن مواليد اسرائيل ، وكان أطفال الآباء الاوروبيين يمثلون ٤١ر٨ % والاطفال المولـود آباؤهم في اسرائيل كانوا يمثلون نسبة ١٥ % وهذه النسب كانت تمثل ١٧ر١ % و ١٦ر٦ % و ٥ر٩ % من مجموع السكان على التوالي .

أما المعلومات المفصلة بالنسبة للأصول العنصرية لليهود من مواليد اسرائيل فلا تتوافر الا بالنسبة لعام ١٩٦١ ، ومع ذلك فيمكن استخلاص بعض الحقائـــق والاستنتاجات المثيرة للاهتمام من جدول (٢ ـ ب) . وبالنسبة لعام ١٩٤٨ ، فان أغلبية الاسرائيليين كانوا من المهاجرين الاوروبيين (أو الامريكيين) وأكثــر من ثلث عدد السكان كانوا من مواليد اسرائيل . وحيث أننا نعرف أن معظــم المهاجرين خلال فترة ماقبل الدولة كانوا من الاوروبيين ، فانه من المعقول أن نفترض أن معظم الذين ولدوا في اسرائيل هم من أصل أوروبي ، ومع ذلك فبحلول عــام ١٩٦٤ قل عدد المهاجرين الاوروبيين من ٥٤٫٨ ٪ من تعداد السكان الـــى ٣١٫٩ ٪ ، وازداد عدد الاسرائيليين المولد بنسبة ضئيلة فقط من ٣٥٫٤ ٪ الى ٣٩٫٤ ٪ ، كما ازداد عدد المهاجرين الشرقيين من ٩٫٨ ٪ خلال عام ١٩٤٨ الى ٢٨٫٧ ٪ . أما مايزيد عن ذلك أهمية فهو مايتضح من أنه بحلول عام ١٩٦٤ قــد ازدادت نسبة مواليد اسرائيل بين السكان من ذوى الأصل الشرقي . وحيــث أن الهجرة قلت كثيرا عن طوفان ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ ، فان مواليد اسرائيل يمثلـــون جزءا أكبر من التعداد عاما بعد عام ، كما يمثل أبناء الشرقيين نسبيا متزايدا في عدد مواليد اسرائيل.(٥)

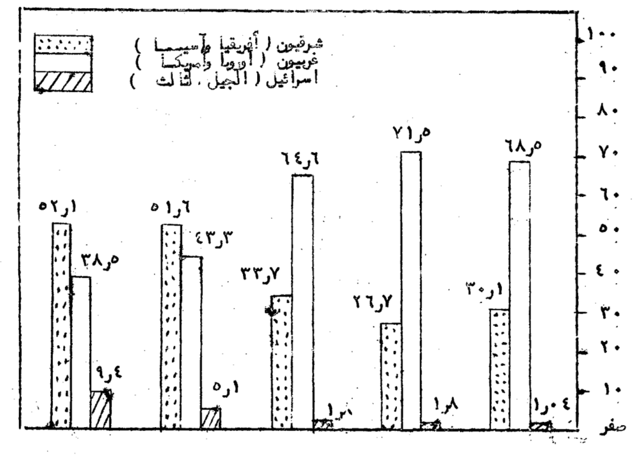
قد م هذه الملاحظة البيانات الخاصة بالأصول العنصرية في مختلف درجـات الأعمار ، وكذلك نسب الانجاب الخاصة بمجموعات الأجناس الرئيسية . وتمثـــل اللوحة رقم ٢ (أ) مثل هذه المعلومات ، وتبين مجموعتى المهاجرين واسرائيلى المولد حسب أعمارهم وأصول أجناسهم (٦) ، وكلما صغر سن المجموعـــة ازدادت نسبة الأصل الشرقي . وبالفعل نجد أن مجموعة السن صفر ـ ٤ التى لم تبينها اللوحة ٢ (أ) تبين أن ٥٩٫٨ ٪ من الشرقيين وأن أقل من ٢٥ ٪ مــن الاوروبيين . وبعبارة أخرى ، فان متوسط عمر الأشخاص الشرقيين أصلا ٢٢ عامـا ومتوسط عمر الاشخاص الاوروبيين والامريكيين أصلا هو ٣٦ عاما . ويعنى ذلـك أن

لوحة رقـــم ٢ (أ)

تعداد اليهود : توزيع الأعمار حسب أصول الاجناس

بالنسب المئوية ١٩٦٢

(يحدد أصل الجنس ومسقط رأس الأب)



الأوروبيين قد تعدوا سن قمة الخصوبة ، أما الشرقيون فلم يصلوا الى هذه السن بعد .

ان الفارق فى تركيب العمر بين المجتمعين ماهو الا سبب واحد فقط للتنبؤ بالزيادة النسبية فى تعداد الشرقيين ، فان الأسر الشرقية تميل الى أن تكون بالاضافة الى ذلك ، أكبر عددا فى العادة .

وهكذا فانه فى عام ١٩٦٣ كان أكثر من نصف الأسر الشرقية مكونا من خمسة أفراد أو أكثر ، وذلك حجم لايصله الا ١٣ ٪ فقط من الاسر الغربية ، وحتى لو فرضنا حقا أن الاختلاف بين أنموذجى النسل سيقل فى الجيل الثانى فلن يتغير الوضع كثيرا فى الوقت الحالى ، اذ أن ثلثى عدد النساء القابلات للانجاب ينتمين الى جيل المهاجرين (٧) .

وحتى الآن لانعرف ، على وجه التأكيد ، مدى دوام الأنماط الثقافية التى تحدد حجم الأسرة ولكن المعلومات بهذا الصدد ، أصبحت متوافرة أخيرا ، وهى تشير الى زيادة حادة وملحوظة فى تنظيم النسل ومنع الحمل بين النساء الشرقيات الحاصلات على قسط من التعليم وخاصة بنات الجيل الثانى (٨) فاذا استمر هذا الاتجاه فمن المحتمل أنه ، الى جانب فرص التعليم المتوافرة فى اسرائيل ، سوف يعمل على تلاشى الفروق فى حجم الاسر بصورة أساسية ، وسوف تكون هذه ظاهرة عظيمة الاهمية لما لحجم الاسرة من تأثير على الأنماط الاقتصادية وقابلية المجتمع للتحرك . ولكن حتى لو استمر ذلك الاتجاه ، فانه — على أحسن الفروض — سوف يؤجل لفترة غير طويلة ، اليوم الذى تصبح فيه غالبية تعداد اسرائيل شرقية الاصل .

ان هذه البيانات الاحصائية لاتكون ذات بال لولا مايرتبط بالاصول الجغرافية من الخصائص الاجتماعية — الثقافية . وان الشىء الهام ليس مجرد مجىء أناس من أماكن مختلفة من العالم ، ولكن مجىء بعضهم من نوع من العالم والبعض الآخر من نوع آخر . فان يهود أفريقيا وآسيا لم ينتقلوا — هكذا ببساطة — من وارسو أو كييف ولم تكن اقامتهم فى بغداد أو تونس مصادفة . هل كانوا بالفعل من بغداد وتونس أو طهران والقاهرة ، أو جبال الأطلس وكردستان ، كما أنهم ينتمون الى هذه الأماكن بالفعل . وكما جلب اليهودى الأوروبى الى فلسطين واسرائيل ثقافة وطنه الاصلى ، ودينا يهوديا متأثرا بهذه الثقافة ، كذلك فعل اليهودى الشرقى ، وكانت ثقافته وشخصيته المرتبطة بتلك الثقافة تختلفان تماما من الجو الاوروبى الذى ساد فى عام ١٩٤٨ .

هناك طرائق عدة لبيان الاختلافات الثقافية بين الاوروبيين والشرقيين ، فقد يشير المرء الى نسب معرفة القراءة والكتابة أو الى نسب التحصيل العلمي ، أو الى الهيكل الوظيفي ، أو حتى الى عادات التغذية . ويقدم الجدول رقم (٢ — ج) بيانات عن مثل هذه المتغيرات كما يوضح الفروق البارزة بين المجموعتين الرئيسيتين (٩) . فالالمام بالقراءة والكتابة (فى أية لغة) بين الذكور من المهاجرين الشرقيين يبلغ ٧ر٨١ % ، أما بين الاناث فهو ٤ر٥٦ % وهو ٣ر٩٨ % بين الذكور من الاوروبيين و ٦ر٩٦ % بين الاناث . أما درجات التحصيل العلمى فهى متشابهة ، ويختلف فيها الشرق عن الغرب فى متوسط عدد سنوات الدراسة بمقدار ٦ر٢ للذكور و ٥ر١ للاناث ، وفى كلتا الحالتين ، بالطبع يتفوق الاوروبيون علميا . وبالمثل ، فمن الاوروبيين أربعة أمثال الشرقيين ممن قاموا بالعمل كعمال فنيين أو مهنيين قبل مجيئهم الى اسرائيل ، ولكن ضعف هؤلاء من الشرقيين التحقوا بالعمل كعمال غير مهرة .

ومن الصعب تفسير مثل هذه البيانات بالرغم من أنها تبين الاختلافات البارزة (١٠) ، فقد تعنى فقط أن فرص العمل المتاحة لليهود فى بلدان الشرق الاوسط محدودة أكثر من تلك المتاحة لهم فى أوروبا ، أو أن المركز الاقتصادى للشرقيين أدنى من مركز الغربيين . وفى الواقع أن كلتا الملاحظتين صحيحتان ، ولكن هذا لايكاد يكفى لايضاح الاختلافات الاساسية بين كلتا المجموعتين . ولاتخضع هذه الاختلافات لقواعد الدراسات الاحصائية العادية ، حيث أن القائم بالاحصاء لايأخذ فى اعتباره عادة أساليب المعيشة أو القيم أو العلاقات الاسرية أو الصفات الشخصية . ومع ذلك فاننا نجد فى هذه المجالات بالذات أكبر الاختلافات التى تميز بين الشرقى والأوروبى . وقد أجريت عدة دراسات فى مثل هذه المجالات المتعلقة بأصول الأجناس — دراسات للسلوك

جدول رقم (٢ ــ جـ)

بالنسب المئوية

محل الميلاد	أفريقيا وآسيا		أوروبا والأمريكتان	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث
الالمام بالقراءة والكتابة (جميع اللغات)	٨١ر٧	٥٦ر٤	٩٨ر٣	٩٦ر١
التعليم (متوسط عدد سنوات الدراسة)	٦ر٩	٣ر٧	٩ر٥	٨ر٨
العمل بالخارج :				
مهنيون وفنيون	٦ر٠			٢٣ر٠
تجار ، وسطاء (وكلاء) ، بائعون	١١ر٠			٤ر٩
عمال غير مهرة	٦ر٠			٣ر٢

الجنسى ، والسلوك السياسى ،والآمال والمخاوف الشخصية ، والعملية التعلمية وغيرها — وكلها تؤدى الى تأييد الحكم بأن جذور الاختلافات بين الأجناس فى اسرائيل تمتد الى أعماق شخصية المجموعات الرئيسية أو تجاربها الخاصة أو كليهما معا .(١١)

وهنا نتحدث بالطبع عن الميول أو الخواص الشكلية أكثر من الصفات العامة . فعندما نقول ان المهاجر الشرقى أقل تقبلا لتغيير بيئته ، وانه يعتمد على الايمان أكثر من زميله الاوروبى فلا يمكننا أن نعنى ، وبالفعل لانعنى ،أن هذا الكلام ينطبق على كل شرقى بمقارنته بكل أوروبى ،ولكنها الحقيقة القاطعة بالنسبة للغالبية ، كما أنها حقيقة أيضا بالنسبة للكثيرين غيرهم. كذلك أيضا تميل الأسرة الشرقية الى سيطرة الأب ،كما يتوسع ويمتد نظام قراباتها ،وقيمها أكثر تقليدية صراحة وضمنا ، كما أن علاقاتها الاجتماعية محددة وشخصية ، ونماذج الاعمال مجزأة ولها طابعها الخاص، كذلك تنظر الى القدر بجدية أكثر من التخطيط وكذلك تمد النظام الثابت القائم مريحا أكثر من فرص الاختيار(١٢).

وقد ادى تجمع كل هذه الاشياء من اختلاف أساليب الحياة ، والتحصيل العلمى ، والمكانة الاقتصادية الى خلق جو من " نحن وهم " حيث ينظر أعضاء كل من المجموعتين الى أنفسهم نظرة " نحن " والى الآخرين نظرة " هم ". وبما أنه من الممكن التعرف على أفراد كل من المجموعتين (فلون البشرة وملامح الوجه تدل على وطن أصحابها الاصلى) فقد زاد ذلك من تأكيد هذه النظرة. وتحليل احصائيات الزواج احدى طرائق الاشارة الى هذه الظاهرة ففى عام ١٩٦٣ كان مايقرب من ٨٥ ٪ من الزيجات فى اسرائيل بين أعضاء من نفس المجموعة المنتمية الى أصل واحد . وبالرغم من حقيقة أن الارقام تشير خلال

العقد الأخير — الى، تناقص الزواج داخل نفس المجموعة تناقصا ظل منتظمـــا من عام الى عام ، الا أن الهبوط كان ضئيلا للغاية . وباختصار ، فان معظـــم الاوروبيين يتزوجون من الاوروبيات ، ومعظم الشرقيين يتزوجون من الشرقيـــات (١٣)
وهكذا يمكننا — على المدى الطويل — أن نقول ان الاتجاه نحو الزواج المختلط (لا على درجته الحالية المنخفضة) له أعظم الاهمية . ومع ذلك فان البيانـات الاحصائية عن الزواج تشير فى الوقت الحالى الى انفصال بين المجموعتين مـــازال واضحا جدا .

د) الفصل الاوروبى : كان تدفق جموع اليهود السمر تجربة مزعجـــة ومقلقة للأوروبى من نواح عدة ، ففى أكثر الأحيان كانت كتب التاريخ اليهودى الأوروبية تشير بصورة عابرة الى المجتمعات اليهودية الكبيرة فى أفريقيا وآسيا ، فهل كـــان هؤلاء المتسولون القادمون من الدار البيضاء ، أو تجار بغداد الجامحون ، أو فلاحو كردستان البدائيون هم أيضا من شعب الله المختار ؟ من المؤكد أن هذه الجموع لم تكن تمثل شعب الخلاص ، ولكنها كانت على الأصح " بابل " جديدة . صحيح أن هؤلاء كانوا يهودا ، الا أن يهوديتهم كانت من نوع مختلف . انهم لايعرفـون شيئا من اللغة اليدية أو الثقافة اليدية ، كما أنهم يعبرون عن معتقداتهـــم الدينية بطريقة مختلفة ، ولم يعرفوا الصهيونية كحركة أبدا ، فلم يعد بوسع الأوروبى سوى أن يفكر فى أنه قد يكون من الافضل له — قبل كل شئ — أن يشارك زميلـه فى المهنة من غير اليهود فى وارسو أو ليننجراد على أن يشارك هذه الجمـــوع الغريبة هذه .

لقد أحس الأوروبى بالذنب بعد أن أحس بكل هذه المشاعر . أليســت اسرائيل — قبل كل شئ — هى الدولة اليهودية ، الموئل ، والملجـــأ

ومكان تحقيق الوعد (أرض الميعاد) ؟ لن يكون فى استطاعة الشريعـة أن تنتشر من صهيون الا اذا عاد شعبها الى أرضه . ولكن يهود لندن ونيويورك لا يأتون ، ويهود موسكو لايستطيعون المجىء ، فهل يصح اذن أن يحتقر أولئك القادمون باختيارهم من شمال افريقيا ومن الشرق الأوسط ؟ وماذا عن قانون الجنسية الذى يعطى الجنسية الاسرائيلية لكل مهاجر وافد؟ انه وقانون العودة مبنيان على فكرة أن انفصال اليهود عن أرض أجدادهم فرض عليهم ، وعلى أن الهجرة الى اسرائيل ، من ثم ، تعنى " العودة " ، وبالتالى يكون الحكم عليها حسب التاريخ والايديولوجية بدلا من المبادئ القانونية التقليدية . وكذلك فان المبدأ الاخلاقى العام كان — بالرغم من كل شىء — واضحا تماما : ان أولى مسئوليات اسرائيل هى " كيبوتز جاليوت " (تجميع المنفيين) ، ومهما بلغت فداحة الثمن الذى يدفع لهذا التجميع — على حساب التجانس الذى عرفه الييشوف فى سنواته الاولى ، أو حتى على حساب الآمال والخطط الخاصة بنوع جديد من المجتمع — فانه سيقل فداحة عن ثمن التنصل من المسئولية (٣٤) وتفضيل مناعة مصطنعة ، فان المستقبل لايمكن بناؤه بنبذ الماضى .

ولقد أزعجت هذه المجموعة من ردود الفعل — الدهشة والارتباك والشعور بالذنب والالتزام — كثيرا من الاوروبيين ، وبالأخص رجال المجتمع اليهودى القدامى (فترة ماقبل ١٩٤٨) . وزاد الأمور تعقيدا ماتطلبه الوافدون الجدد من خدمات صحية واجتماعية وتعليمية ، فان تجميعهم كان أمرا ممكنا ، ولكن استيعابهم كان غير ممكن مالم يختصوا باهتمام خاص . كذلك لايمكن تجاهل أصلهم ، اذ أنه لايفصلهم من ناحية الاسلوب الثقافى الظاهرى فحسب ، بل أيضا من ناحية الصفات التى تؤهلهم للاشتراك فى حياة مجتمع عصرى . لقد كانت المحاولات الدائبة لحل هذه المشكلة واحدة من أكبر الاهتمامات الداخلية فى اسرائيل ،

وسوف نتعرض لها ونقوم بتقييمها فيما بعد . وان التفكير فى ضرورة القيام بمثل هذه المحاولات لهو فى حد ذاته دلالة أخرى على ادراك الاسرائيليين للاختلافات العنصرية القائمة.

(ه) الفصل الشرقى : ولا يقل انزعاج اليهودى الشرقى من اسرائيل التى تواجهه ، بأية حال ، فبالنسبة للكثيرين كان الرابط الدينى الذى وجههم الى اسرائيل أقوى بكثير منه لدى الاوروبيين ، أما الاخرون فقد دفعهم اليها الوصف المبالغ فيه للحياة السعيدة التى تنتظرهم هناك ، ولكن تفسير " الحياة السعيدة " يتنوع ، فالحرية الجديدة المتاحة للشرقيين ليشتركوا فى مجتمع ديموقراطى ، أو ليعيشوا حياة يهودية كاملة ، لم تكن أهم من الثمن النفسى للتطور العصرى ، فقد وفدوا الى دولة جديدة ليجدوا الخلاص — دينيا كان أوشخصيا — ولكنهم وجدوا ، بدلا منه ، مجتمعا غريبا عليهم لايمكنهم فهمه فهما كاملا : مجتمعا يجدون فيه أنفسهم أغرابا الى درجة ما .

لقد كان عدد لابأس به من اليهود الشرقيين يتمتعون بدرجة عالية نسبيا من المكانة الاجتماعية فى البلاد التى قدموا منها ، فقد كانوا كطائفة ، أكثر الماما بالقراءة والكتابة من مواطنيهم الآخرين . أما فى اسرائيل فقد انعكس ذلك الوضع ، ولم يعد هناك مجال للمقارنة بينهم وبين الاوروبيين من ناحية التعليم والمهارات ، فبعد أن توقعوا ارتفاعا مثيرا فى مستوى المعيشة ، وجدوا بدلا من ذلك — مساكن غير ملائمة وأعمالا منخفضة الاجور ، ولقد كانوا مرتبطين بصهيون وليس بالصهيونية ، وكانت الايديولوجية التى تتحدث عن العمل الرائد وعن التضحية بالنفس وعن المساواة بعيدة عن ادراكهم .

ولقد كانت مراكز السلطة والمكانة من حظ الغربيين فى كل مجال تقريبا ،

أما الشرقى فكان حزينا لارتباطه بالمستوى الأدنى والمركز الأقل والدخل الأصغر بسبب تدريبه السابق فى وطنه الاصلى ، وكان يشعر باليأس والقنوط ازاء متطلبات التطور العصرى . وكانت المرارة رد فعل البعض منهم فاتهموا الاغلبية السائدة بالتفرقة العنصرية ، واتجه البعض الآخر الى الاستشراق فأخذوا يقلدون السلوك الغربى مع تجاهلهم للقيم الغربية ، وهناك آخرون يصيبهم الشك أو البلادة وعدم المبالاة ،أما أغلبيتهم فلم يبد منها رد فعل واضح اللهم الا الاحساس بالقلق .

وهناك أمور لاحصر لها تذكر اليهودى الشرقى بضعة مكانته فعمله أقل انتظاما كما أنه يعمل فى مجالات أدنى قيمة فضلا عن أنه أقل دخلا وأحقر مسكنا (١٥) .

ولايمكنه أن يعزى نفسه بأن هذه نتائج حداثته النسبية فى البلاد ، اذ أن البيانات الاحصائية تدل على أن الشرقى ،حتى قبل عام ١٩٤٨ ، كان أقل حظا من الاوروبى أيا كان . وفوق ذلك كله فهو يدرك أن الاهتمام الرسمى " بادماج المهاجرين " فى المجتمع الجديد ماهو الا تعبير مخفف وملطف من الرغبة فى جعل الشرقى غربياً ، فهو المشكلة والتهديد وعنصر الارتباك ، فاذا قرأ الصحف عرف أن جيله هو جيل الصحراء الذى يجب احتماله فى سبيل خلاص أبنائه ، واذا تتبع المناقشات العامة سمع تسميته " باسرائيل الثانية " التى يجب رسم الخطط من أجلها ، والتى يجب أن تتخذ الاجراءات لمصلحتها ، واذا نظر حوله عرف أنه معزول وأن هناك ،فى الواقع ،شطرين كل منهما يسمى اسرائيل . وسواء اسرائيل التى تخصه هى " الاولى " أو " الثانية " فان اسرائيل الاخرى هى التى تدير شئون البلاد ،وهى التى تعيش الحياة السعيدة بالفعل .

الميزان : قد تكون الصورة مبالغا فيها ، فقد تكيفت بعض المجموعات داخل المجتمع الشرقى الأكبر مع البيئة الجديدة ، ومع ذلك فقد نجحت فى الاحتفاظ

بتقاليدها ووجهات نظرها الخاصة ، فالأقرب منهم الى حياة المدن والأكثر عقـــلا وتهذيبا ، مثل المصريين ، قابلتهم عقبات أقل ، أما الأغنى من يهود بغـــداد فقد وطدوا أنفسهم فى المجالات الاقتصادية . وهنا وهناك ، أصبح يوجد بعض القابلية للحركة ، فيتم انتخاب واحد ثم اثنين ثم عديد من الشرقيين أعضاء فـــى البرلمان الاسرائيلى ، كما يصبح يمنى قائدا للطائرات النفاثة ويصبح عراقى وزيرا . كذلك تعطى منح تعليمية أكثر لأطفال الشرقيين ، كما تمد ساعات دراستهـــم لتعويضهم عن عجز بيئتهم ، وقبل أى شىء فهناك الاهتمام بهم ، فالمشكلـــة معترف بوجودها ، وان اختلفت تفسيراتها ، كما أن الحلول يتم اقتراحها ويتـــم تبنيها وتنفيذها وان لم تؤت ثمراتها دائما . ويكون القارىء الامريكى مخطئا ان حاول أن يقيم شبها بين اليهودى الشرقى والزنجى الامريكى ، فليس هناك أى تأييد رسمى ، من أى نوع كان ، للوضع الراهن ، كما أن التعصب ليس شائعا . ان التساؤل عما اذا كان من الممكن ايجاد حل لمشكلات السلالة العنصرية سؤال مفتوح ، وان كان من غير الممكن فلن يكون ذلك بسبب العجز أو الافتقار الى المجهود .

ومن السابق لأوانه أن نتنبأ بالتغييرات المحتملة عندما يحل الأبناء مـــن مواليد اسرائيل محل آبائهم المهاجرين اليها . فالى حد ما فان مكانة اليهـــودى الشرقى المتواضعة تتوالد وتدوم بذاتها ، اذ أن فرص التحاق أبنائه بالتعليـــم العالى وجميع ما يسفر عنه ضئيلة ، ففى السنة الدراسية ١٩٦٣ — ١٩٦٤ كان ٦٣ ٪ من الطلبة الذين يدرسون لنيل الدرجات العليا فى معاهد اسرائيـــل العليا المتعددة من مواليد اسرائيل ، وكان ٢٧ ٪ من مواليد أوروبـــــا و ١٠ ٪ فقط من مواليد آسيا وأفريقيا . ومن بين مواليد اسرائيل كان ٥ ٪ فقط هم أبناء لآباء شرقيين ، ومن بين الطلبة المتفوقين كان ٦ ٪ فقط من أبنـــاء الجيل الأول أو الثانى من الشرقيين ، وهذا بالرغم من أن الشرقيين يشكلـــون

٤٧ % من الطلاب (فى سن التعليم العالى) بينما يشكل الغربيون ١٧ % فقط. وقد ازدادت نسبة الالتحاق بالمدارس الثانوية بين أبناء الشرقيين الى ٥٠ % بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦١ ، ومع ذلك فقد ظلت تلك النسبة أقل من ثلث عدد الطلاب من مواليد اسرائيل (لسوء الحظ لاتتوافر لدينا البيانات عن الأساس العنصرى للمولد اسرائيل بالنسبة لمعظم المتغيرات المتعلقة بذلك ، ولذلك لانستطيع أن نقيم تقييما جيدا الاختلافات بين الجيل الثانى والجيل الاول) وان من الواضح أن هناك تغييرا ، ولا يقل عن ذلك وضوحا أن هذا التغيير يأتى ببطء .

اليهود واليهود الأرثوذكس

ان تميز اسرائيل بتعدد الجنسيات الوافدة اليها يشكل مصدرا للانشقاق فى مجتمعها ، وهذا نوع من الاطارات المستخدمة فى التعرف على الثقافات السياسية الفرعية. أما مصدر الانشقاق الثانى فيتمثل فى التذبذب الايديولوجى . وكما هى حال كل دولة جديدة فاسرائيل تعانى أزمة تتعلق بشخصيتها فى بحثها من معنى القومية ، اذ أن شعبها يسعى لتعريف معنى أن يكون المرء اسرائيليا (١٦) : وليس التعريف هو مايفتقر اليه ذلك البحث ، وانما هو الاجماع فى الرأى ، فهناك اليهود الارثوذكس الذين يعتقدون أن اسرائيل وعد الله وأن التوراة قانونها ، وهناك الصهاينة الرواد الذين يحلمون بقيام نظام جديد ينبثق من رماد الييشوف المحترق ، وهناك دعاة الطبيعية الذين يريدون ترك الدين والايديولوجية جانبا وجعل اسرائيل " دولة مثل كل الدول " ، وهناك الاسرائيليون الخالصون

الذين يعتبرون يهودية اسرائيل أمرا ذا أهمية نسبية فقط ، كما أن هناك اليهود الخالصين الذين لاتزيد نظرتهم الى الدولة عن مجرد كونها وضعا قانونياً لحقيقة شعوبيتهم وهناك الأقلية العربية الكبيرة العدد التى يتراوح شعورها نحو البلاد بين اللامبالاة والعداء ، كما أن هناك تركيبات وتعديلات لهذه المجموعات كلها .

ويتميز اليهودى الأورثوذكس بتأكيد اليهودية كدين ، أما التاريخ الدنيوى وآداب اليهود كشعب فليس لهما سوى أهمية ضئيلة بالنسبة اليه . والأمر على حد قول أحد المراقبين :

" اذا لم تكن اسرائيل عقبة فى سبيل ظهور المسيح فانها وسيلة أرسلتها العناية الالهية ، وطريق يؤدى الى ظهوره . ومن أجل الاسراع بظهوره يجب أن يكون قانون الدولة هو قانون موسى واسرائيل كما أوحى به الرب لأنبيائه وكما يفسره الربانيون ، ويجب أن تكون التوراة عقيدة اسرائيل ، ودينها الكتاب المقدس والتلمود ، وينبغى أن يكون رجالهما من موظفى الحكومة . فاسرائيل يجب أن تكون دولة تحكمها الكنيسة أو كنيسة تحكمها دولة كما يريد الرب ، أو لنقل حكومة دينية ان شئنا ذلك ، ويجب على شعبها كله أن يكون مخلصا للتوراة كما يفسرها رفاتها الارثوذكسيون الرسميون ، أما مخالفو الوصايا العشر — من الأشخاص العموميين بالتأكيد — فينبغى معاقبتهم بما يستحقونه (١٧) .

ومن الصعب أن نعرف على وجه التحديد مبلغ حجم ذلك الجزء من شعب اسرائيل اليهودى الذى يمكن أن نطلق عليه ذلك التعريف : اليهود الارثوذكس (١٨) . فعلى أحد طرفى النقيض نجد الـ " نيتوراى كارتاه " ، وهى جماعة صغيرة وان كانت مسموعة الصوت ، تعتبر وجود دولة اسرائيل نفسه " كفرا " لأن الأيدى الدنيوية التى أقامتها قد اغتصبت بذلك مهمة المسيح ، كما تقلل

القوانيين الدنيوية التى تسنها الدولة من سلطة التوراة . ولذلك فان يوم الاستقلال اسرائيل ، بالنسبة لجماعة النيتوراى كارتاه ، هو يوم صيام وحداد ، فهم يقفون خارج المجتمع باختيارهم ، يتبعون قواعد " الدين القويم " وينتظرون ظهور المسيح .

وعلى الطرف الآخر للطيف الدينى ، نجد اليهودى غير المتدين الذى لايؤمن بالحكومة الدينية ويعتبر الدين مسألة شخصية . وبالرغم من اندماجه فى المجتمع تماما ، الا أنه ليس جزءا من المجتمع الدينى الرسمى ، الذى يعرف بالتصاقه بأحد الأحزاب السياسية الدينية (ذات الاتجاهات الدينية الصريحة) الذى يؤيده حوالى ١٥ % من الأصوات الانتخابية ، الا أنه توجد خلافات خطيرة حتى داخل هذه المجموعة حول فكرة اللاهوت والعقيدة ، فهناك عدد ضخم ممن يتمسكون بشدة " بتقاليد الآباء " ، فلايستمعون الى الاذاعة ولا يذهبون الى السينما (فقد يشاهد المرء امرأة فى ملابس غير محتشمة) ، ويعترضون على السباحة المشتركة ، ويصرون على تنفيذ قواعد الدين وتفسيرها تفسيرا جديا على نطاق واسع ، كما يعيشون عموما فى أحياء تعزل نفسها عن باقى المجتمع ، ولا يسمحون لأنفسهم أو لأطفالهم الا بالقدر الضرورى جدا من الاتصال بالعالم الخارجى . وقد نبذوا الصهيونية من زمن طويل بسبب دنيويتها ، ومنذ أن عاصروها ظلوا على اعتقادهم بأن اسرائيل لايمكن أن تكون دولة يهودية بنفس الطريقة التى تعتبر بها أمريكا مثلا ، دولة مسيحية ، فعليها أن تكون يهودية خالصة أرثوذكسية ، تضم الشريعة الدينية داخل جهاز الدولة نفسه ، ويسمح فيها بالحرية الدينية لغير اليهود ولكن اليهودى يجب أن يحكم حسب قانونه هو ، وهو قانون الله .

ويعتبر هؤلاء اليهود المتطرفو الأرثوذكسية ، من ناحية ملبسهم ، ولاهوتهم وقيمهم ، وأساليبهم ، وسلوكهم ، نماذج تقليدية (١٩) . ولكن يتحتم علينا

هنا ، أن نفرق بين نوعين مختلفين تماما من التقليدية : فالنوع الأول هو اتباع العادات القديمة التقليدى لعصر الحضارات والثقافات الجاهلية للمجتمع الشعبى (٢٠) .
أما النوع الآخر فهو تقليدية ارشادية حيث تقوم مجموعة من المبادئ والتعاليم بالدعوة لقيام نوع من البناء الاجتماعى الدكتاتورى (Totalitarian) (٢١) أو بانشائه أو صيانته وتدعيمه ، وهنا قد نجد درجات عالية من التحضر والمعرفة بالقراءة والكتابة مما يميز المجتمعات المصرية عادة . ونجد أنجح نوع من التقليدية القديمة حيث توضع العقائد والمفاهيم المعروفة باعتبارها أساليب للحياة ينبثق عنها مايمكن تسميته مجتمعا " يحدده الشعب " Folk Prescribed ،
وفى مثل هذا المجتمع لاترتكز مقاومة التغيير على مجرد الخوف العام من كل جديد ولكن على ايديولوجية محددة واضحة ، فيحارب الفرد الطرائق الحديثة لأنها غريبة عنه ولأنها تنتهك " الحقيقة المقدسة " ، وذلك هو نوع التقليدية المنتشر بين الأرثوذكس المتطرفين فى اسرائيل .

وبالرغم من ذلك ، فمعظم يهود اسرائيل المتعصبين ليسوا من الأرثوذكس المتطرفين نظرا لاعتدالهم النسبى فى معتقداتهم الدينيه نجدهم يتسامحون مع انحرافات غيرهم عن هذه المعتقدات . ومع ذلك ، فاهم يفضلون وينادون بشدة بادخال التعاليم الدينية فى القوانين العامة .

ان الاعتراض على موقف اليهود المتعصبين من المناداة بحكومة دينية واسع النطاق ، ولكنه يختلف فى حدته وشموله ، فبينما يعترض الكثيرون من الاسرائيليين على الموافقة التامة أو التسليم للأحزاب الأرثوذكسية ، فانهم يؤيدون فكرة مسئولية اسرائيل الخاصة فى الاحتفاظ بتقاليد الدين اليهودى بوصفها دولة يهودية . وقد يعنى هذا منع بيع اللحوم التى لم يتم ذبحها حسب المراسيم التقليدية ، أو أى من الأطعمة المحرمة الأخرى ، وقد يعنى تحول القوانين التى تحد من مزاولة

الأعمال الرسمية أيام السبت . وبالرغم من أن مثل هذا الموقف غالبا مايعكس الاعتقادات الدينية الخاصة ، الا أنه ليس من الغريب أن نجده محل موافقة أساسية من أكثر الأفراد دنيوية ، وذلك على أساس أن بعض الشعائر المتبعة للدين اليهودى قد أصبحت جزءا لايتجزأ من شعوبية اليهود . لهذلك فمن الممكن أن تجد ملحدا منكرا لوجود الله يعارض تأييد الحكومة أو حتى مجرد سماحها بتربية الخنازير .

ومع ذلك ، فهناك ضيق ظاهر بالأرثوذكس المتطرفين ، اذ نظرا لما لهم من قوة سياسية مازال علينا أن نناقشها فقد تمكنوا من احراز نجاح ملحوظ فى محاولاتهم لفرض القوانين الدينية ، وكثيرا مايسببون الحرج لدولة تفضل ، على وجه العموم أن تعتبر نفسها عصرية وديموقراطية وعقلانية . ومهما بلغ ميل أغلب الاسرائيليين لقبول بعض أفكار أولئك الأرثوذكس المتطرفين المحددة ، الا أنهم ليسوا على استعداد بالمرة لقبول فكرة الحكومة الدينية الأساسية .

أما الدنيويون وهم منقسمون على أنفسهم أيضا — فلا يعرفون بالتأكيد لمن سيكون مستقبل اسرائيل ، ولكنهم يؤمنون بأنه لن يكون لليهود المتعصبين (٢٢)، ولذلك لايجدون ضرورة لقيام مواجهة مباشرة مع دعاة الحكومة الدينية . وعلاوة على ذلك ، فان أية مواجهة من هذا القبيل سوف تعتبر ، من وجهة نظر دعاة الحكم الدينى ، نداء للقتال أو للحرب المقدسة فعلا ، وليس فى امكان الدولة التصدى للفوضى الداخلية التى ستنشأ عن ذلك مع ماتواجهه من مشاكل خارجية . ومن مثل ذلك أن المتطلبات السياسية لنظام الحكومة الائتلافية فى اسرائيل مازالت تحتم اشتراك حزب أو أكثر من الأحزاب الدينية فى الحكومة ، وليس هناك احتمال مباشر لتغيير هذا الوضع . وأخيرا ، فبالرغم من حيرة الكثيرين

من الدنيويين بالنسبة لفكرة الحكم الديني ، الا انهم يجدون أنفسهم في حيرة أشد ازاء فكرة رفضهم واحدة مهما كان تفسير ذلك الرفض دقيقا — لمذهب ديني يعتبر واحدا من " أسباب وجود " دولة اسرائيل ، وتجدهم — بدلا من ذلك يأملون في أن تصبح العناصر الاكثر اعتدالا من بين الأرثوذكس المتطرفين قريبة الشبه تدريجا من أحزاب المسيحيين الديموقراطية في غرب أوروبا . والواقع أن ثمة مايدل على ذلك ، وأن يصير الأكثر تطرفا — بمرور الوقت — مثل " الأميش " (Amish)(*) : ثقافة فرعية دخيلة ولكنها عاجزة غير فعالة .

وليست هذه النغمة الهادئة بالخاتمة الدقيقة تماما لوصف الثقافات الدينية الفرعية لاسرائيل وعلاقاتها بأعداء فكرة الحكم الديني ، فبين الحين والحين يهدد بعض الحوادث طريقة الحياة ، غير المستتبة تماما ، بين المجموعتين . ومن ذلك أنه في عام ١٩٦٣ ، ولمدة عدة شهور ، كانت السيارات التي تحاول المرور بحي " ميه شيماريم " ، مركز الارثوذكسية في مدينة القدس ، ترمى بالحجارة ويهاجم سائقوها . وقد زاد من تفاقم المشكلة أن سيارات السياحة وعربات الأمم المتحدة القادمة الى اسرائيل من الأردن ، كان عليها أن تمر خلال بوابة ماندلبوم ، مما يجعلها داخل حي ميه شيماريم مباشرة . ومن ذلك أيضا ماوقع من ثورات عنيفة بعض الشيء حول مدارس الارساليات المسيحية في القدس وحول رعاية البلدية لحمام سباحة عام ومختلط وغيرها من مثل هذه الأشياء . وعندما أنزلت اسرائيل سفينة ركاب جديدة ضمن اسطول سفن الركاب ثم ذلك وسط معركة حامية حول ما اذا كان من الواجب أن يكون بالسفينة مطبخان ، أحدهما يقوم بتقديم الاطعمة المحللة دينيا والآخر للمحرمة ، أو أن يكون بها مطبخ واحد يقدم الطعام المباح فقط . ومن المعتاد أن تثور مثل هذه المسائل التي تتراوح بين الخدمة العسكرية للأرثوذكس

---

* فرقة مسيحية من أتباع جاكوب عمان " "Jakob Ammann وهو مسيحي سويسري في القرن السابع عشر كان لايؤمن بتعميد الأطفال وبعض الشعائر المسيحية الأخرى . (المراجع)

المتطرفين وترخيص الحاخامية بفتح مجزر جديد لايقع تحت رعايتها • وليست المسافة بين المضايقات العارضة والضيق المستمر ، وبين الضيق المستمر والخطر الواضح بكبيرة جدا • وهناك بعض الأدلة على تزايد الميل الى مقاومة الأرثوذكس المتطرفين وذلك — على الأقل — بين بعض قطاعات المجتمع الدنيوى (٢٣)

الشيوخ والشباب

ان مسألة الحكومة الدينية كلها — كما رأينا — ليست سوى أحد وجوه مشكلة البحث عن الذات القومية والشخصية • وبالرغم من أنها أكثر المشاكل وضوحا داخل المجتمع اليهودى على الأقل ، الا أنها — فى نفس الوقت ، وربما لنفس ذلك السبب — أكثرها حصرا وتحديدا ، فمشكلة التوتر بين الأجيال المختلفة أكثر انتشارا واتساعا ، ولكنها أكثر عمومية أيضا ، فهى تؤثر على قطاع أكبر من السكان • ويمكن بحث هذه المشكلة من خلال علاقتها بمكانة الايديولوجية الصهيونية •

وتجرى مناقشة المعنى المعاصر للصهيونية على مستويين اثنين ، وهى فى الظاهر ، مجادلة ايديولوجية تتم مناقشتها فى الندوات والمؤتمرات والمقالات وافتتاحيات الصحف العديدة ، ويلازم تلك المجادلة ويلاصقها تماما ذلك التوتر الكامن بين الأجيال المختلفة ، أو — على وجه الدقة — بين قدامى رجال مجتمع الييشوف فى الغالب وبين أبنائهم الاسرائيليين الوطنيين من الجيل الحديث•

وتجرى المناقشات حول عدة نقاط تتركز أساسا حول دور الصهيونية بعد تحقيق السيادة القومية ، وحول علاقة دولة اسرائيل بالشعب اليهودى • ولأسباب واضحة ، اعتقد الكثيرون ، ومن بينهم بعض زعماء الصهيونية ، أن وجود الحركة

الصهيونية ينتهى بتحقيق هدفها بقيام دولة اسرائيل . فعلى خلاف غيرهـــا من الحركات القوميه ، لم ينظر الى المنظمة الصهيونية أبدا على أنها الهيئـــة السياسية المناسبة لحكم الدولة ، فقد كانت دائما منظمة ائتلافية تضم عــــدة أحزاب سياسية ، ولم يكن من المحتمل أن تستمر تلك الأحزاب فى بذل مجهوداتهـا من أجل المنظمة بعد انتقال السلطة والخطة السياسية الى يد حكومة وطنية . وقـد كان ذلك أكثر من مجرد تكهن بسيط — انه تقرير أغلبية كان أقوى صيغه بطبيعـــة الحال بين أولئك الذين أكدوا أهداف الصهيونية السياسية أكثر من أهدافهـــا الاجتماعية أثناء عهد اليبشوف .

وعلى أية حال ، فالواقع أن الصهيونية ظلت على قيد الحياة على الرغـــم مما يصيبها من اضطراب وبلبلة حول المهام السلمية التى ينبغى أن تقوم بها . ولقـد كانت هذه المهام واضحة تماما فى الايام الاولى للاستقلال ، وهى العمل علـــى استمرار الدعم السياسى والاقتصادى الذى لايمكن للدولة أن تحيى بدونه ولكنهـا كانت عاجزة حتى ذلك الوقت عن تحمل مسئوليته وحدها ، والمضى فى نشاطهـــا لصالح الهجرة الى اسرائيل من الدول الأكثر تقدما بصورة خاصة . ولقـــد انتقلت أولى هذه المهام فى معظمها الى الدولة ، أما بالنسبة للمهمة الثانيـــة فان النجاح المحدود الذى أحرزته هذه المنظمة فى هذا السبيل يكفى بالكـاد ، لتبرير استمرار وجودها .

ومع ذلك ، فقد ظلت الصهيونية والمنظمة الصهيونية موضع تقدير وتدعيـــم أغلبية أولئك الذين كانوا من أكبر مؤيديهما قبل أزمة المضى . ويدين ذلك الاخلاص الذى كان له الفضل فى بقاء المنظمة على قيد الحياة ، بالكثير الى قوة الدفـــع

التنظيمية والشخصية ، والى ذكريات الأمجاد الماضية والارتباطات الشديدة التى غيرت من الأشخاص والاماكن ، والى ذكريات أزمات وانتصارات الأعوام الماضية التى تحول العقل والخيال من حاضر مجيد الى ذكريات " الأيام الجميلة الماضية " .
ومع ذلك فلو كانت الذكريات هى الأساس الوحيد لبقاء المنظمة لكانت قد صارت منذ زمن بعيد ، مجرد جماعة أخوية تتكون من أناس غير متصلين ببعضهم البعض وتضمهم روابط غير متصلة أيضا — وحتى الآن أمكن تلافى ذلك المصير ، وبدلا من ذلك اشتركت المنظمة فى عدة نشاطات جديدة ، من أهمها ترويج الثقافة اليهودية خارج اسرائيل . وينبع ذلك النشاط من الايمان بأن البقاء اليهودى كان هدف الصهيونية دائما ، وأن اسرائيل لم تكن سوى أبرز تحقيق لذلك الهدف . واذا لم يتقبل يهود الغرب ذلك الحل عن طريق الهجرة فيجب البحث عن غيره ليكون أكثر تناسبا مع وضعهم .

وقد يتقبل رجل اليشوف القديم هذه الاستراتيجية ، ولكنها تميل الى تركه فى الظلال ، ولا تغرى فى اهتماماته المباشرة أو تأسر خياله ، فالمشكلة بالنسبة اليه ليست بقاء المنظمة الصهيونية بقدر ماهى بقاء العقيدة الصهيونية . فكيف يمكن الاحتفاظ بأخلاقيات العمل الرائد فى دولة حديثة يتزايد ارتكازها على القيم الذرائعية والسياسة الواقعية العملية (البرجماتية) ؟ وكيف يمكن الحفاظ على الروح التطوعية وسط هذه النشاطات الحكومية ؟ وكيف يمكن استمرار قيم مجتمع اليشوف أمام هجرة ما بعد الاستقلال المتدفقة من الشرق ومن الغرب ؟ وباختصار ، كيف يمكن تطبيق تأكيد الصهيونية الأول للمجتمع الفاضل مع البيئة الجديدة وقد تغيرت كثيرا ؟ (٢٤)

توجد جذور مثل هذه التساؤلات فى ايديولوجية موجة الهجرة الثانية ،

ولكن جيل اسرائيل الحديث لايستجيب عموما لنداء الايديولوجية ، وخصوصا للايديولوجية الصهيونية ، فمن رأيه أن قوات اسرائيل الدفاعية تستحق نفس القدر من التقدير ، لتأسيس وحماية الاستقلال ، الذى تستحقه الحركة الصهيونية لدورها فى حرب الاستقلال وحملة سيناء . وعلاوة على ذلك ، فان الصهيونية ترتبط فى الأذهان بيهود أوروبا الشرقية ممن لايشعر جيل الصابرا (٢٥) (اليهود الذين ولدوا فى فلسطين) بالكثير من التعاطف مع تقاليدهم وقيمهم ، فان الأدب اليدى (اليهودى القديم) ، والعقيدة الايديولوجية ، والارتباط القوى مع اليهود فى كل مكان وميول الجيتو (حتى اليهود فى المنفى) العقلية والحساسية ازاء الاضطهاد — وكلها جزء من التقليد الاوروبى الشرقى — تعتبر بالنسبة للصابرا بقايا ماض مخجل يزعزع الثقة ولا يليق بالصورة الشابة المعتدة بذاتها التى حققها الاستقلال . وهنا تتجلى سخرية الاقدار ، فان قدامى اليهود من موجتى الهجرة الثانية والثالثة — وقد كانوا هم أنفسهم متمردين على تقاليد آبائهم وثقافة آبائهم — يجدون الآن أن الآية قد انقلبت عليهم ، فقد أصبحوا ، بالنسبة لأبنائهم ، رمز ثقافة نبذوها هم أنفسهم ويجدها أبناؤهم سقيمة وقاصرة . (٢٦)

وليس على الصابرا ، بالضرورة ، أن يتجنبوا أساليب السلوك التى كانت محل تقدير الييشوف وان كان الكثيرون قد يفعلون ذلك . ان مايرفضونه هو الاستمرار التاريخى نفسه والارتباط بماضى آبائهم وأجدادهم فهم لايتكلمون اللغة اليدية ، ولا يفضلون قراءة الأدب اليدى مترجما ، أو يحبون الدين اليهودى كما يعبر عنه سلوك الأرثوذكس المتطرفين ، باعتباره دينا غريبا عنهم ، كما أنهم يفتقرون الى المشاركة الوجدانية مع رد فعل يهود أوروبا ازاء قرون من الاضطهاد ، فهم اسرائيليون واسرائيليتهم تشمل اليهودية ، وليس لهم " مشكلة يهودية "

فاسرائيل هي ايديولوجيتهم ، وفيما عداها فلاحاجة بهم لشيء ، ولا صبر لهــــم على أي شيء آخر .

واليهودي من الجيل القديم غير واثق من الاستجابة اليه ، فمن ناحيتــــه ، يثير أبناؤه دواعي فخره ، فهم متحررون من مؤثرات الاضطهاد الموهنة ، وهم أصح من آبائهم من عدة نواح ، فمجرد شعورهم بالأمان واخلاصهم لاسرائيل همــــا وحدهما مبرر كاف لمجهودات آبائهم ، فقد شيد اليهودي القديم الوطن اليهودي ، ويقوم أبناؤه بالمحافظة عليه بالرغم من أنهم أصبحوا يطلقون عليه اسم " دولة اسرائيل ". ولكن الهدف أصبح ضيقا ، والرؤية محدودة ، والنغمة خافتة . هذا جيل أتــــى بعد جيل الثوريين ، ولا تمثل الاحداث الخطيرة في حياة آبائه ذكرياته الحيـــــة أو مصدر وحيه . وعندما يرى ذلك يهودي من الجيل القديم ، مثل شخصية " روبــــا شوف " التي ابتدعها المؤلف " كويستلر "(٢٧) ، تنتابه مشاعر مختلطـــــة يصورها بقوله :

" انه .. الجيل الذي بدأ في التفكير بعد الفيضان . لم تكن لــــه تقاليد ولا ذكريات تربطه بالعالم القديم الذي اندثر .. انه جيل ولد بغير حبــــل سري .. ومع ذلك فقد كان الحق في جانبه " . وأخيرا ، فان جيل الصابــــرا لم يستبدل بنظرة آبائه ايديولوجية شخصية أحدث منها ، فالجيل القديم قلق بسبب عدم ظهور عقيدة جديدة تشغل الفراغ الذي أحدثه هجر المعتقدات القديمة ، فمن أكثر النعوت مسبة في قاموس اسرائيل الايديولوجي كلمة " بتزويست " Bitzuist ومعناها الحرفي : ذلك الذي ينجز الأعمال . ومع ذلك "فالبتزويه " ليست صفـــة تستحق الاحترام لأنها تدل على الشخص الذي يقوم بانجاز الأعمال بدون الرجوع الى اطار تخطيطي ايديولوجي ، وذلك بالنسبة لليهودي القديم لايسفر عن سلوك فعــــال بقدر مايسفر عن انتهازية قبيحة ، فالبتزويه — حسب وجهة نظره — هي عقيدة الصابرا .

وقد يبدو أن هذا الصراع الدائر بين الجيلين من شأنه أن يخفف من الصراع العنصري بين العناصر المختلفة بالتقريب بين أفراد الجيل الثاني من أبناء الشرقيين والغربيين . وبالرغم من تركيزنا في الفقرات السابقة على الشباب الغربي ، الا أن أبناء الشرقيين ليسوا أقرب الى آبائهم ، ولا هم أقرب الى الييشوف وايديولوجيته أيضا (٢٨) . ولكن ذلك الذي يمكن للرفض المشترك للماضي أن يساعد على توحيده ، تعمل الفوارق الاجتماعية والنفسية على تمزيقه ، فهنا نجد أن كلا من الجيلين مازال ابنا لأبيه ، وليست فوارق التعليم والطموح وحدها هي الموروثة جزئيا ، ولكن الشباب مهما ثار وتمرد فان شعاراته وأسلوبه ، بل وعادة تمرده نفسها ، لايمكن أن تكون ملكا خالصا له ، فان الشعار الذي يقول : " لايمكنك الرجوع الى البيت ثانية " يلازمه القول : " لايمكنك أبدا ترك المنزل كلية " . وفي النهاية ، فان تلمس الشرق والغرب في اسرائيل لايجاد طرق جديدة قد يخفف من التوتر العنصري ، فلو أصر واحد منهما على الحفاظ على القديم لما وجد مثل ذلك الاحتمال أما في الوقت الحاضر فلا يوجد سوى الأمل وليس الانجاز والتحقيق ، فكل واحد منهما مازال شديد الارتباط بجذوره ، وبالتالي بمستقبله الخاص ، سواء كان ذلك طوعا أو كرها ، اراديا أو لاارادیا (٢٩) .

ان التوترات العنصريه والدينية والايديولوجية جميعها جزء من المشكلة الكبرى : التماس اسرائيل لهوية . ومازالت هناك بالطبع مصادر أخرى للانشقاق داخل المجتمع ، فقد ازدادت الفوارق الطبقية بشكل ملحوظ ، مع أن فوارق الدخل لاتزال أقل منها في أي مجتمع آخر غني نسبيا (٣٠) . كذلك اختلف الانفصال الثقافي بين المدينة والقرية كثيرا عن عهد الييشوف ، فداخل القطاع الزراعي نفسه تظهر فوارق أكثربين المستوطنات الجماعية والمشروعات الخاصة والتعاونية ، وتنقسم هي الأخرى فيما بينها بين القديم والحديث ، ولا تزال غير مستقرة . وتتشابك

هذه الاختلافات وغيرها مع العنصرية والفيتيك أو طول مدة البقاء فى البلاد مما يقوى الحدود بين مجموعات الثقافات الفرعية.

ومع ذلك فمن المبالغة أن نقول ان اسرائيل مجتمع مجزأ ، أو انه لاتوجد بها ثقافة سياسية موحدة ، فقد قدم الخطر المحدق بها من الخارج مصدرا مهما للوحدة الداخلية ، كما قدمت عوامل الاشتراكية ووسائل المواصلات التثير فى ذلك الصدد ، وكذلك فعل نفس الشئ ظهور تاريخ اسرائيلى ، ونمو وتراكم التجارب القومية التاريخية. وثمانية عشر عاما ليست بالفترة الطويلة حسب القواعد التقليدية ، ولكن بمرور كل عام يزداد عدد الاسرائيليين ممن تبدأ ذكرياتهم بعد عام ١٩٤٨ ، والزمن نفسه لايقلل من الفوارق والانشقاقات ، ولكنه يخففها بتوفير صلات مشتركة.

وأخيرا ، فمهما اختلف المعنى المسبغ على مفهوم كلمة " اليهودى " فانه يثير شعورا بالقرابة المشتركة لايمكن التقليل منه ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ينبذون الماضى أو لايهتمون به فهناك ادراك بأن هذا الشعب يختلف عن غيره بطريقة ما . فالتوراة كتابه المشترك ، سواء بوصفه تاريخا دنيويا أو أساطير شعبية أو قاعدة دينية ، والمنفى والتيه ومعاداة اليهود كلها ذكرياته المشتركة ، وأما " هرتزل " و " وايزمان " فضلا عن " موسى " و " سليمان " و " داوود " فهم أبطاله المشتركون ، كما أن " تيتوس " و " أنتيوكوس " و " توركمادا " و " هتلر " هم أعداؤه المشتركون ، فالعدد ستة ملايين مرسوم بالوشم على قلبه ، ويوم الرابع عشر من مايو عام ١٩٤٨ مدون فى كتاب حياته المشترك. ان هذه الأجزاء والقطع من الماضى — بعضها روحانى وبعضها الآخر قريب ملموس — تدعم الحاضر ، وان الانشقاقات تبقى ولكن تحتها جميعا يوجد هذا الشعار : " أن تكون يهوديا فى الدولة اليهودية هو أن تكون جزءا من التاريخ وشريكا مع الآخرين ".

اليهــود والآخــرون

ماذا عن عرب اسرائيل اذن ؟ ان عددهم يقارب الثلاثمائة ألف ، فما هــى المشاعر التى يحتمل أن يحسوا بها تجاه دولة يهودية ؟ ان الحكومة تفاخــــر بأن عرب اسرائيل يتمتعون بمستوى أعلى للمعيشة وحرية أكثر فى التعبير السياسى ، ومستوى أعلى من التعليم ، ورعاية طبية أفضل من تلك التى تتوافر فى أى مــن الدول المجاورة لاسرائيل ، وان هذا التفاخر لصحيح تماما . وعلاوة على ذلـــك فان ماتصرفه الدولة على كل فرد يزيد بين السكان العرب عنه بين الأغلبيـــــة اليهوديـــة. (٣١)

وهناك أعضاء فى البرلمان من العرب ، يمثل بعضهم أحزاب الأقليـــــة التى تتبع حزب الماباى ، أكبر أحزاب اسرائيل السياسية ، وبعضهم أعضاء يمثلـــون أحزابا أغلبها يهودى . وحرية الدين مكفولة وتشمل تأييد المحاكم الشرعيـــــة الاسلامية فى التشريع المتعلق بأمور الدين والأحوال الشخصية.

وفى نفس الوقت ، تقع المناطق التى يزداد فيها تركيز السكان العــــرب تحت الحكم العسكرى ، وقد كان على سكان تلك المناطق حتى شهر اكتوبر مــــن عام ١٩٦٣ أن يستخرجوا تصريحات مرور لكى يتمكنوا من الخروج ثم العودة الــــى مناطقهم. (٣٢)

ان ٧٥ ٪ من عرب اسرائيل مسلمون ، ويعيش معظم هؤلاء فى تلك الأجــزاء من البلاد التى كان قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة قد حددها لاقامـــة

دولة فلسطين العربية ، وعندما زادت اسرائيل من رقعة الأراضى المخصصة لهـا حسب مشروع التقسيم بحوالى الثلث بعد فوزها فى حرب الاستقلال كانت تلـك المناطق (المثلث الصغير والجليل الأوسط) هى التى صارت هذه الزيـادة ، وبالطبع لم يكن العرب المقيمون فى تلك المناطق بأكثر حماسا للحياة فى دولة يهودية من الأغلبية التى فرت الى مصر أو الأردن أو الى سوريا أو لبنان . لقد بقوا اما لأنهم لم يتوقعوا انتصار اسرائيل ، أو لارتباطهم بأرضهم ، أو لأن الحرب حاصرتهـم وحالت دون فرارهم (كان أغلب العرب المسلمين من المزارعين القرويين ، يحكمهـم نظام عشائرى) . وقد فسرت اسرائيل ارتباطاتهم الأسرية والدينية والثقافية عـبر حدودها المعادية ، بالاضافة الى قربهم من تلك الحدود ، على أنها تهديد لأمنها . وقد زاد من قلق الحكومة أنه قد حدث فى عدة حالات أن استخدم المتسللون من سوريا والبلاد العربية الأخرى قرى عربية داخل اسرائيل كمسرح لعمليات التخريـب والتجسس ، ونتيجة لذلك اتخذت اجراءات أمن خاصة تفاقت بين الحين والحـين الى الاحتياطات العادية ، كما ظل الحكم العسكرى قائما .

وبالرغم من ذلك فان مشكلة الأقلية العربية لاترتكز أساسا على مسألـة اجراءات الأمن العسكرية . وفى الواقع فان لحجة اسرائيل فى القول بأن العـرب ذوى الميول التقليدية يفضلون وضوح الحكم العسكرى على التباسات وغموض السياسة الديموقراطية نصيبا من الصحة بالرغم مما يبدو من محاولتها الواضحة لتبرير الذات ، كما أنه ليس لها علاقة أساسية بحقيقة أن الكثيرين من عرب اسرائيل يرحبون بغـزو عربى لاسرائيل ، وأن بعضهم يؤمن بأن ذلك سيحدث فعلا . ومن الواضح أن مثـل هذه المشاعر لاتساعد على حل مشكلة احساس العرب بالغربة ولكنها كذلك لم تسبب المشكلة ، بل هى — على الأحرى — مظهر متوقع للتوتر الناتج من كون المـرء

عربيا فى دولة يهودية ، مما يجعل من الصعب تصور وجود أى شعور من جهة السكان العرب سوى عدم المبالاة تجاه اسرائيل . ويزيد من حدة ذلك التوتر انتشار الشعور بين العرب بأنهم ضحايا ظلم تاريخى واغتصاب فاحش . كذلك يزيد منه ذلك التدعيم المستمر لآمال العرب فى مستقبل " متحرر " تبثه القاهرة ودمشق ، وعمان أيضا وان يكن بدرجة أقل ، ولكن التوتر كان سيستمر حتى بدون وجود مظالم خاصة أو تشجيع خارجى .

ان جميع الرموز التى توحد بين يهود اسرائيل لاتعنى شيئا بالمرة بالنسبة لعربها ؟ فجمع شمل المنفيين فى فلسطين ، واحياء اللغة العبرية ، وكون التوراة مركزا للحياة ، والجيش ، ويوم استقلال اسرائيل — كل ذلك اما أن يثير روح العداء لدى العرب أو لايثير استجابة لديهم بالمرة . ان سعى الحكومة — لأسباب مختلفة — الى تشجيع المسئولية المحلية ودعم التنمية الاقتصادية ليس الا تعويضا ضئيلا لشعور العربى الأكيد بأنه أجنبى . وعلاوة على ذلك فان التنمية الاقتصادية نعمة ذات حدين ، ففوائدها الظاهرة يحد منها الخطر الذى تشكله بالنسبة للنظام التقليدى ، وكذلك الحال مع المسئولية المحلية حيث تعنى الانحراف عن سياسة العشيرة وتعتبر تجديدا مزعجا .

والمشكلة ليست فى أن اسرائيل لم تحس باحتياجات الأقلية العربية : فاللغة العربية مازالت احدى اللغات الرسمية فى البلاد ، وهى مقبولة تماما فى المحاكم وفى المناقشات البرلمانية ، وكذلك تعد مناهج الدراسة فى المدارس العربية بحيث تناسب احتياجات العرب الثقافية ، كما أن بجميع مصالح الحكومة أقساما خاصة للتعامل مع السكان العرب . كذلك فبسبب المبدأ ، بالاضافة الى

السياسة ، تحت عدة أحزاب سياسية من سعيها لكسب تأييد العرب ، وتقدم فــى العادة فوائد ملموسة أو نظاما ايجابيا لخططها السياسية لكسب مثل ذلك التأييد ، فلم يحدث أبدا أن اقترح أى زعيم سياسى — حتى من أشد الأحزاب عداء للــدول العربية المحيطة — أن يحد من الحقوق المدنية الأساسية للعرب (٣٣) (وهذا اجراء كثيرا ماتخذ فى حالات مماثلة فى مناطق متعددة من العالم) ، بل علــى العكس فقد ربط بعض السياسيين أنفسهم بشدة بمصير العرب ساعين الى ايجاد وسيلة للتصالح بين المجتمعين . وقد أمكن اقامة علاقات ايجابية فى بعض الحالات ، من أبرزها العلاقات مع الأقلية من الدروز غير المسلمين ، كما أن عدد الطلبــة العرب الذين يلتحقون بالجامعة العبرية يتزايد كل عام ، بالاضافة الى زيــادة حجم المنح المخصصة لهم . وباختصار ، فليس هناك ميل " لالغاء " الأقليــة العربية ، وذلك يرجع الى اهتمام اسرائيل بالرأى العام العالمى ، والى ماهنــاك من أهمية سياسية داخلية لمجموعة تملك ٨ ٪ أو ٩ ٪ من الأصوات الانتخابيــة للبرلمان ، وعلى أمل أن تكون معاملة اسرائيل للعرب دعاية حسنة بين العــرب خارج اسرائيل ، كما يرجع الى حساسية اليهود تجاه مشاكل وضع الأقليات . وليس هذا السبب الأخير بأقل الأسباب أهمية بأى حال من الأحوال ، ففى دولة يكثـــر فيها ذوو الميول الايديولوجية تكون مثل هذه المشاعر أهمية سياسية كبرى .

ومع ذلك فكل هذا غير كاف ، اذ أن التحليل الأخير يظهر أن كلا مــن اليهودى والعربى يدرك أن العرب غير مرغوب فى وجودهم فى الواقع ولن يحــزن اليهود كثيرا اذا قدر لجميع عرب اسرائيل أن يرحلوا عن البلاد باختيارهم . ومهما أصبحت ايديولوجية اسرائيل وطنية الا أنها لاتزال ايديولوجية يهودية ليـــس

للعرب فيها أى دور يلعبونه ، أما المجهودات التى بذلت قبل اقامة الدولة بهدف الوصول الى مجتمع ثنائى القومية يقوم على أساس حكم ذاتى كميونى فقد أصبحت غير ذات جدوى منذ أمد بعيد . ومع الواضح جدا أنه مهما حاولنا النظر فى أبعاد المستقبل فلن يمكن لأى عربى أن يحتل مركزا رئيسيا فى الوزارة الاسرائيلية ، ولكن الأمر الذى لايتضح أبدا فى صميم الموضوع هو أن العربى يجب — حسب أخلاقيات اسرائيل العامة — أن يتمكن من تبوء مثل هذا المركز . وفى الولايات المتحدة حيث لم يكن من الممكن حتى وقت قريب ، أن يعين أى زنجى وزيرا ، لم تعان الاخلاقيات العامة مثل ذلك الارتباك ، فأى أمريكى له الحق فى مثل ذلك التعيين (٣٤) ، ولكن حيرة اسرائيل تتركز فى حتمية الصراع بين المبدأ الأخلاقى القوى الذى ينادى بتكافؤ الفرص والمساواة السياسية الكاملة ومبدأ الدولة اليهودية الذى يعادله قوة . انها ليست مسألة تعصب بسيط فحسب ، على نفس الصورة التى عرف بها فى الجنوب الأمريكى مثلا ، كما أنها ليست دفاعا زائفا عن " خدمات منفصلة لكنها متساوية " ، ولكن فكرة اختيار رئيس جمهورية عربى لدولة اسرائيل يرفضها السكان اليهود لعدم لياقتها التاريخية ، لأنها ستسبب حتما اثارة شكوك أساسية حول تحليل وجود الصهيونية وحول أغلب المفاهيم الأساسية لمعنى اسرائيل والاسرائيلية .

وربما تغير ذلك الوضع اذا جاء يوم تقوم فيه علاقات ودية عبر حدود اسرائيل ، وتشهد اسرائيل فى داخلها اجماعا فى الرأى أيسر وأكثر طبيعية ، ولكن أيا من التغيرين لن يكون وشيكا على أية حال . وهناك فى نفس الوقت ، بعض القلق فيما يتعلق بنسبة التزايد الطبيعى للسكان العرب التى تبلغ ثلاثة أضعاف نسبة تزايد السكان اليهود ، كما أن هناك قلقا أكثر بشأن آثار انقسام

المناطق العنصرى القائم فعلا (٣٥) . ففى الجليل الأوسط لاتوجد سوى بعض المستعمرات اليهودية المتناثرة وسط منطقة تركيز عربى كثيف، وتتبع حكومة اسرائيل الآن سياسة تشجيع اقامة مستعمرات يهودية فى المنطقة . وبالرغم من وجود عدد من التعليلات لهذه السياسة ، الا انها تعكس محاولة لتحاشى تكوين مقاطعات كبيرة عربية تماما وسط الدولة " اليهودية . وقد طبق نفس المنطق ، وبنجاح متفاوت، عندما شجع اليهود على استيطان منطقة جديدة من الناصرة ، وهى أكبر المراكز الحضرية العربية .

ان هذه الاهتمامات متقطعة بعض الشيء ، اذ أن " المشكلة العربية " ليست بارزة بوجه خاص ، فقد تكون موضع اهتمام من الحكومة ولكنها نادرا ما تشغل بال معظم الاسرائيليين ، ففرصة أى اتصال ذى بال بين اليهودى والعربى محدودة للغاية (٣٦) ، فلا يخضع العرب لنظام الخدمة العسكرية الاجبارية السائدة فى اسرائيل ، كما أن معظمهم يعيش فى قرى نائية (٣٧) ، أما أولئك الذين يعيشون فى المراكز الحضرية الأكبر — وهم بوجه عام من المسيحيين وعددهم يفوق عدد المسلمين — فيتجمعون معا فى العادة ، والنتيجة هى عدم الاحساس بوجود العرب الا بصورة طفيفة . ونظرا لأن المشكلة تظل " هناك فى الخارج " ، ولأن التفكير فيها يثير الكثير من التساؤلات المحيرة ، فان الرأى العام يوليها القليل من اهتمامه فأما ما لايعبر عنه أحد فهو الأمل فى أن تخفف برامج الحكومة من عداء العرب وتحوله الى لامبالاة عملى يسمح باستمرار لامبالاة الرأى العام بالمشكلة الواقعية جدا لعلاقات الأغلبية بالأقلية .

ولسوء الحظ لم يول علماء المجتمع سوى القليل من اهتمامهم للعرب فى اسرائيل ، ومن المحتمل أن يكون ذلك على أساس أن لديهم مايكفى جدا لشغلهم دون أن يتورطوا فى هذه المنطقة الشديدة التعقيد . ويستتبع ذلك أنهم

لا يعرفون كثيرا عن أنماط السلوك داخل المجتمع العربي اللهم الا أنها تختلف تماما عن تلك السائدة في البلاد عموما . ولكل من السببين — عدم توافر المعلومات ، والحاجة الى معاملة العرب كمجموعة منفصلة — فاننا سنقصر دراستنا في الصفحات التالية على سكان اسرائيل اليهود وحدهم تقريبا . ان ضرورة اتخاذ مثل هذا الاجراء أمر واضح ومؤسف أيضا ، فانها في حد ذاتها عرض من أعراض تلك المشكلة التي ناقشناها .

من نكون ؟

لقد تحدثنا ، المرة تلو المرة ، على هذه الصفحات عن الشخصية القومية لليهود ، وقد اضطررنا ، طوال الوقت ، الى الاعتماد على الاستدلالات والاستنتاجات اذ أن المعلومات المطلوبة لم يتم جمعها بعد . ومن المحتمل أن يفضل الدارسون الآخرون لاسرائيل — والاسرائيليون أنفسهم بكل تأكيد — أن تستعمل طرائق أخرى لتشخيص المشكلة ، وألوانا أخرى من الأدلة لتوضيح شخصياتهم ، فلنضع الأمر ، اذن ، اذ يجب أن يظل بدون المزيد من المعلومات الدقيقة .

ومع ذلك فالمرء يتردد ويشعر بالتزمت عندما يتحدث في تلك الأمور . ان مفهوم الشخصية أداة عظيمة النفع في البحث السياسي ، وعرض أهميتها كسب بارز ، ولكن مثل هذه المقدمات قد يحول بمنتهى السهولة الى بدع ، ويستعمل لكل غرض بدون صلات حقيقية قاطعة . وليس من الواجب تناول الشخصية بفروسية على المستوى القومي أكثر مما تعالج على المستوى الشخصي ، فخطر المبالغة فيها موجود باستمرار وتتوقف الاشياء التقريبية على أنها حقائق . ومع ذلك فان الحذر مطلوب هنا أكثر من أى مكان آخر ، لأننا نتعامل هنا ، أكثر من أى مكان

آخر ، مع مسائل بالغة الحساسية ، ولأن الأمر كذلك ، ولأننا نفتقر الى المعلومات ، فان ماسبق أن ناقشناه ، وما سوف نناقشه فيما بعد ، مبنى على الحكم أكثر من المعلومات . والأمر يستوجب القول بأن مايلى هو أفضل تفسير يقدمه واحد من المراقبين وليس بالضرورة اجماع الرأى مجموعة من الدارسين .

ان معظم الدول الأخرى تحيطها حتمية لاتتمتع بها اسرائيل ، فاما أنها عاشت كدول مستقلة لسنوات كثيرة ، أو أن شعوبها عاشت داخل حدود جديدة منذ أمد بعيد . أما بالنسبة للاسرائيليين فلايوجد مثل ذلك الطريق السهل للاتفاق على ماتعنيه بلادهم ، فهى بالرغم من الماضى الدينى ، وبطرائق أخرى غاية فى الأهمية دولة مصطنعة ، يدوية الصنع ، خلقت نفسها بنفسها . وقد لايكون التعريف مشكلة بالنسبة لأولئك الذين قدموا الى البلاد من دول أخرى ، سواء كرواد أو كلاجئين ، فأمامهم فرصة عريضة للاختيار : اسرائيل كمركز دينى أو كموقع عودة ميلاد الشعب اليهودى ، أو كموئل للمضطهدين أو كحاملة للرسالة النبوية ، أو كفرصة للخلاص الشخصى والدينى .

ولكن ماذا عن الجيل الجديد من مواليد اسرائيل ؟ بالنسبة للكثيرين يعتبر مجرد ميلادهم فى اسرائيل ، بطبيعة الحال ، تفسيرا كافيا لوجود اسرائيل ، ولوجودهم فى اسرائيل ، فشعور المرء الخاص بشخصيته القومية لايوضع عادة موضع البحث ولا حتى فى اسرائيل .

حقا ، ماذا عن كل أولئك الذين لم يلتزموا بفكرة الخلاص — أولئك الذين لايرون فى اسرائيل بداية فصل درامى جديد فى سلسلة طويلة وشخصية جدا من التاريخ ، والذين لاتحمل البلاد أى معنى خاص بالنسبة اليهم ؟ ان اسرائيل لاتزال بلدا جديدا جدا ، وغير راسخ بالمرة حتى يتم تقبلها بصورة طبيعية

تامة أو اختناقها بدون تحفظ ، ومن أجل هؤلاء تجب الاجابة عن السؤال : ما الذى أفعله هنا ؟ "

وكلمة " هنا " قد تعنى عدة أشياء مختلفة ٠ وكما رأينا ، فان " بمنزل " اسرائيل عدة " ساكن " ، ولكنه ، بالنسبة للشباب على الأخص ، منزل قلــــق تتباعد مساكنه وتتنافر ، فبعضها مازال بسيطا خاليا من الزينة أما البعض الآخـــر فغاية فى التكلف والتعقيد ٠ وكلها تقع لسوء الحظ فى أرض معزولة بمنطقة يغلـــب عليها طابع معمارى مختلف تماما ٠ فلو كانت اسرائيل فى منطقة أخرى — كغـــرب أوربا مثلا — لأمكن لتعاملها الطبيعى مع الدول المجاورة أن تخفى من طبيعتها المصطنعة ، إاء بيئة دولية تقليدية (٣٨) ٠

وليست عداوة الدول المجاورة لاسرائيل هى المسئولة تماما عن عزلتها فى الشـــرق الأوسط ، بالرغم من أن الموقف السياسى فى الشرق الأوسط يسهم فى تشعورها بالشذوذ ، وانما هى ، فى الغالب ، تلك النزاية القلقة لوضع اسرائيل كحضارة أوروبية فى منطقة بعيدة وجليا بل ومن زاوية الكفاح والنضال — أنها ذات بيئة اقليمية غير أوروبية ٠ وقد لا يجد الاسرائيلى الشاب صعوبة تذكر فى فهم سبب اسرائيليته ، ولكن من العسير جدا أن يتقبــل — فضلا عن أن يتفهم — فكرة أنه أيضا ينتمى الى الشرق الأوسط (٣٩) ٠

والى حد ما ، نجد أن هذا كان السبب فى أن محاولات اسرائيـــل الدائمة لانشاء علاقات اقتصادية وسياسية لها أهمية خاصة ، كما أنه ، الى حـــد ما أيضا ، كان سبب أهمية معنى علاقات اسرائيل بالمجتمع اليهودى العالمـــى وعضويتها فى الأمم المتحدة ٠ وليست هذه الارتباطات المختلفة الحيوية بالنسبة لاقتصاد البلاد وأمنها ونموها فحسب بل وكذلك بالنسبة للتأكد من قبول البـــلاد وشعبها واعتبارهم مساوين لغيرهم ، تشارك اسرائيل الدول الجديدة فى جميع

أنحاء العالم فى حساسيتها المؤلمة ، كما أنها تخشى ألا يدرك المتفرجون بالمسرح العالمى أنها قد وضعت فى الوضع الخاطىء على ذلك المسرح المعاصر ، أو ألا يفرقوا بين "الوجود فى الشرق الأوسط و " الكون من " الشرق الأوسط (٤٠)

ولهذا التمييز بينهما أهمية بالغة بالنسبة للشباب ، فبغيره ، ومع افتقاره الى قبول أى من أنواع الايديولوجية الصهيونية ، لايتضح لهم سبب لارتباطهم بتلك الأرض المقلقة . وبالنسبة لأولئك الذين تمتد جذور عائلاتهم فى الغرب — اذ أننا نتحدث عنهم على وجه التحديد — فان الغرب يلقى بما يمثله من قرابات ومراكز تعليمية أعلى وثراء واستقرار ، ظلا عملاقا مغريا .

ومهما بلغت سمة الخيال ، فان هذا لايعنى أن الاخلاص للدولة أقل من الكامل ، أو أن هناك خطرا من حدوث " خروج " جماعى . ونكرر القول بأن جميع التساؤلات والشكوك لابد أن تقابلها وتوازيها جميع الأشياء المؤكدة والواضحة ، وأيضا كل ما لأرض لاتزال شابة تمر فى مرحلة التكوين من جاذبية خاصة . وليس هناك أى تساؤل حقيقى ، ولا يكاد يكون هناك وزن ذو بال للجاذبية بالنسبة لجميع الاسرائيليين تقريبا بمن فيهم من الشباب أيضا . ان مايراه الدارس فى بحثه عن الشخصية قد يعتبره موضوع الدراسة أمرا مثيرا للضحك لأنه أبعد مايكون عن الوعى العام . وبالطبع قد يكون من المحتمل أن الدارس قد يرى أكثر مما هو واقع بالفعل ، ومع ذلك فلا يقل عن هذا الاحتمال أن يخفى موضوع الدراسة عنه شخصيا أكثر مما يخفى هو اخفاءه عن الآخرين . ان الاسرائيليين لايتحدثون فى مثل هذه الأمور بسهولة أو علانية ، ومع ذلك فالمرء يشعر بأن هناك مظاهر هامة يبدو فيها عن عدم الثقة بالمستقبل مثل ماتقوم به البلاد علاوة على السلامة العسكرية — فى صورة عدم الثقة بالحاضر أيضا . وهذا أمر محتم لعدة أسباب ، فهو حظ كل دولة جديدة لاتزال تتلمس طريقها الى الاستقلال ، أما فى حالة اسرائيل فيجب اضافة كل تلك المشاكل الخاصة التى كنا نتحدث عنها .

الفصل الثالث

الثقافة السياسية : الأحزاب والايديولوجيات

ان ثقافة اسرائيل السياسية لاتزال تسمح بمنظور آخر أوسع: منظور سياسى أكثر وضوحا بكثير. فان المرء لايستطيع التوصل الى فهم الثقافة أو النظام السياسى دون أن يدرس أحزاب اسرائيل السياسية بشىء من الدقة ،فان بداية الحكمة فى سياسة اسرائيل تكمن فى التحقق من أهمية الحزب السياسى الكبرى فنظام اسرائيل السياسى هو نظام الأحزاب السياسية ويقوم عليها الى حد كبير ان لم يكن لها . ولكى نعرف سبب ذلك ومعناه يجدربنا أن نبدأ بفحص الأسلوب الايديولوجى والمادة الايديولوجية لعدة أحزاب .

الأسلوب الايديولوجى ـ الأحزاب والحركات :

ان للأحزاب السياسية عدة وظائف ،فهى تحكم وتعارض وتقوم بتحديد المشاكل وتجنيد الزعماء السياسيين ،وهى منافذ لنشاط ذوى النشاط السياسى ،وتوفر للناخب فرص اختيار هيئة الحكومة وسياستها .[1] وهى بقيامها بتلك الأعمال ،تعكس بلامحالة الثقافة السياسية التى تنبت منها . ومن الطبيعى أن نتوقع مثلا أن تختلف الاحزاب فى بيئة متعددة الجوانب غير ايديولوجية اختلافا ظاهرا عن الاحزاب التى تعمل فى اطار ثقافة منهجية متماسكة اجتماعيا . كذلك فمن الضرورى أن يعكس الحزب مبادئ الثقافة التى ينتمى اليها أو مبادئ الثقافة الفرعية الاقرب اليه ، سواء فى ترشيحه للنواب أو فى اختياره للسبل المناسبة لحشد القوى المؤيدة . ومن الصحيح أيضا ،وان لم يكن من الملحوظ كثيرا ،أن الاحزاب تعيد تغذية الثقافة مدعمة أنماطها الغالبة ومشكلة

الرأى العام الى جانب تشكيله لها . فعندما يطبق حزب مبادئ وقيم الثقافة التى يؤيدها فانه يدعم تلك الثقافة أو يجسم تلك المبادئ وتلك القيم .
ومن الطبيعى أن تكون تلك هى الحقيقة بالنسبة لاسرائيل كما هى بالنسبة لأية دولة غيرها ، ولكنها بالرغم من ذلك ليست حقيقية بالقدر الكافى . ان مايميز أحزاب اسرائيل هو أنها نفسها ضمن أهم مجموعات الثقافات الفرعية فى المجتمع . ان الحزب السياسى فى اسرائيل كما هى الحال بالنسبة للاحزاب فى كل مكان — يسعى لكسب الاصوات الانتخابية . وبالرغم من ذلك ، وعلى خلاف أحزاب الولايات المتحدة فانه يسعى لكسب أعضاء من أحزاب أخرى ، لا لكى يشكل حكومة للبلاد فحسب بل كذلك ليخلق لانصاره أسلوب حياة متكاملا وصحيحا من الناحية الايديولوجية (٢) .

ولكى نفرق بين الحزب بوصفه متنافسا انتخابيا والحزب بوصفه فكرة ايديولوجية مقنعة سوف نحتفظ بتسمية " الحزب " للصفة الاولى ونطلق اسم " الحركة " على الصفة الثانية (٣) .

والحركات السياسية فى اسرائيل تمتلك أو ترعى الصحف ودور النشر وحركات الشباب ، والبنوك وشركات التأمين ، والمستعمرات الزراعية ، والمشاريع الاسكانية والمعاهد التعليمية . وبالرغم من عدم توافر الارقام الصحيحة بالنسبة لعضوية الاحزاب ، الا أن حوالى ٤٠ ٪ من السكان البالغين أعضاء يسمون فى حزب أخر كما أن كلا من الاحزاب الرئيسية التسمة حزب جماهيرى . وكحركة يسعى كل منها الى تجنيد أكبر عدد ممكن من الاعضاء والى شغل أعضائه فى أعقد شبكة ممكنة من علاقات الاحزاب ببعضها البعض . ان عضو الحركة المثالى يعيش فى مساكن الحزب (أو فى مستوطنة زراعية تابعة للحزب) ويقرأ صحيفة الحزب ، ويجرى

معاملاته المالية عن طريق مؤسسات الحزب المالية ، ويحضر الحلقات الدراسية في مدارس الحزب ، ويطالع الكتب التي يصدرها الحزب ، وينضم لعضوية نادى الحزب المحلي ويسهم في اجتماعاته الاسبوعية أو نصف الشهرية ، ويرسل أطفاله الى حركة الشباب التابعة للحزب ، وفوق ذلك كله فهو يؤمن بأن ايديولوجية الحزب تعبير شامل عن الحقيقة السياسية ، وحيث أن حركته هي التي تقول الحق فان الحركات الاخرى بالتالي تنطق بالباطل ، وتستحق الاحتقار على أحسن الفروض ، والعداء العملي الشامل ، على أسوئها .

ومثل ذلك الالتزام الايديولوجي يحول الجدال السياسي عن الاسئلة العملية : " من الذي يأخذ أي شيء : كيف ، ومتى ؟ " الى مواجهة أساسية بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين الصدق والخداع .

وقد وقع المثال التقليدي لمثل هذه المواجهة في عام ١٩٥٣ عندما تفرق شمل عدد من أرسخ مستعمرات الكيبوتز ، أساسا تحت ضغط الخلافات الايديولوجية . وقد كف أشخاص ظلوا أصدقاء حميمين لسنوات عن التحدث الى بعضهم البعض لأنهم أصبحوا أعضاء لطوائف سياسية مختلفة . وقد حدث في عدة حالات أن أقيمت فواصل داخل قاعات الطعام الجماعية (الكميونية) ، مما يعطي الانشقاق الفكري كيانا فعليا . كذلك قسمت الممتلكات الجماعية بين المجموعات المتخاصمة ، كما أن الأسلاك الشائكة قد استعملت في بعض الأحيان لتعيين الحدود بينها . وفي النهاية وجدت عدة مستعمرات أنها منقسمة على نفسها الى درجة بلغت حدتها أن انسحبت مجموعة أو أخرى ببساطة وأقامت مستعمرة جديدة في مكان آخر .

ومما لا شك فيه أن تلك كانت حالة متطرفة ، فلم يسفر أي جدال فكري عن مثل تلك العواقب المثيرة وإن ولد الكثير منها مشاعر لا تقل عنها حدة ، وألفاظا

لاتقل قسوة ،واتهامات متبادلة لاتقل بشاعة .

من أين ينشأ مثل هذا الجو؟ انه الى حد ما تراث الاحزاب السياسية الذى تمتد جذوره الى بداية هذا القرن فى أوروبا الشرقية . فى زمان ومكان اصطبغ فيهما الحوار السياسى بنغمة وطبيعة الحرب الدينية ،وكانت الخطط السياسية للاحزاب كتبا مقدسة ونداءات للمعركة . ونظرا لأن الكثيرين من زعماء اسرائيل السياسيين نشأوا فى هذه البيئة ،فلم يكن غريبا أن يستمروا على تقاليدها . وعلاوة على ذلك ،فان الوضع السياسى خلال السنوات الاولى للاحزاب والحركات السياسية فى اسرائيل كان فى أحد جوانبه الهامة ،مماثلا لما ساد أوروبا الشرقية ففى كل منهما تكونت الايديولوجيات بواسطة مجموعات لم يكن لها أى قسط من مسئولية الحكم . وفى مثل هذا الجو تتشجع المنظمات السياسية على تمييز نفسها الواحدة عن الاخرى عن طريق الرؤى الغيبية أكثر من الأداء الفعلى ،فسياسة الفلسفة العنصرية التى تفسر تاريخ العالم وحضارته هى الامتياز الخاص لمن لاسلطة له والرفاهية التى لايمكن لمن يقومون بمهام الحكم أن يسمحوا بها لانفسهم ، على الاقل أولئك الذين يحكمون فى مجتمعات مفتوحة .

وقد أسهمت عوامل أخرى من الماضى التاريخى والعرقى فى توكيد القيمة الايديولوجية فى حياة اسرائيل السياسية . وقد دعم ذلك التوكيد تقليد دراسة الدين اليهودى المثير للخلاف ،والبحث عن بديل عاطفى للالتزام الدينى عندما بدأت الدنيوية فى احتلال مكان هذا الالتزام،وجميع الجذور الاجتماعية والاقتصادية والقومية والسياسية لسكان اسرائيل ،وكلها أججت نيران ذلك الجو الملتهب . وأخيرا فان نظم مؤسسات المنظمة الصهيونية ـ وهى أولى ساحات قتال الاحزاب ـ كانت ترحب بالسياسة الانشقاقية ،اذ أن الانتخابات داخل

المنظمة كانت مبنية على التمثيل النسبي ، حيثما أمكن ، حتى يتسنى لأصغر الطوائف أن تأمل في الامساك بميزان القوى . ومن هنا ضعف الدافع المثابر لتوسيع القاعدة الايديولوجية .

والواقع أنه في بداية تاريخ تلك المنظمة تكونت بها مبادئ أخلاقية أساسية تحولت برمتها فيما بعد ، الى الدولة الجديدة . ومقتضى هذه الاخلاقيات تساوى التصالح والتوفيق الايديولوجي مع الانتهازية المبتذلة ومع شهوة الحكم .

وعلى أية حال ، فمن المحتم أن تلك الحدة الايديولوجية التي وصفناها لا تمس الا قلة محدودة من مواطني اسرائيل ، فالسياسة بالنسبة للأغلبية أمر سطحي تقريبا ، ولا يؤخذ بجدية بأية حال . وكما سنرى فان الانتماء الى الاحزاب لا يكون في أغلب الاحيان صادرا عن أو مؤديا الى موقف ايديولوجي متناسق يتمشى مع موقف الحزب المؤيد ، فان الكثيرين من الاسرائيليين — وحتى أعضاء الاحزاب منهم — لا يحملون شعورا قويا بالانتماء الى أي من الاحزاب ، أما عند أولئك الذين يحسون بذلك الانتماء فلا نجد الا ارتباطا طفيفا بين الايديولوجية الشخصية وايديولوجية الحزب .

وعلاوة على ذلك ، فحتى داخل تلك المجموعة الصغيرة التي تحمل معها تقليد السياسة العاطفية ، نجد من الصعب فصل العقيدة عن المراسم ، فان المؤتمرات الايديولوجية المتكررة ، والتأنق الذي تصطبغ به التصريحات العقائدية ، والقلق بشأن التزام الخطط الجديدة والسياسات الجديدة للتقليد الايديولوجي ، يحيطها جميعا جو من القدم ملئ بالمفارقات التاريخية فالاسلوب الايديولوجي يزيد أهمية عن المادة الايديولوجية ، وهذا يعني أن التزام خطة ايديولوجية رسمية لا يعوق العمل ولكنه بدلا من ذلك يتطلب أن تقر اللغة التقليدية أي عمل مقترح ، وينطبق ذلك على الاحزاب الحاكمة بوجه الخصوص فقد تمكنت على مر السنين من تأييد

عدد من السياسات المتناقضة بدون أن تقر بالانحراف الايديولوجي .

ولكن بالرغم من كل شيء فان الاسلوب والمادة لا يسهل فصلهما الى ذلك الحد ، فان الشرط الضمني لصياغة الحوار السياسي في اطار ايديولوجي لابد أن يؤثر في مادة الحوار فيحد مما يمكن قوله عند كل من الجانبين ، ويشحن مناقشات المشاكل السياسية البسيطة بعواطف لا تتناسب الا مع مسائل أهم منها فنرى الفارس الابيض والفارس الأسود في كامل زيهما يتبارزان دفاعا عن الفضيلة حيث تكون المسألة الحقيقية هي زيادة المبلغ المخصص لمرتبات موظفي الحكومة أو نجد يأجوج ومأجوج يتقابلان في صراع مزلزل حول قرار اتخذه وزير الزراعة لتعديل معونات الحكومة المخصصة لسلالات الطماطم المختلفة . ولكن طالما أن المناقشات تستمد لغتها من الفلسفة السياسية ، بدلا من قاموس المساومة السياسية فان ذلك يغير من مادة ما يطرح للمناقشة ويغير بالتالي من مادة الحل النهائي كذلك (٥) .

وهنا علينا أن نتحسس مواقع أقدامنا بحذر مرة ثانية ، فان البحث الذي سيبين لنا عدد ممثلي اسرائيل السياسيين ممن يتشبثون بالايديولوجية وعدد أولئك الذين يعتبرونها تراثا معرقلا للجهود ، والذي سيبين العلاقة بين الايديولوجية وما يتخذ من قرارات ، لم يأت بعد . وفي حالة الافتقار الى الابحاث الشاملة يجب علينا الاعتماد على ما يتفق عليه المراقبون من ذوي الخبرة بالموضوع . ويبدو أن هناك مثل ذلك الاجماع في الرأي حول ثلاث نقاط أساسية :

١ — أن للايديولوجية في سياسة اسرائيل أهمية أكبر بكثير مما لها في أغلب دول الغرب ، وبالاخص في الولايات المتحدة .

٢ـ أن ميول اسرائيل الايديولوجية مسألة شعائرية الى درجة ما ، وهذه الدرجة نفسها غير معروفة ، كما أن تأثير الايديولوجية الشعائرية على صياغة السياسة غير معروف أيضا .

٣ـ أنه بالرغم من تأكيد الفكرة الايديولوجية فان النظام يقدم أدلة وفيرة على قابليته للتأقلم : فطبقا للأصل يتسابق المتصارعون ويتركون الساحة مما حالما يهبط غبار المعركة

(وربما كان ذلك مصدر السخرية الشائعة عن السياسة فى اسرائيل ، حيث يتحتم على المواطن أن يستنتج أن الاتهامات والاتهامات المضادة لها ، وكذا الالتزامات المهيبة ، والتحذيرات الرهيبة لم تكن كلها سوى وجه ما من أوجه البلاغة الخطابية ولم تكن تؤخذ بصورة جدية أبدا ، أو أن الزعماء السياسيين قد باعوا مبادئهم لقاء دراهم معدودات) .

الجوهر الايديولوجي ـ برامج الأحزاب :

كثيرا مايكون من الصعب ـ وأحيانا من الخطر ـ أن نفرق بين تصرف توجيه الحركة ايديولوجيا وتصرف الحزب الذى توجهه السلطة . وتتجلى تلك الصعوبة فى أوضح حالاتها خلال التفاوض من أجل تكوين ائتلافات حكومية حيث يجرى الجدل حول تعيين الوزراء ، فى كل مرة . وكأن الايديولوجية وحدها هى المعرضة للخطر ، ولكن الخطر يأتى من اغراء أخذ البرامج السياسية بقيمتها الظاهرية دون ادراك أن مقدميها قد يكونون متأثرين بمقتضيات السياسة ـ الأمر الذى يؤدى الى خلطهم بين المعايير السياسية والايديولوجية فى تصريحاتهم . ولذلك فعندما نعاين الموقف الايديولوجي لكل من أحزاب اسرائيل الرئيسية يتعين علينا أن نميز بين الجزء المنبثق من الفلسفة الحزبية الأساسية والجزء

الذى يسعى لكسب الاصوات الانتخابية ، وحيث لاتتوافر الأدلة الكافية لمثل هـــذا التمييز يكون من الخطأ أن نستنتج ببساطة وجود توافق تام بين الموقف الايديولوجى والعقيدة الايديولوجية .

ويمكن تشخيص الاختلافات الايديولوجية بعدة طرائق . واحدى هـــذه الطرائق هى تتبع جذور تاريخ كل حزب ، واكتشاف سبب قيامه ونموه من مشاكـــل جديدة أو تحول مثير فى أحداث التاريخ . وثمة طريقة ثانية ، وهى افتراض نـــوع من أنواع التحليل الطيفى الموحد الأبعاد للفكرة الايديولوجية يمكن به تقييم الأحزاب . ويحدث فى دول كثيرة أن يكتفى بتقييم الاحزاب تبعا للمقياس التقليدى المتـــدرج بين اليمين واليسار الاقتصادى لتقدير أوضاعها الايديولوجية ، وأخيرا ، فمن الممكـــن تعريف تلك المسائل التى يجرى حولها معظم الجدل فى أى وقت وتحديد طريقـــة معالجة كل حزب لكل مسألة منها .

وأية واحدة من هذه الطرائق الثلاث غير كافية وحدها فالتأكيد الخـــاص على التاريخ يبالغ فى درجة انتماء الاحزاب واخلاصها لماضيها ، كما يقلل مـــن أهمية الحوار السياسى القائم . أما تدرج الاحزاب تبعا لمقياس ايديولوجى حـــتى ولو كان ممكنا ، فانه يتخذ مضمونا سياسيا أكثر مما يوجد فى العادة ، وبذلك يهمل الصفة العرضية للمجموعات الايديولوجية التى تطرأ عليها أحيانا . كذلك فان تناول الأحداث الجارية وحدها يفصل كل حزب عن ماضيه ، ويجعله كمجرد رد فعل وقتى لتفسيرات خارجية وبذلك نجد أنه من الضرورى أن نجمع بين الطرائق الثلاث من أجل تفادى التشويه .

والكلمة الاخيرة فى تقديم هذا الجزء تتعلق بمراتب الاحزاب وهناك مجازفة فى الكتابة عن أحزاب اسرائيل السياسية فى منتصف الستينات عن هذا القرن ، ففـــى

عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ حدثت تغييرات مثيرة داخل الاحزاب فانشقت الائتلافات القديمة وأقيمت تجمعات جديدة ، وبالرغم مما يبدو من هدوء العاصفة بصورة مؤقتة الا أنه من المجازفة اعتبار توزيع الايديولوجية والتأييد الحالى كأمر يقرب من الانحياز الدائم بأية طريقة فقد بدأ نظام الإحزاب فى التغيير ولكن التغيير لم ينته بأية حال .

وحتى نتلافى اعطاء الترتيب الحالى أهمية أكبر مما يستحق ، نجد أنه من المفيد أن نرجع الى الماضى قليلا ونقدم وصفا للاحزاب وبرامجها كما كانت قبل اقامة تلك الاتحادات الجديدة . وباستعمال ذلك الوصف كاطار خلفى يسهل علينا بعد ذلك أن نصف أنواع التغييرات التى بدأت أخيرا ، والتى يبدو أن النظام الحزبى سيخوض غمارها لبعض الوقت فى المستقبل . وهكذا يجب أن نضع فى اعتبارنا عند قراءة الصفحات التالية أن الوصف له تاريخ معين وسرعان ما سيجرى تعديله .

هناك قضيتان أساسيتان وتقليدتان تقسمان أحزاب اسرائيل ، أولاهما قضية التنظيم الاقتصادى التقليدية ، أو الصراع بين اليسار واليمين، وثانيتهما قضية الحكومة الدينية . وسوف يسهل عرضنا للموضوع اذا ما أجلنا النظر فى مسألة الاحزاب الدينية فى الوقت الحالى ، وحصرنا دراستنا حول الاحزاب الزمنية الرئيسية الستة . ان أربعة من هذه الاحزاب ذات ميول اشتراكية (وقد أيدها أكثر من نصف الناخبين فى جميع الانتخابات البرلمانية السابقة) . فى حين أن الحزبين الآخرين يميلان الى الرأسمالية (وقد أيدهما مايتراوح بين خمس وحوالى ثلث الناخبين فى الانتخابات السابقة) .

وهنا يظهر فى الحال أن مجرد التقسيم الثنائى الاشتراكى — الرأسمالى البسيط لايكفى لاظهار الفوارق حتى بين الاحزاب الدنيوية ، والى حد ما فان

التصور المفصل اللازم عبارة عن اضافة نقاط وسطية ،وعن تحويل التقسيم الاشتراكي المضاد للتقسيم الرأسمالي الى سلسلة رأسمالية متصلة مضادة لسلسلة اشتراكية متصلة . وهنا يمكننا أن نبدأ بالحزب الشيوعي في أقصى اليسار،ثم نتحرك قليلا تجاه اليمين الى المابام ،وهو حزب اشتراكي ماركسي له تاريخ من المواقف المزدوجة تجاه الاتحاد السوفييتي ، ثم الى أحدوت أفودا ، وهو أقل تعصبا في ميوله الماركسية وأكثر حيادا في صراع الحرب الباردة ،ثم الى المابای اللاماركسي الذي يميل الى الاشتراكية الديموقراطية حسب تقليد حزب العمال البريطاني ،والى حزب الاحرار الذي يميل الى القطاع الخاص،وان كان على استعداد لقبول درجة عالية نوعا من نشاط الخدمة الاجتماعية الحكومي ،وأخيرا الى حزب حيروت أكبر معارض لتدخل الحكومة في الاقتصاد ولانحيازها التقليدي للمجتمع العمالي .

ان هذا الوصف دقيق ولكنه سطحي ،اذ أن ثمة مسائل أخرى بعيدة تماما عن المحيط الاقتصادي كثيرا ما تحدد الاختلاف بين أحد الاحزاب والآخر . ومن ذلك أن الحزب الشيوعي وحده مناهض للصهيونية ، يقبل الوصف السوفييتي لاسرائيل بأنها قاعدة امبريالية في الشرق الاوسط . كذلك حزب حيروت ،وقد خفف من غلوائه الآن اندماجه مع حزب الاحرار الأكثر اعتدالا ،فقد جرى تقليديا على الاصرار على سياسة خارجية ذات اتجاه قومي عال ،تتضمن حتى المطالبة بالعودة الى حدود فلسطين عام ١٩٢٢ .أما حزب مابام فيظهر اهتماما بالأقلية العربية في اسرائيل أكثر من غيره من الاحزاب .

ولاتسمح مثل هذه القضايا بتصنيفها بسهولة ،فهي تبرز لنا فجأة من لا شيء ،مما يربك التصوير البياني المنتظم للاختلافات بين الأحزاب ، فان مايعتبره أحد الاحزاب قضية رئيسية يكاد لايجد اهتماما لدى غيره (٨) . كيف يمكننا اذن أن نرسم مخططا للخلافات؟

ان المنظور التاريخي لفائدته في هذه العملية ، وخصوصا بالنسبة للأحزاب الاشتراكية ، فقد كان مصدر قوة هذه الاحزاب (باستثناء الحزب الشيوعي) وخصوصا في سنواتها الأولى ، هو شبكة مستعمرات الكيبوتز التي استمدوا منها معظم قياداتهم . وقد ضمت مستعمرات الكيبوتز الجديدة في فلسطين أفضل عناصر السكان وأفصحها في البيان السياسي . وعلاوة على ذلك ، فحيث أن المستعمرة الكيبوتز كانت مشروعا ايديولوجيا فلم يكن لأي قطاع من المجتمع النامي أن يضاهيها من ناحية الاهتمام والالتزام الايديولوجي . ونتيجة لتلك المشاعر الحادة ، كانت مستعمرات الكيبوتز (وكثيرا مافرقت بينها اختلافات عقائدية واهية) لاتهتم كثيرا باستمرار اتحادها الا حسب شروطها الخاصة وكانت كل من الحركات الرئيسية ترى أن طريقة تنظيمها هي الأفضل ، وترفض تعريضها للخطر بالارتباط بالحركات الأخرى في داخل اطار تنظيمي موحد .

ومع ذلك فقد اشتركت كل منها في جهاز سياسي أكبر ، وكانت تتحمس لتأييد أحد الاحزاب الاشتراكية . وحيث أن تنظيم الحركات كان جيدا ومحكما ، وخصوصا بمقارنته بباقي السكان ، فقد كان تأييدها من حيث المال والهيئة العاملة والبرامج والمعنويات ضروريا وكافيا أيضا لبقاء الاحزاب . وقد صار ذلك تقليدا واضحا بالنسبة لحزب أحدوت أفوداه (وحدة العمال) وحزب مابام ، وحتى حزب ماباي ، الذي كانت له دائما أوسع قاعدة تنظيمية كان يعتمد بشدة على حركة الكيبوتز الموالية له .

وعلى مر السنين ، بذلت محاولات عديدة في سبيل تحقيق قدر من الوحدة ، يتراوح بين العمل المشترك والاندماج الكامل ، بين المجموعات الاشتراكية والاحزاب العاملة في الحقل السياسي ، ولكن حتى عام ١٩٦٥ قوبلت مثل هذه المحاولات بعداء حركات الكيبوتز لاعتقادها أنها تشكل خطرا على نقاء ايديولوجيتها .

وفى عدة حالات تم اندماج الاحزاب فعلا ، ولكن لتكتشف أن اتحادها لايمكن بقاؤه طالما تصر حركات الكيبوتز على السياسة الانفصالية • وائتلاف حزب الماباى وحزب أحدوت أفوداه الحالى ، الذى تم فى عام ١٩٦٥ ، يعتمد بقاؤه على شرط أن تجد حركات الكيبوتز الموالية لهما أرضا مشتركة بينهما • وفى الواقع أنه لو استمر ذلك الائتلاف بالرغم من انفصالية حركات الكيبوتز فلن يسع المرء الا أن يستنتج أن حركات الكيبوتز قد رأت النور " سياسيا " •

بالرغم من أن انفصالية حركات الكيبوتز كانت السبب الهيكلى الرئيسى فى الانفصالية الموجودة بين الاحزاب الاشتراكية ، الا أنها ، فى حد ذاتها ، لاتفسر خلافاتها الايديولوجية التى سنتناولها بالتفسير هنا • والمشكلة التى نواجهها هنا بسيطة للغاية : ان الخلافات الايديولوجية الظاهرة التى تقسم الاحزاب الاشتراكية أو التى تفصل كل الاحزاب الدنيوية فى الواقع لاتكفى بالمرة لتبرير انفصاليتها ، ولكن محاولة التعمق الى جذور هذه الخلافات أمر لا رجاء منه ، اذ أن الايديولوجية ماهى الا سبب واحد من بين عدة أسباب لتعدد الاحزاب واختلافها فيما بينها فهى تعزز الاسباب الاخرى كما تعززها هذه بدورها ، هى الاخرى • ولكن بصرف النظر عن الجدل المعروف حول السياسة الاقتصادية والقضايا المتباينة التى التصقت بجميع الاحزاب على السواء ، فليس هناك أى شقة خلاف ايديولوجية ضخمة حقا •

فاذا كان علينا أن نفهم السبب فى بقاء حزبى الماباى وأحدوت أفوداه وهكذا منفصلين لمدة عشرين عاما فلن يكفى أن نفترض أن احدهما يزيد عقائدية فى اشتراكيته عن زميله حتى بالرغم من أن للخلافات أهمية قصوى بالنسبة لكثير من أعضاء كل من الحزبين • واذا كان علينا أن نفهم ما الذى جمع الحزبين معا بعد عشرين عاما فلن

يكفى أن نفترض أن أهمية الخلافات الايديولوجية التقليدية قد ضعفت بمرور الزمن بالرغم من حدوث ذلك فعلا . وباختصار ، فمن الضرورى أن نأخذ فى اعتبارنا أنواعا أخرى من التغييرات : تأثير نظام التمثيل النسبى لنظام الانتخابات ، والمشكلة التركيبية لحركات الكيبوتز الانفصالية وحقيقة أن أحدها ظل مسيطرا على الحكم منذ فترة ماقبل الاستقلال بينما ظل الآخر بين الأحزاب الصغرى فى البلاد ، والتأثير الباقى للجدل الذى سبب انقسامها ، ونضج مجموعة قيادية جديدة لاتحمل آثار جراح المعارك الحاسمة السابقة .

ويمكن تكوين قوائم مماثلة بالنسبة لكل زوج من الاحزاب . فلكى نفهم سبب اصرار حزبى حيروت والأحرار على الابقاء على انفصالهما حتى عام ١٩٦٥ ، ثم اكتشافهما المفاجئ لامكانية اندماجهما معا ، ينبغى أن نعرف أن جذور أولهما تمتد الى احدى المنظمات الارهابية فى عهد ماقبل الدولة ، بينما بنى الأخير أساسا على تأييد الطبقة المتوسطة فى المدن والطبقة المتوسطة الأعلى ، وأن أحدهما قام حول رجل واحد فى الغالب ، وهو مايراه البعض من أعضاء الحزب الآخر شكلا جديدا للفاشية . وهكذا نستمر فى تكوين قائمة ممتدة تستمد مادتها من المصادفات والحوادث والأحداث ، والمؤسسات الخارجية والصراعات الداخلية ، بالاضافة الى الحوار الايديولوجى المنمق .

والأمر كذلك دائما ، فالأحزاب كغيرها من المنظمات — تكون قوة من المؤسسات وتقاليد خاصة بها قد تتمشى بعض الشئ فقط مع خططها السياسية الظاهرة التى تكسب نشاطها منطقية معقولة ، ومرة ثانية نعود لنقول ان أية محاولة لتصوير أحزاب اسرائيل حسب اختلافاتها الايديولوجية فقط تكون أمرا مصطنعا ومضللا . وبدلا من ذلك يمكن تقديم وصف مختصر لكل حزب يشمل معتقداته وتقاليده

ومؤيديه ،وتجاربه ،وهيئة أعضائه ، التي تكسبه معظم شخصيته :

حزب الماباى :

ان حزب الماباى يبرز بصفته حزب الحكم وقد كان أقوى الاحزاب قبل الاستقلال ، وفى كل من الانتخابات القومية الخمسة الاولى التى أجريت قبل عام ١٩٤٨ ،كان يحصل على أكثر من ضعف الأصوات التى يحرزها أقرب منافسيه،ومع أنه لم يحصل أبدا على الاغلبية المطلقة من الاصوات الانتخابية الا أنه كان دائما حزب الائتلاف الرئيسى : الحزب الذى تتكون حوله كل الحكومات ، وقد كان رؤساء اسرائيل الثلاثة ،واثنان من رؤساء حكومتها ،وكل وزير للخارجية ووزير للدفاع من بين صفوف حزب الماباى،وقد سيطر الحزب منذ قيامه فى عام ١٩٢٢ على الهستدروت وان كان بأغلبيات ضئيلة ، وقوته فى الدولة تشبه الاسطورة ،فلأنه كان المهد الذى تمت وترعرعت فيه معظم الشخصيات السياسية الرئيسية فى اسرائيل (بن جوريون ،بن زفاى ،اشكول ،مائير ، برل كاتزنيلسون ،شاريت ، ديان ، وغيرهم كثيرون) فقد صار ينظر اليه كحزب الاستقلال ، وأضفيت عليه صفة الحتمية السحرية التى تسبغ عادة على مثله من الاحزاب(٩) ، ولان زعماءه سيطروا على سياسة ماقبل الاستقلال لسنوات كثيرة فقد أصبح أيضا حزب التشالوتزويت (أو العمل الرائد) وهو احدى أساطير اسرائيل الرئيسية ، وحيث أنه كذلك الحزب المسيطر على معظم مؤسسات الدولة الرئيسية ، فيغلب النظر اليه وكأنه قادر على كل شئ تقريبا ، وخلال الفترة قبل الاستقلال مباشرة ،وقبل المجهودات التى بذلت من أجل الحد من تأثير البيروقراطية ،كانت عضوية الماباى تعتبر شيئا ضروريا للتقدم الشخصى ، وحتى للتمتع بخدمات الحكومة

كذلك فان حزب الماباى أكثر أحزاب اسرائيل تعددا ، ويرجع ذلك الى مركزه الذى يتوسط الصورة السياسية ، الى حد ما وكذلك الى تاريخ قوته الطويل مما يعطيه امتيازا فى التنافس من أجل تأييد متنوع . وبالرغم من أن الابحاث الانتخابية فى اسرائيل لاتزال فى أول الطريق ، الا أن هناك بالفعل دليلا يؤيد الفكرة الشائعة بأن لحزب الماباى جاذبية أوسع وأكثر تنوعا من غيره من الاحزاب ، فبعض مؤيديه يستجيبون لجاذبية زعمائه أساسا ، وخصوصا بن جوريون فى هذه الايام والآخرون لايمكنهم التفريق بين الماباى والدولة ، فيؤيدون الحزب بدافع الوطنية القومية ، وآخرون غيرهم يربطون حالهم ـ الماضى والمستقبل ـ بحزب الماباى ، ويرى الكثيرون منهم أنه الحزب الوحيد الذى لديه الخبرة والاستقرار الكافيان لاجادة الحكم ولأن حزب الماباى كبير وقوى أيضا فغالبا ماينظر اليه كأنسب وسيلة لتحقيق المصالح الشخصية والجماعية . ويأتى المزيد من التأييد ممن يميلون الى تأييد حزب معارض ، لو وجد لأحدها فرصة حقيقية لهزيمة الماباى . وأخيرا فهناك من ينجذبون الى الحزب بسبب برنامجه ، وهذا البرنامج مبنى على الجمع المفكك بين الصهيونية والاشتراكية الديموقراطية ، وكلا العنصرين غير واضحين ، الى حد ما ، مثل عدم وضوح العلاقة بينهما . ففى السنوات السابقة للاستقلال ، كانت الصهيونية تعنى النهضة القومية روحيا وسياسيا ، كما كانت الاشتراكية تعنى تدعيم القطاع التعاونى للاقتصاد . وكانت كل فكرة تعزز الاخرى حيث أن القوة الظاهرة للقطاع التعاونى كانت دليلا على الاستعداد للاستقلال السياسى ، حيث كان نموه يشير الى قيام قيم اجتماعية جديدة . كذلك فقد ساد الاعتقاد بأن تقدم التطور الاشتراكى يعتمد على تقرير المصير القومى ، وعلى قدرة الهيئات العامة على اتخاذ القرارات الحاسمة نيابة عن المجتمع كله ، وبالتالى فقد جاوز المجتمعات الاشتراكية الطوعية الاكثر تواضعا الى دولة اشتراكية كاملة ولذلك كان ينظر الى العلاقة بين الصهيونية والاشتراكية على أنها علاقة عضوية .

وقد قلب الاستقلال هذه العلاقة الاساسية رأسا على عقب ، وكانت قد بدأت في الضعف خلال السنوات الاخيرة للانتداب، أولا ، لأن الجيل الاسرائيلي الجديد — كما رأينا من قبل — أصبح يفسر الصهيونية كمرادف للقومية الاسرائيلية : الدفاع القومي والتنمية الاقتصادية وما أشبه . ومع الاقلال من التأكيد على النهضة الروحانية ، لم تعد الصهيونية تشير ، بنفس درجة الوضوح، الى الاشتراكية . وثانيا لأن أهمية الاشتراكية بالنسبة لاقتصاد نام يواجه احتياجات انسانية ماسة لم تكن واضحة بالمرة . فاذا استلزمت العمالة الكاملة استثمار رأسمال كبير مثلا وكان هذا الرأسمال لا يتوافر الا في القطاع الخاص، ألم يكن هدف العمالة الكاملة مرجحا على هدف الملكية العامة عندئذ ؟ ان التخطيط لابأس به وبرامج الخدمة الاجتماعية لابأس بها كذلك ، أما العقيدة الاشتراكية الارثوذكسية ، وخصوصا لذاتها فلا (١٠) .

و"لا" هنا عليها قيود : ذلك أن بعض أعضاء الماباي وبعض هيئات ظلوا ملتزمين بالصهيونية العمالية الارثوذكسية على الصورة التي تعرف عن الاشتراكية والصهيونية منذ أن ندمجتا سويا ، ولكن الآخرين وخصوصا أبناء الجيل الأحدث يتأثرون بالزيادة الضخمة في الانتاج القومي أكثر من تأثرهم بتأسيس مستعمرة كيبوتز جديدة . وحتى بين زعماء الحزب من المهاجرين القدامى ، وخصوصا ممن تولوا مراكز وزارية ، أصبحت المعايير التي تقاس بها التنمية القومية تميل تدريجيا نحو المجال الاقتصادي بعيدا عن المجال الاخلاقي . وقد انفصل الماركسيون المتشددون عن الماباي خلال الأربعينات ، وكان بين من بقوا كثيرون ممن كانوا يرون أن الحكم الذاتي المستقل أعظم أهمية من عودة الميلاد الروحي ، أو انه جزء لاينفصل عنه .

ومع ذلك ،فان التأكيد النسبي الذي يعطى للتنمية الاقتصادية في حد ذاتها ،بمقارنتها بالتنمية الاشتراكية ، مازال مصدرا رئيسيا للتوتر داخل الماباي ويتشابك مع التوترات بين الاجيال التي سبق أن تحدثنا عنها ،ومع الانقسام بين أولئك الذين تتجه ميولهم للدولة وأولئك الذين يرتبطون أساسا بالمجتمع التعاوني . وأبرز مثال لهذه التوترات ذلك الحوار المتكرر بين الهستدروت الذي يسعى الى تحقيق ارتفاع مباشر ومثير في مستوى معيشة العمال ،ويدافع بغيرة عن مركزه كأكبر قوة اقتصادية في البلاد — وبين الحكومة التي تميل عموما الى رفع مستوى المعيشة بزيادة معدل التنمية الاقتصادية ،وتصر على حقها الخاص في تشكيل سياسة اقتصادية قومية . ويكون الحوار في العادة بين كبار الموظفين في وزارة الاقتصاد وبين زعماء الهستدروت ، في حين يقوم وزراء حزب ماباي بدور الوسطاء .

وبالرغم من أن العادة جرت بأن تنتصر هيئات الدولة خلال هذا الحوار (باستثناء مسألة رفع الاجور الاساسية) الا أن الأمر يتطلب كميات هائلة من الحلول الوسط لاسترضاء المدافعين عن موقفهم وللمحافظة على تماسك الماباي واجماع الرأي القومي العام . وهكذا اكتسب الاقتصاد صفة غريبة المزيج (أشبه بالثوب المرقع) ، ذات مخططات اقتصادية معقولة جدا ، تلازمها مبادئ غير اقتصادية على وجه العموم . وعندما نناقش مشاكل السياسة التي تؤثر في اقتصاد اسرائيل فسوف نعود الى ساحة هذه المشكلة .

أما بالنسبة لسياسة حزب الماباي الخارجية فان موقفه الرسمي هو " عدم الارتباط " ولكن ميوله غربية بشكل قاطع (والغرض من احتفاظه بتلك الواجهة المحايدة أساسه تفادي المجازفة برضاء الجالية اليهودية الضخمة في الاتحاد السوفييتي اكثر من توقع أي تخفيف ملموس في الموقف الروسي المعادي لاسرائيل) .

وأما بالنسبة لمدى توافر فرص اختيار السياسة المتعلقة بالنزاع العربي - الاسرائيلي فان مابای يتخذ موقفا معتدلا نوعا ما فهو يرصد استثمارات ضخمة للدفاع القومي ويلتزم التزاما عاما - وان لم يكن متشددا تماما - بتفادى الحرب الوقائية (وبالطبع كانت حملة سيناء عام ١٩٥٦ استثناء كبيرا وتشير الى حدود ذلك الالتزام) والاستعداد لاجراء مفاوضات للصلح ، مع تحفظات .

كذلك يقف المابای " فی منتصف الطريق " بالنسبة لقضايا أخرى . وسواء كان ذلك بسبب كبر حجمه أو بسبب كونه أكثر أحزاب اسرائيل تعددا (وهذا السبب نتيجة كبر حجمه) ، أو كان راجعا الى التأثير المهدئ لممارسة السلطة أو الى منطق مركزه بالنسبة للصورة السياسية ، أو راجعا لسبب آخر غاية فی البساطة وهو ميول زعمائه الشخصية فان ذلك شیء لا يعرفه أحد . ولكن بالنسبة لعدد من المسائل - مثل المشكلة الدينية الداخلية ، وسلطة الهستدروت ، والتنمية الاقتصادية - فقد كان المابای دائما حزب الحل الوسط المجمع ، وقد كانت النتيجة الحتمية لذلك هی فقدانه لكثير من حماسه السابق ، ويعتبر ذلك بالنسبة للمضمون الاسرائيلى بكل تأكيده على الايديولوجية - أزمة معنى ، ولكن ليس مجرد جاذبية السلطة وحدها ، ولا فعالية التوصل الى حلول وسط ، هو المادة المكونة للشعارات القوية أو التصورات النارية .

ولاتزال هناك أزمات أخرى - ربما تكون أشد خطورة - تقلق حزب المابای وأبرزها مشكلة انتقال الزعامة واختيار الزعماء داخل الحزب ، وسوف نقول الكثير عنها فی فصل آخر من الكتاب (١١) . أما أكثرها مرارة ، بين عامی ١٩٦٠ ، ١٩٦٥

على الأقل ، فقد كانت قضية لافون ، وكانت في حد ذاتها عرضا وأرهاصا لنشوب صراعات أخرى (١٢) .

وان أكثر هذه الصراعات تكرارا هو توزع المصلحة والهدف بين زعامة حزب الماباى في الهستدروت وزعامته في الحكومة ، وبسبب مركز الحزب في البلاد ، فان لهذا الأمر بالاضافة الى مصادر التوترات الاخرى داخل الحزب - أهمية كبرى بالنسبة للنظام السياسى ككل ، ان العواقب العامة لأزمة داخلية داخل حزب حيروت أو مابام لا يمكن مقارنتها ، بأى حال ، بتلك التى تنتج عن أى خلخلة أو فوضى داخل حزب الماباى ، وقد بلغت الخلخلة ذروتها داخل الماباى فى بداية الستينات مؤدية ، فى النهاية ، الى استقالة أو طرد (" أنت مطرود " .. " أنا مستقيل ") عدد من أبرز الزعماء بما فيهم " بن جوريون " نفسه ، أما الآن فيبدو أن حزب الماباى قد توصل الى حل مشاكله لفترة من الوقت ، ولكن التكهنات الثابتة تكون بلا شك سابقة لأوانها الآن .

ونظرا لما لحزب الماباى من سطوة ، فيمكن القول بأن " البلاد تسير حسبما يسير الحزب " ، ولا يقل عن ذلك صحة القول بأن " حزب الماباى يسير حسبما تسير الدولة " ، وقد تؤثر الأزمات الحزبية فى قدرة الماباى على ادارة شئون الحكم ولكن طالما كان رضاء الجمهور عن هذه الادارة معقولا أمكن للماباى أن يتوقع استمرار تأييد الجماهير له ، وحتى الآن ، فمهما كانت العلاقة بين مشاكل اسرائيل الداخلية وقدرة حزب الماباى على ادارة شئون الحكم فقد كانت تلك العلاقة اما غامضة أو غير ذات أهمية ، ومن ذلك نجد أنه لم يحدث الى الآن أى تحول جماعى عن الماباى ، ومع ذلك يجدر بنا أن نفترض أن يوم الحساب قد يأتى ، وأنه ان لم يستطع حزب الماباى أن يبدأ فى " ترتيب بيته " أو وضع الأمور فى نصابها فقد يبدأ الكثير من السكان فى البحث عن مسكن آخر .

حزب المابام :

ان حزب المابا م اليوم هو خامس أكبر الأحزاب فى اسرائيل • وبالرغم من سيطرته على تسعة مقاعد فقط من المائة والعشرين مقعدا فى البرلمان ، الا أنه يجب أن يعد ضمن الاحزاب الرئيسية لأسباب عدة :

١ــ نظرا لأن أحزاب اسرائيل مجزأة بصورة كبيرة فان تسعة أعضاء فى البرلمان يكونون تماما لا ظهار الفرق بين ائتلاف قابل للاستمرار وآخر غير مستقر • وقد ضم كل ائتلاف فى تاريخ الدولة حزبين على الأقل ، وأحيانا أكثر لا يمثلها أكثر من تسعة أعضاء بل وأقل من ذلك أيضا •

٢ــ أن مابام أحد حزبين يمكن لحزب الماباى أن يندمج معهما نظريا لتكوين حزب اشتراكى موحد، وحيث ان اندماج الاحزاب (وخصوصا وحدة جبهة العمال) قد نال الكثير من الاهتمام فى اسرائيل فى السنوات الأخيرة فان ذلك يجعل للمابام أهمية كبرى •

٣ــ أن نسبة الاصوات التى حصل عليها فى انتخابات الأعوام الأربعة الأخيرة لم تتغير تقريبا [١٣] • وتتركز قوته الاساسية فى حركة كيبوتز آرتزى التى يستمد منها مابام ٢٠٪ من أصواته الانتخابية [١٤] •

٤ــ وبوصفه حزبا يرتكز على الكيبوتز فانه لايزال متمسكا بايديولوجية العمل الرائد • وحيث أن ذلك التقليد مازال ذا أهمية فى ايديولوجية البلاد العامة ، فان التزام المابام به يفيد الحزب ، كما أنه يزيد من أهميته •

٥ـ وباستثناء الحزب الشيوعي فان مابام هو الحزب الرئيسي في البلاد الـذي تبنى مصالح الاقلية العربية ، وقبل الاستقلال ،كان حزب مابام يطالب بدولة مزدوجة القومية ، ويفضلها على فكرة التقسيم.أما موقفه الحالي فيحبـذ تخفيف القيود المفروضة على العرب ،وينادي بزيادة الاهتمام بادماج الاقلية العربية ،فيمكس بذلك موقفه السابق من العرب ، كذلك تزيد الحقائق السياسية الجديدة من تشجيعه على ذلك الموقف ،حيث أن برنامج حزب مابام السياسي قد كسب له تأييدا بارزا بين الناخبين العرب (١٥) .

٦ـ بالرغم من عدم أهمية حزب مابام النسبية في البرلمان ، فانه أحد أحـزاب الهستدروت الرئيسية الثلاثة ، ونظرا لأهمية الهستدروت فان قوة الحـزب داخل هذه المؤسسة تجعل حزبا مهما بطريقة أوتوماتيكية .

وقد أسس حزب مابام عام ١٩٤٨ كائتلاف لمجموعات جناح اليسار والتي تركت حزب ماباي وللماركسيين الأكثر أرثوذكسية (هاشومير هاتزاير) ممن ظلوا خارج ائتلاف ماباي الأصلي سنة ١٩٢٩ ، وبالرغم من ظهوره في انتخابات عام ١٩٤٩ كثاني أكبر الاحزاب في الدولة ،وفي انتخابات عام ١٩٥١ كثالثها ،الا أنه لم يكن ائتلافـا مستقرا الى حد كبير ، فقد كان لكل مجموعة رئيسية حركة الكيبوتز الخاصة بهـا مما سبب الكثير من التوتر داخل الحزب الجديد.كذلك كان لكل منها التزامهـا الايديولوجي الخاص، ولكن أهم مافي الأمر كان مشكلة الاتحاد السوفييتي ، وقـد أدت عدة أحداث ـ تبدأ بمحاكمات براغ سنة ١٩٥١ وتنتهي " بمحاكمة الطبيـب" (The Doctor's Trial) سنة ١٩٥٣ ـ الى وضوح حقيقة اتخـاذ الاتحاد السوفييتي لموقف شديد العداء تجاه اسرائيل ، علاوة على تبنيه سياسـة

مناهضة السامية . وقد اضطر ذلك حزب مابام الى اعادة النظر فى اتجاهاته التى كانت موالية للسوفييت ، وقد كانت تلك اصابة فادحة بالنسبة للحزب حيث أن اتجاهاتـــه الداخليـــة كانـــت جـزءا عضويـا من نظرته الفلسفية الى العالم والتاريـــخ (Wettanchauung) . وقد تمزق الحزب أثناء كفاحه لحل تلك المشكلة الذى استغرق عدة سنوات ، فانشق عنه الجناح اليسارى لينضم نهائيا الـــى الحزب الشيوعى بعد أن أزعجه اتجاه المابام الى موقف محايد . أما الجناح اليمينى المكون من أعضاء مابای السابقين فقد انشقوا عن الحزب لينشئوا حزبا جديدا يقـــع على يسار المابای ويمين المابام ، ولم يبق سوى الذراع السياسى المكون من أعضـــاء الكيبوتز آرتزى — الذراع السياسى للحزب الممثل فى حركة الكيبوتز هاشومير هاتزائير .

ومع ذلك فقد احتفظ حزب مابام بمركزه منذ أن أثخنته جراح أوائل الخمسينـــات وقد كان ازدياد عضوية الكيبوتز به أبطأ من زيادة السكان عامة ، ولكنه احتفـــظ بنسبة ثابتة من الأصوات الانتخابية ، مما يعنى أنه نجح فى اكتساب ناخبين جـــدد كما نجح أيضا فى التوصل الى حل لأكبر مشاكله . فبالرغم من تعاطفه مع الاتحـــاد السوفييتى ، الا أن سياسته الرسمية هى الحياد غير المنحاز . وعلاوة على ذلـــك فقد أصبحت اتجاهاته الدولية أقل أهمية الى درجة ما ، مما مكن الحزب من تأكيـــد موقفه الكفاحى الاشتراكى فى الجبهة الداخلية ، بدون استعداء الناخبين مـــن يعارضى سياسته الخارجية . وبالرغم من عدم وجود أى احتمال لحدوث زيادة مثـــيرة فى حجمه ، الا أن سلطانه فى الهستدروت وفى البرلمان — بالاضافة الى حركـــة الكيبوتز الخاصة به — يوفر له الاستقرار والمنافع أيضا . وعلاوة على ذلك فقد كـــان الحزب شريكا مؤقتا فى حكومة اسرائيل الائتلافية ، مما ساعده على جنى المزيد مـــن الفوائد المباشرة . وعلى أية حال ، فان الطابع العام للحزب تغلب عليه الايديولوجية أكثر من السياسة . وقد يخالفنا زعماؤه فى هذا الرأى ، ولكن مؤيديه فى الكيبوتـــز

يفضلون النقاء الفكرى على السلطة . ومن هنا لم يكن لتجربته الطويلة كحزب معارض مايتنظر أن تسببه من شعور بالضيق والقنوط لحزب أكثر ميلا للسلطة (١٦) .

حزب أحدوت أفوداه (١٧) :

فى عام ١٩٦٥ " انحاز " حزب أحدوت أفوداه الى جانب حزب مابای . وقد احتفظ الحزب بكيانه الخاص ، ولكنه كان يعمل الى جانب المابای فى أثناء الانتخابات وفى الحكومة (١٨) . وحتى ذلك الوقت كان أحدوت أفوداه يتوسط المابای والمابام فى الصورة الايديولوجية كحزب أصغر قليلا من حزب المابام . وقد كان ذلك الحزب جزءا من حزب مابای ، ولكنه انفصل عنه في عام ١٩٤٠ لأسباب ايديولوجية وشخصية وانضم بعد ذلك الى حزب مابام وفى أعقاب أزمة حزب مابام فى أوائل الخمسينات انفصل عن ذلك الحزب أيضا لينشىء منظمة سياسية مستقلة . وهو يشبه المابام فى أنه يستمد معظم قوته من حركة الكيبوتز المؤيدة له كما يشبهه أيضا فى تمكنه من الاحتفاظ بقوته بالرغم من تزايد السكان (١٩) . كذلك يشترك ، هو الاخر ، فى السيطرة على الهستدروت ، كما ورث ، هو الآخر ، تقليد " العمل الرائد " . أما مايميز أحدوت أفوداه عن مابام فهو ، أساسا ، موقفه الايديولوجى الذى يقل عنه كثيرا فى أرثوذكسيته الماركسية ، كما يقل عنه كثيرا فى اهتمامه بمشكلة الأقلية العربية (٢٠) . والواقع أن حزب أحدوت أفوداه هو الحزب الوحيد من بين أحزاب اليسار الذى يتخذ موقفا متشددا من العالم العربى عموما ، فهو يشجع سياسة خارجية أكثر عدوانية فى الشرق الأوسط ، ولايفوقه فى الدعوة الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات العنيفة الا أقصى أحزاب اسرائيل يمينية ، وهو حزب حيروت (٢١) .

وعلى خلاف كل من حزبى مابام ومابای ، فان أكبر زعامات أحدوت أفوداه من الشباب الأصغر فى السن نسبيا ، كما أنه يضم عددا كبيرا من صفوة " الهاجاناه "

منظمة مجتمع اليشوف الدفاعية . وتنتظم هذه الصفوة المختارة فى فرقة خاصة تحمل اسم " البالماخ " ، وقد نمت فى هذه الصفوة روح عالية من التضامن والعصبية ، مما أقلق المسئولين عن خطط الدفاع من حزب الماباى خشية أن يرفض هؤلاء قبول نظام الجيش المركزى . وقد ازداد قلقهم بسبب ادراكهم أن بين زعماء البالماخ عددا من أكثر أبطال اسرائيل فعالية ورومانسية . ونتيجة لذلك ، أمر " بن جوريون " بوصفه وزير الدفاع ، بتصفية البالماخ عند نهاية حرب الاستقلال . وسواء كان ذلك القرار سببه أيضا الخوف من منافسة سياسية داخل الجيش ، حيث أن حزب أحدوت أفوداه كان مسيطرا على البالماخ ، أو أن سببه كان الخوف من سيطرة حزب معارض على أكثر فروع الجيش اثارة ، أو أنه يرجع — بصفة أعم — الى رغبة فى تحييد الجيش سياسيا ، فمن العسير التأكد من حقيقة السبب . وقد أدى فرض تلك التصفية الى شعور بالمرارة الشديدة بين أعضاء أحدوت أفوداه ، وفسره الكثيرون منهم على أنه انتقام سياسى من قبل الماباى . وقد زاد من الشعور بالاستياء رفض ماباى السماح لأحدوت أفوداه بممارسة أية سلطة على وزارة الدفاع ، التى شعر أحدوت أفوداه بأن تجربة البالماخ تؤهله لادارتها بصفة خاصة .

كذلك أدت عوامل أخرى الى ذلك الانفصال الطويل بين الحزبين ، فصار من التقليدى أن يمارس أحدوت أفوداه حزب الماباى — أو على الأقل جناحه اليمينى ، فى اصرار على زيادة الالتزام الاشتراكى . وقد تم التعبير عن ذلك فى صورة الهجوم على سياسة الماباى الاقتصادية ، وبالأخص على محاولة الحزب تفادى التضخم بتجميد الاجور ، اذ أن أحدوت أفوداه كان شريك الماباى الائتلافى حتى قبل اندماج الاحزاب الاخير ، فقد أمكن منعه من معارضة الماباى فى البرلمان بطريقة فعالة ولكن ماله من قسط فى زعامة الهستدروت سمح له بتشجيع مطالبة العمال بزيادة أجورهم . وحتى الآن فانه يحتفظ لنفسه بدرجة عالية من سياسة الحكم الذاتى داخل

الهستدروت كما أفلح في الحفاظ على احترام الذات من الناحية الايديولوجيـــــة بالاضافة الى تحقيق مكاسب سياسية ـ بينما تفوت عليه مشاركته للماباى تعريض برنامجه السياسي للخطر في عدة مجالات ، وبذلك يكسب أفضل ما في الناحيتين : الاخلاص للمبادئ وقسطا من الاسهام في تشكيل سياسة الحكومة ووصايتها .

الحزب الشيوعى :

ان الحزب الشيوعى الاسرائيلى يشذ عن القياس المعتاد بعض الشئ ، فهـــو الحزب السياسى الوحيد فى اسرائيل الذى يعادى الصهيونية صراحة ، مرددا أصداء موقف الاتحاد السوفييتى تجاه مشاكل الشرق الاوسط ، وقبل الاستقلال ، كان ذلـك يعنى تحبيذ انشاء دولة عربية مستقلة داخل فلسطين ، أما بعد الاستقلال فقد أصبح يعنى اتهام سياسة اسرائيل فى كل صراع مباشر مع الدول العربية ، وقد كان ينظـر الى جميع محاولات اليهود على أنها قناع لاخفاء خطط الاستعمار البريطانى والأمريكى . ومن فترة قصيرة جدا انقسم الحزب الى جناحين ، يميل أحدهما ناحية موسكو ، وأغلبـه من اليهود ، ويميل الآخر تجاه بكين ومعظمه من العرب .

وقد ظهرت قبل ذلك الانقسام دلائل على محاولة الحزب أن يشجع موسكو علـى اتخاذ موقف أكثر ودا تجاه اسرائيل ، ولكن لم يظهر أى دليل على نجاح تلــك المحاولة ويظل الحزب ـ أو الحزبان ـ خارج مجرى الحوار الايديولوجى الاسرائيلى تماما ، وبذلك فلا يوجد له أى تأثير ، تقريبا ، على الحياة العامة ، فلم يشترك أبـدا فى أى من الائتلافات الحاكمة ، كما أن ممثليه فى البرلمان لا يسمح لهم بشغل مقاعـد فى اللجان المختصة بمسائل الأمن الحساسة . وفى عام ١٩٥٥ ، أى عندما وصلـت قوة الحزب المتحد الى قمتها ، لم يحصل الحزب الا على ٤ر٥١ ٪ من الأصـوات الانتخابيـة .

ان تأييد ذلك الحزب بمشر يصعب التعرف عليه . بالرغم من أنه ليس حزبا من المعتنقين لنظرية ايديولوجية معينة فحسب . ويبدو أن أغلب الناخبين الشيوعيين من سكان الأحياء الفقيرة بالمدن ، كما أن كتلة كبيرة منهم من العرب . وفي عام ١٩٥٩ - وقد كان أسوأ أعوام الحزب حظا في الاصوات الانتخابية - كان أكثر من ٣٠٪ من ناخبيه من العرب [٢٢] . وحيث أن خطة الحزب السياسية موالية للعرب بشكل قاطع ، فان اعتماده الكبير على تأييدهم يبدو أمرا طبيعيا . ومع ذلك فبالرغم من أن الكثيرين من الناخبين الشيوعيين من العرب ، الا أن نسبة قليلة من السكان العرب من الناخبين الشيوعيين وهنا أيضا لاتتوافر لنا المعلومات الدقيقة ، ولكن أقل من ٢٠٪ من العرب ، وربما حوالى ١٥٪ ، أعطوا أصواتهم للحزب الشيوعي في انتخابات عام ١٩٥٩ [٢٣] . وهكذا ، فان جاذبية الحزب الشيوعي ليست قوية جدا ، حتى حيث توجد لها أقوى الأصداء . أما بين الناخبين من اليهود فليس للشيوعيين مناطق قوة معينة ، كما أنهم يتمتعون بتأييد انتخابي ضئيل [٢٤] . والواقع أنه ليس هناك سوى سببين فقط لوضعهم ضمن قائمة الاحزاب الرئيسية :

١ - أنهم يجذبون بالفعل عددا كبيرا من الناخبين العرب .

٢ - كما أنهم تمكنوا - عندما وصلوا الى قمة قوتهم - من السيطرة على ٥٪ من المقاعد البرلمانية .

وعلى أية حال فحيث أن أغلبية الناخبين العرب ينبذونهم وأن عدد المقاعد البرلمانية التي يحتلونها تبالغ من أهميتهم في تشكيل السياسة ، بالرغم من ضآلتها ، فحتى هذين السببين يفتقدان الى أية قوة تؤثر في تسيير الاحداث .

حزب حيروت:

إن من أسباب ضآلة مايحرزه الحزب الشيوعي من نجاح أن حزب حيروت قد سبقه في الاستيلاء على معظم ماله من جاذبية بوصفه الحزب المعبر عن احتجاج سكان المدن ، واذا كان المابای هو حزب المؤسسة الحاكمة ، فان حيروت هو حزب المعارضة ، وقد ظلت أحزاب أخرى في موقف المعارضة لفترات طويلة ، ولكن حزب حيروت وحده (باستثناء الحزب الشيوعي) لم يشترك أبدا في الحكم ، وقد اتخذت أحزاب أخرى موقف الانتقاد الشديد لسياسات الحكومة ، واتهمت المابای بارتكاب أنواع الحماقات الفاحشة والاعمال المنكرة ، ولكن واحدا منها لم يغلف انتقاداته بكل ذلك الاصرار والشمول أو كل تلك المرارة ، ومقياس نجاح حزب حيروت يتركز في مضاعفته للناخبين المؤيدين بين عامی ١٩٥١ ، ١٩٦١ فانتقل من نسبة ٦ر٤ ٪ من الأصوات الى نسبة ٧٦ر١٣٪ ، وقد كان ثانی أكبر الاحزاب في اسرائيل بين عامی ١٩٥٥ ، ١٩٦٥ ويساوی حزبی المابام وأحدوت أفوداه معا ، ويسيطر على سبعة عشر مقعدا برلمانيا من المائة والعشرين مقعدا ، وفي عام ١٩٦٥ انضم الى جناح يمين - الوسط (الأكثر اعتدالا) لحزب الاحرار ، وقد سمی الائتلاف الجديد بكتلة جحال ، ونجح في الحصول على ٢١٪ من الأصوات الانتخابية في عام ١٩٦٥ - أی أكثر من ضعف عدد الأصوات التي حصل عليها بوصفه الحزب الذی يحتل المركز الثالث.

ويمتد تاريخ حزب حيروت الى عام ١٩٢٥ ، عندما أسس واحد من أبرز زعماء الصهيونية العالمية ، وهو فلاديمير جابوتنسكی ، " الحركة الاصلاحية " . وكان برنامج الاصلاحيين العام كما تطور يدعو الى تغيير سياسة الصهيونية القائمة على التصالح مع بريطانيا والنزوع الى مساعدتها وضبط النفس تجاه العرب ، ويؤكد - بدلا من ذلك - زيادة الاعتماد على النفس والروح العسكرية ومعارضة السلطة البريطانية علانية . وقد كان ماأثار سخط " الاصلاحيين "

على وجه التحديد ، هو اقامة بريطانيا لدولة شرق الاردن من أراضى فلسطين (وهى التى أصبحت بعد ذلك المملكة الاردنية الهاشمية) .

وقد ترك " الاصلاحيون " المنظمة الصهيونية العالمية نهائيا بعد مرور عشرين سنة على تأسيس حركتهم. وبالرغم من أن الحركة الاصلاحية كانت منظمة ذات أهمية الا أن أعمال المنظمة الصهيونية العالمية الأوضح والاكثر اثارة ومجهودات عناصر اليشوف حجبت جهودها ، فلم تستطع لفت الانظار اليها قبل عام ١٩٣٠ ، فقد أسس بعض زعمائها البارزين " الارجون زفاى ليومى " وهى منظمة عسكرية صغيرة يزيد موقفها عسكرية ضد كل من العرب والبريطانيين عن موقف منظمة الدفاع الرسمية التابعة لليشوف والمعروفة باسم " الهاجاناه " .

أحدث نشوب الحرب العالمية الثانية ثغرة فى موقف الارجون المعادى لبريطانيا حيث أن معاداة بريطانيا تعنى انتصار النازيين بالاطمئنان ولم يواصل النشاط المعادى للبريطانيين أثناء الحرب سوى فرع صغير وغير فعال نسبيا من الارجون ولكن المنظمة استأنفت نشاطها وضاعفته بعد انتهاء الحرب وتحول اهتمام العالم الى مشكلة فلسطين ، فبدأت الاشتراك فى عمليات تخريب منظمة ضد السلطة البريطانية ، واكتسبت جرأتها وعنفها مناصرين جددا وكثيرا من التعاطف .وبتحقيق الاستقلال كانت الارجون قد أصبحت قوة عسكرية بارزة . ومع أنها كانت أصغر بكثير من الهاجاناه ، الا أن جنودها كانوا أكثر تنظيما وأفضل تسليحا . كذلك كان الكثيرون منهم يتخذون موقفا أكثر تطرفا فى عداء العرب مما كانت هيئات الدولة الجديدة الرسمية على استعداد لقبوله .

وخلال حرب الاستقلال ، أظهرت عدة حوادث مدى صعوبة تنسيق عمل جيشين منفصلين أثناء القيام بحرب واحدة . وفى النهاية ، فرضت حكومة " بن جوريون "تصفية

منظمة الارجون ونظرا لأن الحرب كانت وشيكة الانتهاء تقريبا ، فلم يكن للتصفية سوى تأثير عسكرى طفيف ، ولكنها كانت حدثا سياسيا من الضخامة بمكان كبير فانها لم تظهر قدرة الحكومة الجديدة على فرض النظام الداخلى فحسب ، ولكنها شكلت أيضا نقطة تجمع لحزب سياسى جديد ، وقد كان ذلك حزب حيروت ، وقد ظل هذا الحزب مخلصا لخطة الاصلاحيين السياسية من الناحية الايديولوجية ،محولا اهتمامه عن البريطانيين - بعد أن رحلوا - الى العرب داخل وخارج اسرائيل. كذلك أصر على انهاء سلطة الهستدروت والاتجاهات الاشتراكية للحكومة ، وأولوية العناصر العمالية فى سياسة الحكومة ومؤسساتها ، وحيث أن حزب الماباى كان له الدور الاول فى بناء سياسة الحكومة فقد شنت معظم هجمات حزب حيروت عليه . وحيث أن حزب الماباى وبن جوريون على وجه التحديد كانا سبب تحطيم منظمة الارجون ، فقد كانت تلك الهجمات تتسم بروح انتقامية واضحة .

ولكن الانتقادات ترد بنفس الطريقة ،فمن وجهة نظر الماباى يعتبر حيروت حزبا سياسيا لايعرف المسئولية ، فقد أظهر ذلك باندفاعه خارج المنظمة الصهيونية ، ثم بتنظيمه للاعمال الارهابية ،ثم بشن حربه الخاصة ،ثم استمراره فى اظهار عدم معرفته للمسئولية فى أسلوب معارضته فى البرلمان وما دتها .

وتنبع معظم تلك المرارة القائمة بين الماباى وحيروت من ذلك العداء الشخصى والفكرى بين " مناحم بيجين " زعيم حزب حيروت منذ تأسيسه كحزب سياسى وحتى عام ١٩٦٦ و" دافيد بن جوريون" زعيم حزب الماباى حتى عام ١٩٦٣ ، فكل منهما يسايرهاتهام الاخر أمام العامة والخاصة بحقد غيرعادى ،حتى بالمقاييس الاسرائيلية وقد أدى ترك بن جوريون لرئاسة الماباى الى تنقية الجو ،مما يجعل قبول الاحزاب الاخرى لحزب حيروت كمتحدث مسئول امرا سهل التحقيق ، ومن

المحتمل جدا أنه ماكان يمكن تكوين حزب جحال الائتلافى الجديد لو أن " بن جوريون " كان قد احتفظ بسلطته السياسية كاملة ، فقد كان أستاذا فى دفع حزب حيروت الى ذلك النوع المعين من الثورات العاطفية الذى يجعل الاحزاب الأخرى تنظر اليه بتشكك (٢٥) .

وبالرغم من ذلك فانه من المبالغة ، فى تأثير ذلك الخلاف الشخصى، أن نتنبأ بأن جميع الاحزاب الاخرى ستتقبل حيروت تماما بسبب رحيل " بن جوريون " فقط . وقد تتلاشى جميع الصور السلبية التى عوقلت سير حيروت اذا صمد الائتلاف الجديد، ولكن أعضاء حيروت المتحمسين مازالوا يتخذون موقفا ايديولوجيا يعتبره الكثيرون مهتزا على أحسن الفروض ، أو أحمق وخطيرا ، على أسوئها . وبرنامج الحزب السياسى يرفض فكرة العمل الرائد التى تربى على أساسها الكثيرون من زعماء الاحزاب الأخرى، وأهم مافى الأمر أن حزب حيروت يتوجه بندائه الى المعدمين من سكان المدن والى المهاجرين القادمين من الشرق الاوسط وأبنائهم ، ساعيا الى ايجاد وسيلة للتعبير عن قلقهم وضيقهم .

وبهذا لايظل الحزب مملكة خاصة لقدامى الاصلاحيين من قدامى رجال الارجون فان قوته الجديدة ترتكز بشدة على المهاجرين ممن لم يتم امتصاصهم بعد . ومن غريب المصادفات أن خطة حيروت السياسية لم تتطلب سوى القليل من التكيف لكى تجذب هذه المجموعة ، فبتأكيده لموقفه العسكرى تجاه الدول العربية وجد له صدى فى نفوس مهاجرى الشرق الاوسط ممن يرغبون فى الانفصال عن مساقط رؤوسهم وبتأكيده لعدائه لحزب الماباى وجد له صدى فى نفوس من يشعرون بالحقد لبقائهم على الهامش فى وطنهم الجديد ، وميله نحو الحكم الفردى وجد له صدى فى نفوس الكثيرين من المهاجرين ممن لهم ميل سابق للحكم الدكتاتورى (٢٦) .

ولا يهم أن برنامج حيروت السياسى يدعو كذلك الى انهاء سيطرة الهستدروت الاقتصادية واعادة الاتجاه نحو سياسة اقتصادية حرة ، وهى مواقف يرفضها بسبب مضامينها العملية ، على الاقل معظم مهاجرى الشرق الاوسط (٢٧) ، فقوة دفع الحزب — كما يرونها — تكمن فى مجال آخر .

كذلك يعتمد حزب حيروت ، فى بعض تأييده ، على الطبقة المتوسطة الأكثر استقرارا من بين سكان المدن فبعضهم يؤيدونه بسبب اعتراضهم على دولة الرفاهية وبعضهم الآخر بسبب السخط العام على حزب ماباى وذلك لان قوام معارضة الجناح اليمينى أقل أهمية مما ذكرنا وقبل اندماج حزب الاحرار مع حزب حيروت كان أمام مثل هؤلاء الاشخاص فرصة أخرى للاختيار السياسى اذ أن حيروت يشارك حزب الأحرار فى يمين اسرائيل السياسى .

حزب الأحرار :

لقد كان حزب الأحرار قصير العمر الى حد كبير فقد تأسس فى عام ١٩٦١ باندماج الحزبين التقدمى والصهيونى العام ، ثم انضم الى حزب حيروت فى عام ١٩٦٥ ليؤلفا معا حزب جحال ، وبذلك فانه لم يشترك الا فى الانتخابات العامة التى جرت عام ١٩٦١ ، وفى تلك الانتخابات تساوى مع حيروت فى المركز الثانى ، وحصل على ١٤٪ من الأصوات تقريبا . وحيث أن الحزبين السابقين حصلا على ٨ر١٠٪ من الأصوات فقط فى عام ١٩٥٩ ، فقد ظهر أن الاندماج كان ناجحا بمقياس رد الفعل الشعبى على الأقل ، ولكن الحزب الموحد كان يأمل فى شىء أفضل من ذلك . وقد كانت معظم المكاسب التى حققها على حساب حزب الماباى وليس حزب حيروت ، الذى كان مؤسسوه قد خططوا لجعله قلب المعارضة وكان زعماء الاحرار يعتقدون أن حزبهم هو البديل الوحيد للماباى ولكن — بدلا من ذلك وجدوا أنفسهم يشاركون حيروت

المعارضة بالأسلوب التقليدى لسياسة المعارضة الاسرائيلية المجزأة.وبسبعة عشر مقعدا فى البرلمان وجد الاحرار أنهم لايستطيعون أن يتوسطوا الائتلاف الحاكم ،ولا أن يبرزوا فى المعارضة ،ولاحتى أن يصيروا أكثر معارضى الماباى ظهورا .

وقد كان من المحتمل أن يتغير الموقف لو توافر للأحرار وقت يقيمون فيه لأنفسهم تاريخا وكيانا خاصا فى نظر الناخبين ،ولكن اندماج حيروت والأحرار وضع نهاية لذلك الاحتمال . ولم يكن الأحرار خلال تاريخهم القصير الأمد الا مجرد حزب آخر يفتقر الى التميز الذى كان من الممكن أن تضفيه عليه قوته وتبرزه فى المعارضة .

ولم يخل تاريخ الحزب أو اندماجه الأخير من المشاكل ، فقد ظل مقسما بين جناحى اليمين واليسار ،ويشبه الأول الحزب الصهيونى العام ،ويشبه الثانى حزب التقدميين . والواقع أن معظم من كانوا تقدميين قد تركوا الاتحاد الجديد فى حزب جحال ليعيدوا تنظيم أنفسهم باسم "حزب الأحرار المستقل".

وتكمن أهمية الأحرار أساسا فى ارتباطهم بالطبقة المتوسطة الأعلى فى اسرائيل ،فقد مثل الصهاينة العموميون — وهم أكبر المجموعتين فى الحزب — قطاع الأعمال ،وخصوصا صغار رجال الأعمال ،وأما التقدميون — وقد كانوا حتى اتحاد عام ١٩٦١ أعضاء دائمين فى الائتلاف الحاكم — فانهم كانوا حزبا صغيرا مكونا من أصحاب المهن ورجال الفكر فى أوروبا الوسطى من ذوى الميول الاصلاحية ،ويمكن مقارنتهم عموما بحزب الأحرار البريطانى من الناحية الايديولوجية . وبالرغم من صغر حجم ذلك الحزب ، فقد كان له صيت ذائع ومكانة عالية بسبب ما لزعمائه من منزلة وما لطريقتهم الأخلاقية المرفة فى تناول الحياة السياسية من أثر حميد . وعلى

خلاف الصهيونيين العموميين ، فقد اشتركوا في الهستدروت على الرغم من برنامجهم الاصلاحي ، ومن أنهم لم يتخلوا عن فكرة دولة الرفاهية أبدا . والواقع أن اتجاههم الأكثر ايجابية نحو قطاع العمال كان سبب انفصالهم عن الصهيونيين العموميين الذين زاملوهم في الأصل ، وقد كان ذلك في عام ١٩٤٨ ، كما أنهم رفضوا الاندماج في حزب جحال في عام ١٩٦٥ لنفس السبب . وقد ظل الاختلاف في الاتجاهات الأساسية يفصل بين المجموعتين داخل اتحادهما الحزبي الجديد (جحال) ونتيجة لذلك فمن الصعب تحديد موقف حزب الأحرار الايديولوجي الا بالقول بأنه يقع في مكان ما الى يمين الماباي ويسار حيروت (٢٨) .

الأحزاب الدينية :

نصل الآن الى أحزاب اسرائيل الدينية وهي تتميز عن كل هذه الأحزاب التي تناولناها من قبل بالتزامها بفكرة الدولة الدينية الى حد ما . وهناك أربعة من هذه الأحزاب تجمعت ثم أعادت تجمعها بطرائق مختلفة خلال الانتخابات الوطنية الخمسة الماضية ، وهذه الأحزاب هي : " مزراحي " ويمكن تشبيهه تقريبا بحزب الأحرار في ميوله الاقتصادية واتجاهه العام الى الحكم الديني في مسائل الدولة والدين ، و"هابوئيل هامزراحي" — الذي يقترب من قطاع العمال ، ويشبه المابای في نظرته الى المسائل الاقتصادية ، كما يتفق مع حزب مزراحي في العلاقة بين الدولة والدين ، و" أجودات يسرائيل " — ويتكون من جماعة من الأرثوذكس المتطرفين ممن عارضوا قيام الدولة ويصرون الآن على ادماج القانون الديني في السياسات الرسمية ادماجا كاملا ، كما أنهم يرددون سياسة الأحرار الاقتصادية . ثم "بوالي أجودات يسرائيل " — وهو قرين أجودات يسرائيل ذي الاتجاه العمالي (٢٩) .

وقد انضمت هذه المجموعات الأربع في عام ١٩٤٩ في جبهة دينية موحدة فحصلت على ١٢٪ من الأصوات الانتخابية . أما في عام ١٩٥١ فقد انقسمت

على نفسها الى أربع مجموعات مرة أخرى فلم تحصل جميعها الا على أقل من ١١٪ من الأصوات الانتخابية . وقد خرج حزب هابوئيل هامزراحى من الانتخابات كأقوى الأحزاب الأربعة بحصوله على ثمانية مقاعد برلمانية ، بينما حصلت الاحزاب الثلاثة الاخرى مجتمعة على ستة مقاعد فقط . وبالرغم من احتفاظ الأحزاب بمنظماتها منفصلة الا أن مزراحى وهابوئيل هامزراحى تقدما بقائمة انتخابية موحدة في الانتخابات البرلمانية منذ عام ١٩٥٥ ، وقد حصلا على ١٣ر٩٪ من الأصوات الانتخابية فى عام ١٩٥٥ ، و ٨٦ر٩٪ فى عام ١٩٥٩ ، وأصبح الحزب المشترك المعروف باسم الحزب القومى الدينى ثالث أكبر الأحزاب فى الدولة ، ولكنه هبط الى المركز الرابع بعد تشكيل حزب الأحرار فى عام ١٩٦١ بالرغم من احتفاظه بشعبيته عندما حصل على ٨١ر٩٪ من الأصوات الانتخابية . أما فى عام ١٩٦٥ فقد فاز بالمركز الثالث مرة أخرى بعد فوز جحروت والأحرار المندمجين (جحال) بالمركز الثانى .

ويعد حزب هابوئيل هامزراحى أقرب الى حزب الماباى فى سياسته الاقتصادية منه الى الأحزاب الاشتراكية الأخرى لأنه أكبر المجموعتين اللتين يتكون منهما الحزب القومى الدينى وهو يشبه الماباى من حيث القاعدة العريضة لمؤيديه . والحزب القومى الدينى حزب تجميعى ، يستهوى مجموعات شديدة التباين بين جمهرة الناخبين ويشهد بثبات ذلك التأييد ثبات عدد الأصوات التى فاز بها فى الانتخابات الثلاثة الماضية . والواقع أنه ، باستثناء مسألة الدين ، فان الاختلاف الرئيسى بين الحزب القومى الدينى وحزب الماباى هو أن الضغوط الداخلية داخل الاول تنبثق عادة من الجناح اليمينى فى حين تنشأ هذه الضغوط من اليسار داخل حزب الماباى .

وقد كان الحزب القومى الدينى عضوا فى كل ائتلاف حكومى منذ عام ١٩٤٨ . وبمشاركته فى الحكم تمكن من استغلال تأييده للسياسة الحكومية عموما لاكتساب

سلطان واسع على القوانين الدينية . وحيث أن مثل هذه القوانين تتدخل في مجالات لا شأن لها بالحياة الدينية ، مثل نظام الأسرة وادارة الفنادق ، والمواصلات العامة ، فان لسياسات الحزب القومي الديني تأثيرا واسعا كما أنها محل جدال واسع النطاق . ومع كل ذلك فان مطالب الحزب معتدلة نسبيا ، وخصوصا بمقارنتها بمطالب حزبي أجودات .

يبلغ حجم حزبي أجودات معا (أجودات يسرائيل ويوالي أجودات يسرائيل) نصف حجم الحزب القومي الديني . وفي عام ١٩٦٥ حصلا متحدين على ٥٪ من الأصوات الانتخابية ، مما سمح لهما بستة نواب برلمانيين ، ولكنهما ـ كغيرهما من أحزاب اليسار الأصغر حجما ـ لا ترتكز أهميتهما على قوتهما في البرلمان بقدر ما ترتكز على ما يتمتعان به من ولاء مؤيديهما . وباستثناء الشيوعيين لا يحصل أي حزب آخر على مثل ذلك التأييد القليل في مثل هذه الدوائر الانتخابية الكثيرة . (٣٠)
وهكذا فان حزبي أجودات لم يحصلا في انتخابات عام ١٩٥٩ على أية أصوات في حوالي ثلث دوائر الدولة الانتخابية . كذلك لا يوجد حزب آخر أكثر اعتمادا على منطقة واحدة في تأييده ، ففي عام ١٩٥٩ حصل حزبا أجودات على ٢٢٪ من الاصوات الانتخابية من القدس وحدها ، وهي مدينة لم تسهم بأكثر من ١١٪ من الأصوات التي يحصل عليها أي حزب آخر . وداخل مدينة القدس جاء معظم تأييد أجودات من عدة أحياء معينة ، يبرز بينها حي ميه شيعاريم . (٣١)
ان حزبي أجودات ـ وعلى الأخص حزب أجودات يسرائيل ـ هما ملاذ المؤمنين المتدينين في اسرائيل . وكغيرهما من المؤمنين المتدينين في أي مكان لا يمكن قياس قوتهما بالأعداد وحدها أو بما يظهر من علامات القوة السياسية فقوتهما تكمن في تصلبهما السياسي نفسه ، فلم تستطع حكومة من الحكومات أن ترفض مطالب أجودات خشية احراجها باتهامات القسر الديني ، أو تعرضها لأعمال العنف الفعلي ، أو الشك في ممارستها للاضطهاد . كذلك تكمن عبقريتهما السياسية في قدرتهما على تنظيم المظاهرات الجماهيرية واضفاء صورة مثيرة على استشهادهم .

ولاينطبق ذلك بنفس القدر على حزب يؤالى أجودات يسرائيل ، الذى يميزه عن أجودات يسرائيل اتجاهه نحو الحركة العمالية ، كما يميزه عنه تاريخه فى المنظمة الصهيونية ويقربه أكثر من أخلاقيات اسرائيل العامة وتنبع قوته من تأييد المناطق الزراعية المحدودة أكثر من المناطق الأرثوذكسية فى القدس أو تل أبيب . وبفضل مايتمتع به من مزايا فقد تمكن من الاشتراك فى الائتلاف الحكومى بين الحين والآخر ، بينما لم ينجح حزب أجودات يسرائيل فى ذلك منذ سبتمبر عام ١٩٥٢ .

الأحزاب الأخرى :

اننا لم نفرغ بعد من قائمة الاحزاب السياسية الاسرائيلية ، أو حتى من تلك التى تنجح فى انتخاب ممثلين لها فى البرلمان ، ان عدة أحزاب عربية مرتبطة بماباى عادة ، تدخل فى منافسة فى كل انتخاب ومن الطبيعى أن يتم انتخاب أربعة أو خمسة أعضاء عن هذه الأحزاب مجتمعة . وعلاوة على ذلك فان كل انتخاب عام يسفر عن أحزاب جديدة سريعة الزوال ، غالبا ماتبنى على الارتباط العنصرى ، ومع ذلك فمنذ عام ١٩٥١ لم يستطع واحد من هذه الأحزاب أن يفوز بأية مقاعد فى البرلمان .(٣٢)

ويكفينا هذا القدر من التقديم . ان مايهمنا أمره هنا هو تقديم ممثلى الادوار الرئيسية على مسرح السياسة الاسرائيلية ، والاسلوب الدرامى الذى يسيرهم . أما النص الذى يحدد علاقة الممثلين ببعضهم البعض وعلاقتهم بالجمهور فلم يأت دوره بعد .

أهمية الأحزاب :

ان هذا الاهتمام الكبير بأسلوب ومضمون سياسة اسرائيل الايديولوجية مبنى على تأكيد عظم أهمية الأحزاب فى النظام الاسرائيلى .

والآن يجب علينا تفسير هذا التأكيد •

وفى الواقع ، لقد لفت نظر معظم الدارسين لسياسة اسرائيل مدى تكوين الحياة السياسية من نظام الاحزاب وعن طريقه ، حتى أن أحد المراقبين قال: " ان أحزاب اسرائيل تحتل مكانا أبرز وتمارس نفوذا أعظم منه فى أية دولة أخرى ، باستثناء بعض الدول ذات الحزب الواحد "(٣٣). وبالرغم من أن أهمية الدور الرئيسى الذى تلعبه الاحزاب الاسرائيلية قد قلت فى السنوات الاخيرة الا أن اسرائيل مازالت دولة حزبية " Parleinstaat " ـ دولة تقوم على أساس من الأحزاب السياسية •

ولكى نحلل الأدلة على وجهة النظر هذه ، ينبغى أن نذكر سلفا مناقشات التكيف الاجتماعى ـ السياسى ورسم السياسة التى سيرد بيانها فى الفصول التالية • أما فى مرحلتنا هذه فنكتفى عدة أمثلة: (١) تخصص مقاعد فى الائتلاف الحاكم لأعضاء الائتلاف حسب قوتهم البرلمانية • وحيث يكون الائتلاف الحاكم مكونا من عدة أطراف ، بصورة خاصة ، تخلق مراكز وزارية جديدة أو يلغى بعض المراكز القديمة حتى يتحقق التناسق الحزبى (The party key) أو بمعنى آخر يخصص العدد المناسب من الوزارات لكل حزب فى الائتلاف الحكومى حسب قوته النسبية فى البرلمان • و (٢) لا يقف أى مرشح فى البرلمان بمفرده ، فان الناخب يصوت للحزب وليس للمرشح • و (٣) تتم الانتخابات فى الهستدروت (منظمة العمال الاسرائيلية القوية) بواسطة قوائم حزبية مشابهة لتلك التى تستعمل فى الانتخابات العامة و (٤) هناك بعض الأدلة على أن المهاجرين الجدد يتم " تقسيمهم " بين مختلف الأحزاب حسب القوة النسبية لكل منها • و (٥) ينتمى معظم الصحف ، ومنظمات الشباب ، والمنظمات الرياضية ، الى الأحزاب. كما ينتمى

اليها كذلك معظم المستوطنات الزراعية التعاونية والجماعية • و(٦) وحسب التقديرات المعتدلة ، فان أحزاب اسرائيل أنفقت ثمانية ملايين من الدولارات كمصروفات لحملات الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٦١ • وبالنسبة للفرد الواحد ، فان هذه تكون أعلى من نسبة المصروفات فى أية دولة أخرى (فاذا كانت انتخابات الولايات المتحدة تتضمن مصروفات بمثل هذا الارتفاع ، فان مجموع ما يكون قد صرف على الانتخابات بها فى عام ١٩٦٤ يقارب ثمانمائة مليون دولار • والواقع أن المبلغ المنصرف أقل من ذلك بكثير بالرغم من أن عدد المرشحين المشتركين فى حملات الولايات المتحدة الانتخابية يزيد عدة مرات عنه فى اسرائيل) •

ان الدور الرئيسى الذى تلعبه الأحزاب الاسرائيلية هو ، بالطبع ، استجابة للدور الرئيسى الذى خصصه مؤسسو اسرائيل للموقف الايديولوجى ، فحيث تكون للحزب فلسفة تفسر العالم والحضارة فانه يتخذ معنى خاصا جدا • ولكن الميول الايديولوجية ليست وحدها سبب ما للأحزاب اسرائيل من أهمية كبيرة ، فهناك ـ على الأقل ـ عاملان آخران يجب أخذهما فى الاعتبار : الأول عرفى ، والثانى تاريخى•

<u>النظام الانتخابى</u>: تجرى الانتخابات البرلمانية فى اسرائيل حسب نظام قوائم التمثيل النسبى ، فيقدم كل حزب للناخبين قائمة بمرشحين لمقاعد البرلمان المائة والعشرين ، ويختار الناخب قائمة لحزب بأكملها ككل بدلا من المرشحين كأفراد ويمثل كل حزب فى البرلمان حسب نسبة الأصوات التى تحصل عليها قائمته • وهناك بلاد أخرى تتبع أنظمة مماثلة ، ولكن اسرائيل ظلت ـ حتى وقت قريب ـ الدولة الوحيدة التى توجد بها دائرة انتخابية واحدة فقط ، فان نفس القوائم تقدم لكل الناخبين فى الدولة بصرف النظر عن أى مكان يقيمون فيه داخل البلاد ، وطالما يتمكن الحزب من الحصول على أكثر من ١٪ من مجموع الأصوات الانتخابية فانه يضمن تمثيله فى البرلمان • وعلى خلاف النظام الذى يفوز فيه الحزب الفائز بكل شىء ـ حيث تميل أحزاب الأقلية الدائمة الى الانكماش لأنها نادرا ما يكون لديها ما يقوم

دليلا على تحقيق شيء من مجهوداتها الانتخابية ـ فان التمثيل النسبي يعطي لأحزاب الأقلية فرصة للاشتراك في الحكم بقدر ما ، مهما كان حجمها صغيرا .

ومع ذلك فقد يميل الناخبون الى الشخصيات أكثر من ميلهم الى البرامج السياسية للأحزاب . والواقع أن قوائم الاحزاب تعد بعناية فائقة لكي تتضمن أسماء أكثر الأشخاص شعبية ، وكثيرا ما يكون التأكيد في نشرات الحملات الانتخابية على الأشخاص أكثر منه على البرنامج السياسي لأي حزب . ومن ذلك أن شعار حزب الماباي في انتخابات عام ١٩٥٩ كان : (قل " نعم " للشيخ الكبير) ، اشارة الى زعامة " بن جوريون " للحزب ولقائمته . وبالمثل ، فان أحد أسباب الحرص على بذل جهود كثيرة ، بصورة تقليدية ، لاسترضاء " بن جوريون " في كل ما يشترك فيه من خلافات داخل الحزب ـ حتى بعد اعتزاله ـ كان بدافع الخوف من ألا يسمح للحزب بوضع اسمه على رأس قائمته في الانتخابات القادمة . والواقع أن هناك دليلا ما على أن معظم التأييد لحزب الماباي مصدره زعامة " بن جوريون " له ، فقد صرح ٢٥٪ من مؤيدي الحزب ـ في استفتاء أجري عام ١٩٦١ ـ بأن سبب تأييدهم للماباي هو أنه حزب " بن جوريون " (٣٥) (ويغلب أن يكون هؤلاء من بين أقل المؤيدين تعليما أو أكثرهم تدينا ، أما بين المجموعات الأكثر عصرية فان البرنامج السياسي للحزب يكون السبب الرئيسي لتأييدهم له) .

وبالرغم من ذلك كله فان معظم قادة الحزب يزعمون أن اختيار الناخب يقوم عادة على رضائه عن الحزب ككل أكثر من رضائه عن هذا المرشح أو ذاك ، ولكن مركز " بن جوريون " بالنسبة للحزب استثنائي ، ان لم يكن فريدا في نوعه . وبالرغم مما يتمتع به العديد من الزعماء السياسيين للأحزاب المختلفة من تأييد شخصي ، فان " الشخصية " كعامل مؤثر في الحملات الانتخابية والمجادلات ، وربما أيضا في مداولات الناخبين ، ليس لها من التأكيد ما تناله في الولايات المتحدة مثلا .

وقد لا يكون ذلك ، في حد ذاته ، نتيجة لنظام الانتخابات الاسرائيلي ، فمن الممكن مناقشة عدة تفسيرات بديلة تؤكد أهمية أخلاقيات النظام البرلماني ، أو أهمية نزعات الجمهور تجاه المسائل المهمة ، أو أي عامل آخر . ولسوء الحظ أن محاولات عزل تأثيرات الانواع المختلفة للأنظمة الانتخابية لم تحقق فوائد تذكر على العموم ، ومع ذلك فسواء اخترنا معالجة نظام الانتخابات بوصفه المتغير الحرج المستقل أو لم نفعل ذلك فليس هناك شك في أنه يشجع ويعزز أهمية الاحزاب في النظام السياسي ولا تظهر آثاره في عدم أهمية المرشحين النسبية فحسب ، ولكنها تظهر أيضا في قوة منظمات الحزب الرئيسية .

واللجنة المركزية للحزب (أو ما يعادلها) هي التي تضع قائمة المرشحين للبرلمان . ووضع قائمة برلمانية يتضمن أمرين : هل يجب وضع هذا المرشح أو ذاك ضمن قائمة الحزب ؟ وان كان ذلك واجبا فأين مكانه في القائمة ؟ ويمكن لكل حزب التأكد جيدا من عدد المقاعد البرلمانية المحتمل أن يفوز بها ، فالحزب الذي اعتاد الحصول على ١٠٪ من الأصوات الانتخابية في كل الانتخابات السابقة قد يمكنه استنتاج أن أول ٨٪ أو ٩٪ من قائمته — أي الأسماء العشرة أو الأحد عشر اسما الأولى — سوف تدخل البرلمان بالتأكيد ، وان لم تكن هناك ظروف خاصة فقد يمكنه بعد ذلك أن يستنتج أن الـ ٨٥٪ الأخيرة من قائمته لن تكون أمامها أية فرصة للفوز في الانتخابات . فالمراكز المحتملة ، اذن ، تتراوح بين الاسمين الحادي عشر والثامن عشر . ولمنظمة الحزب حق تقرير وضع اسم أي مرشح في أي قسم من قائمته : قسم الفائزين المؤكدين ، أو الخاسرين المؤكدين ، أو الوسط . ومن الواضح أن هذا يضفي على المنظمة قوة كبيرة .

ويزيد النظام الانتخابي من قوة الأحزاب بطرائق أخرى كذلك ، فليس في اسرائيل اعادة للانتخابات أو انتخابات فرعية (by- elections) فاذا توفي أو استقال أحد أعضاء البرلمان فمن المعتاد أن يحتل مكانه أول شخص في الجانب

الخاسر من قائمة الحزب التابع له العضو المتوفى أو المستقيل للانتخابات الأخيرة • وكذلك الحال مع الانتخابات المحلية أيضا ، فان المرشح ينتخب كممثل عن حزبه لا عن شخصه ، وبذلك فمن الممكن لمنظمة الحزب نظريا ، وعمليا أحيانا ، أن تقيل النواب المحليين (من أعضاء هذا الحزب) بمجرد التصريح بأنهم لم يعودوا يتمتعون بثقة الحزب ، وفى مثل هذه الحالة لا يكون هناك داع لاجراء انتخاب جديد لأن الحزب يقوم بتعيين البديل من واقع قائمته •

السبب التاريخى : ان السبب الايديولوجى لأهمية الاحزاب يأتى مباشرة من تصور الحزب كحركة • فاذا كان التقليد السياسى لا ينظر الى الحزب بوصفه مجرد منافس على السلطة وانما أهم من ذلك بوصفه حاملا للواء الحق ، فانه يترتب على ذلك أن الترتيبات العرفية سوف تعكس معركة الايديولوجيات المتعارضة أكثر مما تعكس صراع الشخصيات السياسية الرئيسية •

وهناك ، بالاضافة الى ذلك ، مصدر تاريخى قوى لسيطرة الاحزاب وقوتها ، ففى السنوات الأولى للاستقلال استنفدت الموجات المتدفقة من المهاجرين ، بسرعة ، قدرة البلاد على استيعابهم ، فلم تتوافر المساكن والمدارس والعناية الطبية والعمالة كما أن الدولة لم تكن قادرة على توفير هيئة خاصة بها من الموظفين الأكفاء لمساعدة المهاجرين الجدد على تخطى الثغرات الواسعة بين حياتهم القديمة وحياتهم الجديدة • وقد كانت أحزاب اسرائيل أكثر من مستعدة لشغل هذا الفراغ ، فان ثواب ذلك العمل بالنسبة اليهم كان فى هذا العالم كما سيكون فى العالم الآخر ، فقد كان فى استطاعتهم أن يسهموا فى حل مشكلة انسانية ملحة بتولى قسط من مسئولية خدمة الوافدين الجدد ، وأن يسهموا ، بالمثل ، فى كسب أنصار جدد من أجل القضية •

وهكذا أصبح الحزب وسيلة رئيسية لادماج المهاجرين ، وأصبح الولاء للحزب سبيلا للولاء للدولة الجديدة فى كثير من الاحيان • وحيث أن الاحزاب ، فى تلك

الفترة ، كانت لا تزال تحمل بعض المسئوليات الادارية ـ ومن أبرزها التعليم ، وكان من مسئولياتها فى فترة ما قبل الدولة ـ فقد نشأ شىء أشبه بالنظام الفيدرالـى تلعب فيه الاحزاب أدوار الولايات حتى أنه من الممكن جدا النظر الى المعارك المستمرة حول تحويل السلطة من الاحزاب الى الدولة كصورة من المعركة الامريكية حول حقوق الولايات (٣٦) .

وقد نتجت ظاهرة " الفيدرالية داخل دولة وحدوية " بسبب ميول الاحزاب الايديولوجية قبل عام ١٩٤٨ ومطالب فترة ما بعد الاستقلال مباشرة ، ومع ذلك فقد نتجت أيضا من ذلك التطور العرفى الخاص للمجتمع اليهودى خلال فترة الانتداب البريطانى ، فقد أقام مجتمع الييشوف مؤسسات لمعالجة مختلف مشاكل المجتمع اليهودى النامى . ومن أبرز هذه المؤسسات الهستدروت ، والوكالة اليهودية ، والأحزاب العديدة ، ثم الهاجاناه (أو المنظمة العسكرية السرية التى صارت نواة لقوات الدفاع الاسرائيلية بعد ذلك بقليل) . وكما رأينا ، فان بريطانيا لم تهتم بتولى مسئوليات الحكم التقليدية ، بل أنها ـ فى ذات الوقت ـ كانت تخشى السماح للييشوف بمركزة كل هيئاته الحاكمة فتنتج عن ذلك حالة من الأمر الواقع لا يمكنها السيطرة عليها . ونتيجة لذلك ، تحملت كل من مؤسسات الييشوف الرئيسية بعض مسئوليات الحكومة ، فزاد الهستدروت من رقعة الدور التقليدى للنقابة العمالية (والواقع أن النشاط النقابى لم يكن بين نشاطاته الرئيسية) وذلك بتنظيم برنامج للتأمين الصحى القومى ، وبتشجيع الاستثمار الاقتصادى ، وبالطبع بمعاونة المجهودات السرية لتدمير القيود التى تفرضها بريطانيا حول تطور الييشوف . أما الوكالة اليهودية فقد قامت بوصفها المتحدث الرسمى للييشوف باجراء المفاوضات مع بريطانيا والدول الاجنبية باسم المجتمع اليهودى كما أنها تولت المسئولية الرئيسية للهجرة ، الشرعية وغير الشرعية على السواء .

وبتحقيق الاستقلال لم يعد هناك خط واضح لبيين أى الوظائف يقع فعلا داخل

نطاق الدولة ، وأيها يترك للمؤسسات التى تولتها من قبل . وباختصار ، فخلال حرب الاستقلال كانت هناك مشكلة الدفاع القومى ، حيث أن وحدات المنظمة الارهابية الرئيسية كانت منفصلة عن الهاجاناه . ولكن النجاح فى حل هذه المسألة لصالح الدولة لم يجد نفعا فى سبيل حل شبيهاتها فى مجالات الحياة القومية الأخرى ، فقد حدث نزاع كثير حول مجالات التعليم ، والهجرة ، والعناية الطبية ، وسياسة الأجور ، وغيرها خلال السنوات التالية ، كما أن بعض المسائل ما زال معلقا . وقد تم التوصل الى قرارات تحبذ توسيع سلطة الدولة فى بعض المجالات بسهولة نسبية ، وفى غير تلك المجالات استأنفت المؤسسات مسئولياتها شبه الحكومية أو تركتها للدولة على كره منها ومع الشك فى قدرة الحكومة على ادارتها بصورة دائمة . ومن ذلك نرى أن الأحزاب السياسية ليست وحدها الفريدة فى تنوع اهتماماتها وسلطتها ، فان عدة وكالات تشاركها تلك الصفات ، ومن أبرزها الهستدروت ، مما يخلق ما يطلق عليه عدة مراقبين اسم " النظام الاقطاعى الجديد " . وهذا النظام — بالنسبة لاحدى وجهات النظر — يعتبر نتيجة لقوة دفع تاريخية ، فهو بقية تعسة ، وان كانت زائلة ، لظروف فترة ما قبل الاستقلال الخاصة . ومن المحتمل ، مع ذلك ، أن نفسرها بطريقة مختلفة نوعا ، تؤكد — بدلا من ذلك — الفوضى التاريخية لحياة اليهود الطائفية والشك فى الحكومة المركزية وسلطة الدولة اللذين تعلموهما من الاضطهاد الأوروبى . وعلى وجه الخصوص ، فان تلك الشكوك كانت عميقة الجذور بين المستوطنين الاوائل ممن كانوا ينظرون الى الصهيونية باعتبارها قضية روحانية أكثر منها سياسية ولم يكونوا أبدا شديدى التأثر بالاستقلال القومى فى حد ذاته ، فقد كانوا يلتمسون تحقيق آمالهم عند حاملى الرسالة الروحية — عند الهستدروت ، وحركة الكيبوتز ، أو هذا الحزب أو ذاك . أما الدولة فقد كانت — على أحسن الفروض — احدى وسائل الخلاص العديدة وواحدة من أقلها تأكيدا لذلك .

ومن المهم جدا التمييز بين نظرة المرء الى مراكز السلطة المتنوعة فى اسرائيل

على أنها حدث تاريخى عابر ، ونظرته اليها على أنها اختيار واع للآباء المؤسسين للدولة ، فمن وجهة النظر الأولى ، لا يوجد ما يدعو الى الأسف فى التوسع الواضح لسلطة الدولة ، ولا يوجد أى سبب لافتراض أن هذا التوسع قد يصادف عراقيل بأية طريقة ، أما ان اتخذنا وجهة النظر الثانية ، فان شرعية الدولة وسلطتها تصبحان محل تساؤل وجدال وهى تتولى مسئوليات جديدة ، كما أن هناك أسبابا كثيرة لافتراض أن أية سلطة جديدة تطالب بها الدولة ستكون محل جدال طويل واسع .

وقد يميل القارئ الامريكى الى النظر الى هذه المناقشة على أساس مضمون التطور فى بلاده حيث أن التشابه واضح فى تكرار الجدال بين المنادين بالسلطة الفيدرالية وأولئك الذين يحبذون توزيعا أكبر للسلطة ، ولكن التشابه أغرب من الايضاح والتنوير : ففى المقام الأول ، نجد أن المنادين بتوزيع السلطة فى اسرائيل من اليسار السياسى ، ويمثل هؤلاء الحركة العمالية ، وهى أقوى جماعة نظمت قبل الاستقلال ، ومن ثم فهى أنجحها فى الحكم الذاتى منذ ذلك الوقت . أما الهستدروت ــ أكبر وأبرز مؤسسة غير حكومية فى البلاد ــ فهى وليدة هذه الجماعة وتقابل أى محاولات للتعدى على مجالات نفوذها ببرود تام . ويقوم اليمين السياسى بمثل هذه المحاولات عادة ، ساعيا بذلك الى اضعاف نفوذ الهستدروت بتحويل بعض وظائفها الى الدولة .

أما فى المقام الثانى فان الحوار فى اسرائيل لا يكون بين مستويات الحكومة المختلفة ، ولكن بين الحكومة والمنظمات الخاصة . وان كون هذه المنظمات مهتمة برفاهية البلاد ومستقبلها ومفتوحة وديموقراطية يخلق اختلاطا كبيرا بطبيعة الحال ، ولكنها تظل مؤسسات خاصة . فعندما ترى مؤسسة الهستدروت أنه ليس من الحصافة تأييد سياسة الأجور التى تسير عليها وزارة المالية ، أو تختلف مع الوزارة حول تفسير الصالح العام ، فانها تسلك طريقها الخاص . ويرجع الأمر ، جزئيا ، الى أن الكثيرين من عمال اسرائيل يشتغلون فى صناعات تمتلكها المؤسسة ، مما يمكنها من

السيطرة الفعالة على سياسة الحكومة الاقتصادية .

وأخيرا ، فان المسألة لا تصل في الواقع الى حد ضرورة توزيع السلطة اذ لا يجد المرء الا القليلين ممن يعتقدون بأن توسيع السلطة مرغوب فيه في حد ذاته ، ولكن الرأى الغالب هو أن الدولة ليست أوثق مصادر السلطة . ومن غير المعقول أن تنادى مؤسسة الهستدروت بتوزيع السلطة حيث أنها قد تجد سلاحها مصوبا الى صدرها بوصفها أكثر وأخطر مراكز السلطة تركيزا في البلاد . وينطبق نفس القول ولو بدرجة أقل — على المؤسسات الأخرى التى لا تزال تنافس الحكومة على السلطة ، وهى : الوكالة اليهودية ، والأحزاب ، وحركة الكيبوتز الى حد ما . وعلاوة على ذلك فان الحكومة نفسها " لا تملك " سلطة حتى توزعها ، كما أن بعض السلطات التى ترتبط بالحكم عادة لم تمنح للدولة أبدا ، وهذه هى المشكلة الحقيقية .

وبطبيعة الحال ، يدعم ذلك كله أكثر فأكثر ذلك الجو الايديولوجى السائد الذى تحدثنا عنه فيما سبق ، فان الايمان الراسخ بأن المنظمة أو المؤسسة أو الحركة التى يتبعها المرء هى صاحبة الحقيقة العظمى يؤدى على الفور الى رفض مطلق للسماح للحكومة — صاحبة الحق الشامل الطبيعى — بفرض حقيقتها ، وهذا بالطبع اذا لم تكن الحركة التى يتبعها المرء هى المسيطرة على الحكم .

وقد اتسعت قوة الدولة وسيطرتها باطراد منذ الاستقلال ، دليلا على انهيار الايديولوجية القديمة . ولكن لا تزال هناك بعض المجالات حيث لا تزال قوة الدولة وسلطتها محدودتين ، بطريقة رسمية أو غير رسمية .

<u>حزب الماباى ، مرة أخرى</u> : ان لكل من المؤسسات السياسية الرئيسية فى اسرائيل حياتها الخاصة بها ، ولكنها ليست مستقلة عن بعضها البعض بأى حال من الأحوال ، فان جميع زعاماتها تجئ من نفس المصدر ، وان كان باختلافات واستثناءات بسيطة . فيحدث ، فى حالات كثيرة ، أن يقوم رجل واحد بدورين

أو ثلاثة أدوار مختلفة فى المنظمات . وأهم ما فى الأمر أن القوة الغالبة فى كل منها تأتى من نفس الحزب السياسى (٣٧) .

وهذا الحزب ، بالطبع ، هو الماباى . فعلى كل من يبحث عن مصدر السلطة فى اسرائيل ـ سواء لأغراض تحليلية أو استراتيجية ـ أن يتجه الى حزب المابـــاى أولا .

واذا كان ينبغى الاتجاه الى الماباى فلابد من الاتجاه الى لجنة المابـــاى المركزية ، فان منطق الوضع يقول بأن السيطرة على أحزاب اسرائيل الجيدة التنظيم تأتى من القمة . وكما عرفنا من قبل ، فان اللجنة المركزية هى التى تتخذ القـــرار بشأن من يتم انتخابهم لتمثيل الماباى فى البرلمان . فاذا وقع خلاف بيـــن وزراء الماباى فى الحكومة وزعماء الماباى فى الهستدروت فان تصفية الخلاف تتم أخيـرا فى اللجنة المركزية للحزب . فاذا رغبت جماعة من الماباى فى تحقيق هدف سياسى مباشر فانها لا تجد أى معنى لمحاولة التأثير على أعضاء وفد الحزب البرلمانى ، اذ أن ذلك الوفد يصوت ككتلة وحسب تعليمات الوزراء من أعضاء الماباى ، كما أن هؤلاء الـــوزراء يعكسون سياسة الحزب كما تمت صياغتها داخل اللجنة المركزية حيث يكون صوتهـــم أقوى صوت بطبيعة الحال .

ومع ذلك ، فاننا نقول ، مرة ثانية ، ان من السهل أن نبالغ ، اذ أن الماباى أقل أحزاب اسرائيل وحدوية ، كما أنه يسيطر على عدد من المؤسسات المختلفة ، فان اللجنة المركزية ، على الأقل ، مجموعة من الزعماء المستقلين ، تربط بينهم صـــلات مفككة ، بقدر ما هى هيئة متحدة ومتنافسة قادرة على اتخاذ القرارات ، فهى تشتمل على جماعة من الهستدروت ، وجماعة من الكيبوتز ، وجماعة من البرلمان ، وجماعة من الحكومة ، وجماعات تمثل الماباى فى مدن الدولة الرئيسية الثلاث . وهكذا ، فبالرغم من أن معظم السياسة العامة لاسرائيل يتم تشكيلها فى مجالس حزب الماباى ، بـدلا من تشكيلها فى الاجتماعات الأكثر عمومية ، فان أولئك الذين يصيغونها يمثلون مصالح

مختلفة ، ينافس بعضها البعض بالضرورة .

ويعتبر رئيس الوزارة القائمة صوت الحزب الرسمى ، ولكن حريته فى العمل تحدها مراكز القوة الكثيرة المتساوية داخل حزبه نفسه . والى حد ما ، فان هذه المراكز المختلفة مسئولة عن طبيعة حزب الماباى التجميعية . وعلى خلاف الوضع فى بريطانيا ، فليس هناك سابقة تدل على امكان تحدث رئيس الوزراء وحده باسم الحكومة . وفى نفس الوقت ، فعلى غرار النظام البريطانى ، يملك رئيس الوزراء السلاح السياسى المطلق ، وهو تقديم استقالته . واستقالته هو وحده يمكنها اسقاط الحكومة بأكملها . وحيث أن الماباى ـ بسبب كبر حجمه ومركزه الرئيسى فى الصورة السياسية ـ يمكنه توفير قاعدة لبناء حكومة جديدة ، فان استقالة رئيس وزراء الماباى تفرض على الحزب أن يختار بين الموافقة على مطالب زعيمه والسماح له ، بالتالى ، باعادة تشكيل حكومته وبين دخول الانتخابات كحزب منقسم على نفسه . وقد تتردد ازاء ذلك الاختيار أحزاب أخرى أكثر اهتماما بنقاء مبادئها ، ولكن الماباى لم يفعل ذلك فى الماضى فرئيس الوزراء غالبا ما يكون الفائز حتما (٣٨) .

وما زال هناك الكثير لنقوله عن حزب الماباى ، مثل تصادم الأجيال داخل الحزب ، ودور " بن جوريون " والتوتر السائد بين زعماء الحكومة من أعضاء الماباى وزعماء الهستدروت من أعضائه ـ وكلها أشياء يجب شرحها بالتفصيل . ولكننا ذكرنا الآن ما يكفى لتقديمها ، ويمكننا استكمال ما يجب سرده ، كجزء من القصة نفسها ، من النظام وهو يعمل ـ وذلك ما نتحول اليه الآن .

* * *

كان اهتمامنا فى الجزء الأول بمقاييس التشابه — التاريخى والاجتماعى والايديولوجى — للنظام السياسى ، ونتحول الآن الى عالم الأمور السياسية المحددة ، الى مسائل مثل كيفية تطور الولاء والفهم السياسى ، وكيفية نقل المعلومات السياسية ، وكيفية تنظيم المصالح والاهتمامات والتعبير عنها ، وكيفية تجنيد الزعماء ، واجراء الانتخابات ، واتخاذ القرارات . ان الأنماط التى قدمناها فيما سبق تظهر مرات ومرات فيما يلى :

انهما جزءان لقصة واحدة وليسا قصتين منفصلتين ، فالثقافة السياسية بعد تفهمها كما يجب ، ليست مجرد معيار متخلف نلحق به كيفما اتفق أية ظاهرة خارج النظام نعتقد أنها مهمة ، ولا نعرف على وجه التأكيد مايجب أن نفعله بها ، بالرغم من بقاء الروابط بين الثقافة والبناء غامضا ، بطرائق عدة مهمة ، فليس يجدى اتخاذ السبيل السهل ثم اهماله كلية . وبالرغم مما فى الاعتماد الكامل على الاستنتاجات الواهية من مخاطر كبيرة ، فان الجائزة المنتظرة — وهى فهم أدق بكثير — لاتقل عنها تأثيرا .

* * *

الجـــزء الثانـى

كيف يعمـل النظـــام

الفصل الرابـــع

التكييـــف السياســـى

" من أين أنت يامردخـــــاى ؟ — أنا مـــن ايـــران .
من أين أنت يااســـــتر ؟ — أنا أيضا من ايـران .

ان مردخاى واستر من ايـران .

من أين أنت ياشـــيمون ؟ — أنا من بولنـــدا .
وياكـــوف ؟ — انه أيضا من بولندا ..
أنا وهو من بولنـدا .
وخانا ، من أين هى ؟ — انها من فرنســا .

أنت من العراق ، من بغداد .. وهو من ايران ، وهى من فرنســـا .
ونحن الآن : أنت وأنا وهو وهى ..

فى اسرائيـل .
حمدا للــه ! "

.. .. من الدرس الأول فى كتاب النصوص العبرية المقرر على المبتدئين .

— — —

ان عبارة " التكييف السياسى " تشير الى الطرائق التى يتعلم بهـــا الناس السياسة . وهى ، بشكل عام ، تثير السؤال عمن يتعلم " ماذا ؟ ولمن ؟ وبأى طريقة ؟ وبأى تأثير ؟ " داخل عالم السياسة .

وان اتساع السؤال نفسه يمنعنا من مناقشة كل المتغيرات التى يشير اليها بالتفصيل . وعلى سبيل المثال ، فاننا اذا حاولنا تعريف القائمين بعملية التكييف فعلينا أن نعترف بأن عملية التكييف - حيثما تجرى - لاتتم الا جزئيا فقط بواسطة الهيئات الرسمية ، بينما يترك الجزء الأكبر منها للتعامل " الطبيعى " : لثرثرة الجيران ، وللاختلاط العائلى ، وللتثقيف العام . ان مايتم تدريسه رسميا دائما مايكون أقل بكثير مما يتم تعلمه فعلا ، ان لم يكن أقل منه أهمية . وفى نفس الوقت ، فان المعلومات الخاصة بالجهود الرسمية فى مجال التكييف السياسى الرسمى تتوافر بسهولة أكثر مما تتوافر البيانات عن الأجهزة غير الرسمية وكثيرا ماتكون النتيجة زيادة التأكيد على العمل الرسمى على حساب غير الرسمى .

وبالمثل ، فلا يمكن لمجموعة واحدة أن تكون هدفا لجميع مجهودات التكييف بالرغم من أن مناقشات التكيف السياسى تركز بصورة تقليدية على دور الأسرة والمدرسة فى تعليم الصغار . ففى اسرائيل ، يجب على الأقل توسيع مجال المناقشات ، حيث أن المهاجر البالغ يشبه الطفل من نواح كثيرة ، فهو أيضا يجب أن يتعلم كيف يجد طريقه داخل النظام السياسى ، ويجب أن يتعرف على الرموز السياسية ، كما يجب أن يغرى بتقبل قيم النظام السياسى .

ومرة أخرى ، فاننا عندما نختبر ما يجرى تعليمه يتضح لنا أن التكييف السياسى قد يعود الى مراجع مختلفة . وبالنسبة للدول الجديدة تهتم على وجه الخصوص ، بكيفية تعليم الأفراد الانتماء الى الدولة نفسها بصرف النظر تماما عن علاقاتهم بمكوناتها السياسية . وقد يكون الارتباط بفكرة القومية وبالرموز المتعلقة بهذه الفكرة غاية فى القوة ، فى نفس الوقت الذى لاتقبل فيه مبادئ مؤسسة سياسية معينة . ومع ذلك فيجب علينا ألا نستنتج ، لهذا

السبب ، أن تطور الولاء يسير في اتجاه واحد مع تقدم الولاء القومي لشيء من الالتزام بأنماط معينة دائما . وقد يكون هذا التدرج الطبيعي بالنسبة لبعض الناس ، ولكن من المحتمل ، بالنسبة لغيرهم ، أن ينمو الارتباط بالدولة من خلال الارتباط بمؤسساتها الأصغر ، وتصبح هذه المؤسسات نفسها ، من ثم ، عوامل للتكيف مع الشخصية القومية.

كيف يتم التعليم ؟ من الواضح أن الاجابة تعتمد على من يقوم بالتعليم. وعلى أي حال ، فهل الدروس ضمنية أم بينة صريحة ؟ والى أى مدى يكون الجهد مضلفا بالوعي بالذات ؟ وهل الغرض من الدروس تبرير أعمال الحكومة أم لتشجيع مساهمة الجماهير فيها ؟ وهل هي تؤكد الطاعة أو المساواة ، أم تبغي تنمية شعور ايجابي فقط أو تنمية مقدرة لكي يكون للتقييم المنطقي أثره ؟

وأخيرا ، فان تأثيرات عملية التكييف مختلفة . وكما يعتمد أسلوب " التعليم " على المعلم ، فان أسلوب " التعلم " يعتمد على الطالب. فالكبار والصغار يستجيبون بطريقتين مختلفتين وكذلك الحال مع الشرقيين والغربيين ، وهي كذلك مع أولئك القادمين من داخل اطارات ديموقراطية وأولئك الذين تمتد جذورهم الى مجتمعات دكتاتورية. كيف يستجيب الناس في الواقع للنظام السياسي ككل ؟ وكيف يستجيبون لأجزائه ؟ كيف يرون أدوارهم داخل النظام ؟ وباختصار ، ماهي الدروس التي يتعلمونها ؟

ليس هناك داع لمناقشة كل من هذه المتغيرات على حدة ، وسوف نقف ، بدلا من ذلك ، عند التركيبات الأكثر أهمية.

الأسـرة كعامل تكييـف

الأسرة ، فى كل المجتمعات تقريبا ، هى عامل التكييف الأساسى . فبنساء السلطة داخل الأسرة يقدم للطفل تجربته الأولى لعلاقته مع السلطة ، كمـا أن القيم والتوقعات التى تتضمنها تلك التجربة كثيرا ماتترجم مباشرة الـى اطارات أكثر تجريدا ، وبالأخص النظام السياسى نفسه . وكما أن الطفل يصبح أبا للمرء فان أنماط السلطة داخل الأسرة تكون أبا للانسان السياسى .

ولا يقتصر دور الأسرة فى التكييف السياسى على ماتلقنه من دروس قيمة لأبنائها عن الطاعة ، والولاء ، والثقة ، والثواب ، والعقاب ، وما الى ذلك . فالأسرة تلقن دروسا صريحة أيضا ، فهى تقدم للطفل معلومات أساسية عـن عالم السياسة ، وتشكل سلوكه وآراءه تجاه كل ماهو سياسى .

الأسـرة الشرقية : وكما هو متوقع ، فان هناك اختلافات بـارزة بين الأسر الاسرائيلية ذات الأصل الغربى والأخرى ذات الأصل الشرقـى . وعلى العموم ، فان الأسرة الشرقية أكثر اتجاها الى التسلط فى النظـام والايديولوجية على السواء . وتظهر العلاقة المباشرة بين نظام الأسرة وايديولوجيتها فى هذا الجزء من حديث أجرى مع شيخ ايرانى وهو أب لاثنى عشر من الأبناء ، ومن مهاجرى مابعد الاستقلال (١) :

س : كيف يمكنك أن تقارن بين حياتك فى اسرائيل وحياتك فى ايران ؟

ج : هناك كنت ملكا ، وهناك كان الناس ينصتون عندما كنت أتكلـم ، وهناك كان أبنائى يطيعون عندما كنت آمرهم ، وهناك لم تكـن

المجادلات والمناقشات عندما كنت أقرر أمرا . أما هنا .. هنا عندنا ديموقراطية .

يبين هذا الحديث نقطة أخرى كذلك . ان الأسرة الشرقية تعانى أقصى صعوبة فى التأقلم مع البيئة الجديدة بسبب هذه النزعة التسلطية نفسهـــا ، فان ماأقلق ذلك الأب الايرانى على وجه الخصوص ، هو عيان أكبر أبنائـــه ممن يبدو أنهم قد اختاروا القيم الجديدة والمبادئ الأكثر تسامحا فى اسرائيل ، وربما يكون قد تضايق أيضا من سلب سلطته كما تضايق الكثيرون من مهاجـــرى الشرق الأوسط التقليديين . وحيث أن المعتاد أن يكون الاطفال أسرع مـــن آبائهم فى التقاط اللغة الجديدة ، فانهم غالبا مايقومون بدور الوسطـــاء بين الأسرة والبيروقراطية . وهناك مجالات أخرى أيضا يتعرف فيها الطفل علـــى بلده الجديد بطريقة أعمق وأكمل وأكثر طبيعية من والديه . وتزداد غربـــة الأبناء عن آبائهم وتتغذى على بعضها البعض ، فيزداد تحول الابناء الى جهات أخرى يستمدون منها التوجيه ، ويصبح الآباء أقل قدرة على المشاركة فى تجربـة أبنائهم ، أو حتى تفهمهم . وحيث أن أسرة الشرق الأوسط تميل الى حكـــم الأب تقليديا ، فان الخطر يهدد نفس أسس نظام الأسرة . ولذلك فاننا ، هنا ، لانواجه عذاب العصرية فقط ، ولكننا نواجه التقاء أزمتين : أزمة العصريـــة مع أزمة الهجرة (أى اعادة التثقيف) ، فكل واحدة منهما من عوامل التمزق فـــى حد ذاتها ، أما كلتاهما معا فعامل ذبول وجفاف .

وقد جمع " هادلى كانتريل " بيانات تتضمن بعض التأكيد للمخاوف الخاصـــة التى تتعلق بال الأسرة الشرقية . وقد سئلت " عينة قومية " من الاسرائيليـــين أن تذكر مخاوفها وآمالها الخاصة وأكبر مخاوفها وآمالها بشأن الأمة ، وتـــد

جاءت الاجابات متشابهة تقريبا فى أغلب الحالات ٠ ولكن هناك استثناء واحدا يبرز من بينها ٠ فالمهاجرون الشرقيون يذكرون مخاوف شخصية أكثر بكثير مما يذكره المهاجرون الغربيون ٠ ويعزى جزء من ذلك الاختلاف الى مايعانيه الشرقيون من قلق أكبر بالنسبة للمسائل الاقتصادية ،ولكن أغلبه يرجع الى اهتمامهم الزائد بالأسرة ،فاهتمام الشرقى بالأقارب يفوق اهتمام الغربى بنسبة ٢٦ الى ١٠ ، فيذكر الأبناء كمصدر للخوف الشخصى بنسبة أكبر ، كما أن ٢٣ ٪ من الشرقيين يخافون حياة عائلية غير سعيدة ، وذلك خوف لم يعبر عنه سوى ٧ ٪ من الغربيين ٠

ومع ذلك فالأسرة أقوى الهياكل الاجتماعية صمودا ٠ وعندما يحدث التغيير فانه يقع فى مكان آخر أولا ، ثم يتسرب الى العلاقة بين الآباء والأبناء فيما بعد ٠ ولنضرب مثلا بالمناقشات السياسية : فالمناقشات السياسية فى اسرائيل علامة تدل على العصرية والتكافل الاجتماعى ٠ وقد أظهر أحد الاستفتاءات أن ذوى الميول التقليدية (وأغلبهم من الشرقيين) يشتركون فى مثل هذه المناقشات ، سواء مع الأسرة أو مع الأصدقاء ، بنسبة تقل كثيرا عن الأشخاص العصريين (وأغلبهم من الغربيين [٢]) ٠ أما الانتقاليون ، وهم أولئك الذين بدأوا فى التخلص من نزواتهم التقليديه ، والتحرك تجاه الجو العصرى الذى يسود البلاد ، فقد اختلفت اجاباتهم بطريقة مثيرة للغاية ، فانهم لم يناقشوا أمور السياسة داخل محيط العائلة مثل التقليديين ، بل كانوا أقرب الى العصريين فى نسبة مناقشتهم أمور السياسة مع الأصدقاء ٠ ويمثل الجدول رقم (٤ ـ أ) هذه المعلومات :

جدول (٤ ـ أ)
نسبة تكرار المناقشات السياسية
(نسب مئوية)

بيان	التقليديون	الانتقاليون	العصريون	المجموع
مع الأسرة				
غالبا أو أحيانا	٢٦	٢٧	٥٧	٣٧
نادرا أو أبدا	٧٤	٧٣	٤٣	٦٣
مع الأصدقاء :				
غالبا أو أحيانا	٤٠	٦٥	٧٩	٦١
نادرا أو أبدا	٦٠	٣٥	٢١	٣٩

عندما تبدأ التقاليد فى الضعف فان ضعفها يبدأ خارج الأسرة . والتقاليد بالنسبة للمهاجرين الشرقيين معناها التقاليد التسلطية .

وبذلك يكون تعاملنا هنا مع عملية معقدة تحتم علينا أن نأخذ فى اعتبارنا على السواء الشباب التقليدى المبتعد عن قيم آبائه ، ومحاولة الآباء المحافظة على هذه القيم والتقاليد ونقلها الى الأبناء . ولتسهيل الشرح ، سوف نركز الآن على مايجرى تعليمه بدلا مما يحدث ، وسوف نعوض هذا الحذف فيما بعد عندما نناقش آثار التكيف .

من الواضح أن أسلوب تنيئة الأسر التقليدية لأبنائها أسلوب تسلطى أى أن "قواعد اللعبة" الضمنية التى تتخذها الأسر التقليدية تؤكد أهمية الطاعة والثواب والعقاب والسلطة ، والقدر . ولا تقل التعليمات الصريحة عن ذلك مخالفة للمبادئ الديموقراطية ، ولكن بمزاولة المرة تلو المرة ، والمسألة تلو المسألة ، فان الأسر التقليدية تنبذ "ثقافتها الوطنية" . والتقليديون يفضلون الزعامة القوية لرجل واحد على نظام الأحزاب المتنافسة ، كما أن نسبة احساسهم بالحريات المدنية تقل كثيرا ، وكذلك فهم لايبدون اهتماما كبيرا بالسياسة(٣) . ويوافق ٨٠ ٪ على عبارة "انه من الافضل أن يكون لنا عدد قليل من الزعماء الأقوياء بدلا من الأحزاب السياسية" . وتلك عبارة لم يوافق عليها سوى ٢٨ ٪ من المستجيبين المصريين . كما أن ٧٢ ٪ يوافقون على عبارة "لاتوجد أى ضرورة لوجود الأحزاب السياسية فى دولة راسخة الأسس" ، بينما وافق عليها ١٠ ٪ فقط من المصريين . وكذلك وافق ٩٠ ٪ على عبارة "ان مانحتاجه أكثر من أى شىء آخر هو زعيم قوى ليقول لنا ماذا نفعل" ، بينما وافق عليها ٢٥ ٪ فقط من المصريين .

ولكن تقليل الأسر التقليدية من قيمة مبادئ السياسة الديموقراطية لايعنى أنهم يرفضون اسرائيل نفسها ، ولا يقلل من ولائهم لوطنهم الجديد أن أكثرهم وفد الى اسرائيل بدافع الاضطرار والضرورة لاعن اختيار . كذلك لم يكن لخيبة الأمل فى توقعاتهم أثر فى ذلك . وقد تكون خيبة الأمل هذه شيئا حقيقيا جدا ، سواء كان أساسها نوع التجربة التى ذكرها الشيخ الايرانى فيما سبق ، أو غيرها مثل ماذكره ايرانى آخر بقوله : "عندما جاءوا من

من اسرائيل وقالوا : هاجر الى اسرائيل ـ ورأيت أن المدينة لم يعد بها أى يهود ، فظننت أن هذه هى أرض آبائى ، وليست ايران ، وانما اسرائيل وحدها ، وأن حالى سوف تكون هنا أفضل منها فى ايران ، ولم أكن أعرف أنها ستكون أسوأ" . ومع ذلك فقد كان ذلك الرجل شديد التعلق "بأرض آبائه" كما أكد بشدة على اصراره بأن هذا هو وطنه الحقيقى الوحيد .

وهكذا كان حال الكثيرين غيره ممن يشاركونه خيبة الأمل سواء فى مستوى المعيشة أو فى العلاقات الأسرية ، أو فيما يزعمونه من تفرقة . ولكن روحانية الأرض المقدسة ، وعودة الميلاد القومى ، وجمع شمل المنفيين تمد تعويضا كبيرا عن ذلك كله . وهنا أيضا تقدم بيانات كانتريل أدلة على ذلك ، فعندما سئل الأفراد أن يقيموا مدى سعادتهم فى الماضى وفى الحاضر كان الشرقيون أشد كآبة من الغربيين ، ولكن عندما طلب اليهم أن يتنبأوا بمدى سعادتهم بعد مرور خمس سنوات كان الشرقيون هم الذين تنبأوا بأعظم تقدم مما يقربهم من نفس المستوى الذى تنبأ به الغربيون لأنفسهم . ومهما يكن الشئ الذى يقلق الشرقى فانه لايبدو تباعدا أساسيا عن الدولة نفسها .

والواقع أن الأدلة قليلة على أن التباعد مفهوم يفيد فى مناقشة كيفية استجابة الشرقيين التقليديين لاسرائيل أو لنظامها السياسى . وان مايبدو لأول وهلة كأنه انكار اجماعى للنظام السياسى ليس انكارا بقدر ماهو عدم مشاركة مقترن بسوء فهم لما تعنيه السياسة الديموقراطية . وعلى العموم فان مايستنتج من آرائهم السياسية من خلال تلك الاستفتاءات لعينات المجتمع ليس له أهمية كبيرة ، لأنه يختص بموضوعات لم يفكر التقليديون فيها الا نادرا ، ومن هنا فمن غير المحتمل أن يهتم التقليديون اهتماما كبيرا بهذه الاستجابات الصريحة التى ذكرناها

هنا في معاملاتهم مع صغارهم.

ولكل هذه الأسباب فان الاعتقاد السائد لدى الحكومة هو وجوب أن تتولى بنفسها مسئولية تكييف الصغار متخطية الوالد التقليدي حيثما أمكن ذلك. وهذا الاعتقاد صريح للغاية ، وقد تم التعبير عنه لفترة من الوقت في المبدأ القائل بأن المهاجرين البالغين ، وخصوصا من الشرق الأوسط ، هم " جيل الصحراء " وليسوا المادة الصالحة لاعادة الميلاد (النهضة) . وفي نفس الوقت تكرس جهود كبيرة لتكييف جيل البالغين لجعلهم أداة للتكييف الى جانب كونهم مجالا له .

ولدينا الكثير لنقوله عن المجهودات الناتجة من هذه المحاولات وعن تأثيرها ، واننا نكون مقصرين ان لم نثر موضوع الأسرة كعامل في مستعمرة الكيبوتز . فبالرغم من صغر عدد سكان الكيبوتز ، الا أن دورها التاريخي في الدولة كان لايتناسب مع حجمها . أضف الى ذلك أن الكيبوتز ربما كانت أكبر مثال عامد لخضوع الأسرة الطوعي لعملية التكييف لصالح المسئولية الجماعية.

أسرة الكيبوتز : في أغلب مستعمرات الكيبوتز البالغ عددها أكثر من مائتين (تضم ٣،٢ % من سكان البلاد) لاتتم تربية الأطفال في بيوت آبائهم ، بل في بيت جماعي مع غيرهم من الأطفال من نفس الأعمار . فمنذ حداثتهم ينامون ويأكلون ويدرسون في هذه البيوت الخاصة بالأطفال ، كما أنهم يمضون عدة ساعات كل يوم مع آبائهم. وليست هناك أية محاولة لانكار الأسرة الطبيعية ، ولكن الأسرة أقل نفوذا كما أن مجموعة الكبار أكثر نفوذا منها في أي تنظيم تقليدي آخر .(٤)

كذلك فان مجموعة الكبار أكثر اتصالا بهيئات الكيبوتز الرسمية ، وبذلك يسهل استكمال التجربة الأساسية للمعيشة الجماعية ، بكل ماتتضمنه من دروس ايديولوجية ضمنية ، ببرنامج تعليمي شامل يؤكد قيم وايديولوجية الكيبوتز. وحيث أن النظام بأكمله طوعي ، أى أن للكيبوتز الحرية في تغيير النظام في أى وقت ، كما أن لأعضائه الحرية في ترك الكيبوتز اذا لم يكونوا راضين عنه ، ولذلك فان أسرة الكيبوتز التقليدية تزيد من تشجيع الايديولوجية الجماعية .

واحدى نتائج ذلك أن أطفال الكيبوتز يميلون الى الايديولوجية أكثر من معاصريهم من أطفال المدن . وفي دراسة كانتويل كان تعبير أعضاء الكيبوتز عن اهتمامات ايديولوجية واضحة ، بين تعبيرهم عن آمالهم ومخاوفهم الشخصية والقومية ، أكثر بمراحل عنه بين غير الأعضاء . أما النتيجة الثانية فهى أن أعضاء الكيبوتز أكثر تجانسا في ايديولوجيتهم . وأخيرا – وربما أهم مافى الأمر – أن أعضاء الكيبوتز يعتبرون أنفسهم أسعد بكثير من باقى السكان ، وينطبق ذلك على طريقة حسابهم لمدى سعادتهم في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل ، كما أنه ينطبق – بدرجة أقل بعض الشيء – بالنسبة للأعضاء الأصغر سنا .

وتدل هذه البيانات على مدى نجاح الكيبوتز في مد واستمرار طريقته في الحياة بواسطة عملية التكييف . وبالرغم من احتمال صحة هذا الاستنتاج عموما ، الا أن هناك تحفظات ضرورية . فمن الواضح أن دراسة كانتويل لم تشمل أولئك الذين ولدوا في الكيبوتز ثم تركوه بعد ذلك ، سواء الى المدن أو الى أى نوع آخر من الحياة الزراعية . وحيث أن مثل هذا " الارتداد " يحدث بصورة متكررة ، وحيث أنه الطريقة التى يخرج بها من لم يتكيفوا جيدا مع مجتمع

الكيبوتز ، فانه من الطبيعى جدا أن يبدو الباقون على مثل هذه الدرجة العالية من التكيف .

وبصرف النظر عن هذه المشكلة شبه المنهجية فهناك أيضا احتراس آخر يوحى به ذلك التقرير ، فلم يطلب الى من اختيروا " كعينات للمجتمع " أن يقيموا سعادتهم الخاصة وحسب ، بل أن يحددوا أيضا درجات لانجازات الأمة (درجة لحالة الأمة وقت التقرير ، ودرجة لفترة ماقبل خمس سنوات ، ودرجة لما بعد خمس سنوات) . وقد كان أعضاء الكيبوتز أكثر ايجابية فى تقييم الماضى من مجموع " العينة " ، بالرغم من أن متوسط تقييمهم للأمة كان أقل بكثير من متوسط تقييمهم لسعادتهم الماضية . وقد ازدادت الهوة اتساعا بين سكان الكيبوتز وباقى السكان العاديين بشكل واضح عند تقييمهم للمستقبل ، اذ تنبأ أعضاء الكيبوتز بمستوى للانجازات أدنى بكثير مما تنبأ به غيرهم . ومما يثير الاهتمام بوجه خاص ذلك الفارق بين أعضاء الكيبوتز فوق سن الثلاثين وأولئك الذين يقلون عن الثلاثين ، فان المجموعة الاكبر سنا هى الأقل تأكدا بشأن الحاضر والأقل تفاؤلا بالنسبة للمستقبل . وحتى المجموعة الأصغر سنا فانها تقل بعض الشىء عن مثيلها خارج الكيبوتز بالنسبة للمستقبل وان كان الفارق طفيفا مع أنه كبير جدا بين أفراد الجيل الأكبر سنا .

لماذا يكون الأمر على هذه الصورة ؟ ان الكيبوتز مشروع ناجح من وجهة النظر الاقتصادية الموضوعية ، فلقد دامت فترة أطول من أى تجربة مماثلة فى الأنظمة الاشتراكية المتطرفة ، كما أنها ظلت نظاما اختياريا بحتا . ويحق للجيل الأكبر سنا أن يفخر بانجازاتها ، اذ من الواضح أن الكيبوتز كانت مصدر أكثر زعامات ماقبل الدولة من ناحية الأفراد والروح المعنوية على السواء . وقد

صمدت الكيبوتز لأزمة أوائل الخمسينات عندما تمزق عدد كبير من مستعمرات الكيبوتز وعندما بدأ " الارتداد " يثير مشكلة خطيرة. اذن فما هي الأسباب التي تجعل للجيل الأكبر سنا مثل تلك النظرة الكئيبة، ولماذا لايشارك الجيل الأصغر سنا تلك النظرة ؟

لاتوجد اجابة ذلك السؤال فيما واجهته مستعمرات الكيبوتز من أزمات ظاهرة خلال السنوات الثلاثين الماضية ، ولكنها توجد في الأزمات الايديولوجية العميقة . والأمر بمنتهى البساطة هو أن الكيبوتز لم تعد لها نفس الأهمية التي كانت لها من قبل ، فقد تظل معتنقة لأسلوب صحي للحياة ـ أسلوب تعامل انساني أمين وهادف ، ولكن أهمية دورها في الدولة انتقلت من المركز الى المحيط ، فأصبح أبناء المدن لايفكرون في الانضمام الى الكيبوتز بعد اتمامهم للخدمة العسكرية ، بل لقد أصبحت النظرة العامة الى الكيبوتز توحي بأنها مجتمع غريب ، وأصبح مجتمع المدن ينظر اليها " كمكان يصلح لأن يقضي فيه الأبناء عاما أو عامين " ، لا كبديل جدي لأساليب الحياة التقليدية .

وفي خلال الجدال المستمر حول أسباب انخفاض أهمية الكيبوتز ، يفترض البعض أنه نتيجة حتمية لاتساع البيروقراطية أو الهجرة الجماعية. كذلك يفترض غيرهم أن الحكومة هي المسئولة عن ذلك ، فقد أصبحت الاشتراكية تؤخذ على أنها مجرد وسيلة أخرى لادارة أعمال الحكومة ، وليس باعتبارها أسلوبا للحياة. وفي هذا الصدد اتخذت الحكومة قرارا بالابتعاد عن الاعتماد على طوعية اليشوف ،والاتجاه الى مايعرف " بالتشالوتزويت ماملاختيت " (ومعناها الحرفي " ريادة الدولة " State Pioneering) . وينعكس هذا القرار

على المناطق المنادى بانشاء شبكة مستعمرات كيبوتز جديدة ليس لها علاقة بالاشتراكية بمميزاتها المعروفة ، وانما تؤكد ــ بدلا من ذلك ــ فوائد الأمن لانشاء مستوطنات جديدة فى مناطق الحدود . وأخيرا ، فهناك أولئك الذين يلقون باللوم عن انخفاض أهمية الكيبوتز على الكيبوتز نفسها ، مبررين منطقهم بأنها قد فشلت ببساطة فى التصدى لتحديات الدولة (فى مجالات استيعاب المهاجرين ، أو التصنيع ، أو ضم المهنيين داخل بناء الكيبوتز ، أو توفير تعليم أعلى للصغار) ، وتبعا لذلك المنطق فان نظام الكيبوتز يصبح واحدا من أكثر أنظمة المجتمع الاسرائيلى محافظة، وهو بذلك أبعد من أن يكون المجدد الراديكالى لذلك المجتمع .

والواقع أن أى مجموعة من هذه الحجج صحيحة فانها جميعا تعكس أزمة المعنى الحقيقية التى تحيط بالكيبوتز الآن . ويبدو أن هذه الأزمة هى السبب الأول للتقييم الذى قدمه الجيل الأكبر سنا ، ويمكن قراءة هذا التقييم على النحو التالى : " ان الأمور تسير سيرا حسنا تماما الى الحد الذى يعنينى شخصيا . وأنا لا أرى أى سبب لتوقع عدم استمرارها على هذا المنوال أو أن تتحسن بالفعل ، ولكن الأمة تعانى من أزمة ترجع الى انهيار القيم القديمة ، وينعكس ذلك فى مشاكل الكيبوتز نفسها الى حد ما ، ولكنه يبدو أيضا فى المدن حيث صار أغلب اهتمام الناس موجها للمال والمركز والصيت . وأنا لا أرى علاجا سريعا ، وبالطبع سوف تتقدم الأمة ماديا خلال السنوات الخمس القادمة ، ولكن التقدم الحقيقى لايمكن قياسه عن طريق النمو الاقتصادى أو زيادة عدد السكان فقط ، أو حتى عن طريق ايجاد علاقات أكثر سلمية مع جيراننا العرب . ان التقدم الحقيقى يتطلب عودة الى العمل الرائد وتجديدا له ، فاذا لم نجد

حلا لتدهور قيم الييشوف فسنجد أنفسنا في مأزق خطير ".

ولا يمكن أن تعني نظرة الجيل الأحداث ، الأكثر ثقة في المستقبل ، أنه أكثر تفاؤلا بالنسبة للرجوع الى القيم القديمة ، فلا أحد يعتقد ذلك ممكنا . واذن فان معناها أن ذلك الجيل لايشعر بأهمية تلك القيم بنفس درجة شعور آبائه ، أو أنه يتعلق بها بطريقة مختلفة تماما . وبالتالى ، فاما أن عملية التكييف لم تكن ناجحة تماما ، أو أنها كانت " أنجح من اللازم " . وقد يشعر المرء بأن الجيل الرائد قد أجاد مهمة تربية جيل جديد على الحماسية الايديولوجية الى درجة أصبحت بها الايديولوجية شيئا لاينفصل عن الحياة بالنسبة للصغار . لقد أصبح الحماس السحرى للسنوات الأولى روتينيا وجزءا من أسلوب الحياة القائم ، وبالتالى أسلوبها الدنيوى ، فليس هناك تغير يدوى ، ولا علم يرفرف ، ولا هتافات تتردد . ان المرء يولد فى الكيبوتز ويعيش فيها ، وهذه نهاية الأمر تقريبا .

تقريبا ، وليس تماما ، وليس بعد ، أيضا ، فان المشروع بأكمله مازال أصغر من أن يواجه ذلك كله ، ومازال تجربة انسانية بارزة لدرجة لايصح أن يدمغ مصيرها بالحتم ، وان كان قد فقد مكانه الفريد تحت الشمس ، فليس السبب هو خسوف الشمس بقدر ماهو وجود شموس كثيرة الآن ، بعضها يزيد اشراقا عن غيره فى الوقت الحالى على الأقل .

ومن حسن الحظ أن مهمتنا هنا ليست التنبؤ بما ستسير عليه الكيبوتز عموما فى المستقبل . فعلينا الآن أن نلفت الأنظار الى التجديد الذي قدمته الكيبوتز للتكييف السياسى ، وأن نفترض بذلك أن الكيبوتز قد لاقت نجاحا واضحا فى هذا المجال .

المدرسة كعامل تكييف

يبذل المجتمع أقصى مجهوداته في سبيل تكييف الصغار داخل المدرسة ، فهنا تدرس عادات المواطن الصالح ، وتلقين المعلومات السياسية الأساسية، والسعى الى اجماع الرأى ضمنى كما فى حالة افتراض أن دخول الاطفال من البيئات الاجتماعية والاقتصادية والعنصرية المختلفة نفس المدرسة أمر واجب ، كما أنه صريح كما فى حالة توفير منهج دراسى يؤكد التاريخ واللغة المشتركين علاوة على التربية الوطنية. ولكن خط اسرائيل فى تلك التجربة الاجتماعية والسياسية يؤثر بشدة على طريقة قيام المدارس بوظيفتها .

التقسيم العنصرى كذخيرة تعليمية : ان التعليم فى اسرائيل مجانى واجبارى خلال المرحلة الابتدائية (حتى ١٤ سنة) . والنظام شامل لدرجة كبيرة ، فان ٩٨٣ طفلا من بين كل ألف تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وثلاث عشرة سنة يلتحقون بالمدارس ، ويصل ذلك الى حوالى ١٦ ٪ من مجموع سكان البلاد . أما بعد المرحلة الابتدائية فلا توجد شبكة متسعة من المدارس الثانوية تشمل فصولا تكميلية أو تعليما مهنيا ، أو مدارس زراعية أو مدارس عليا ذات اتجاهات دراسية أكاديمية . وبالرغم من ارتفاع تكاليف الالتحاق بمثل هذه المدارس (مصروفات التعليم وفقدان الدخل المحتمل على السواء) ، فان نصف من تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة يلتحقون بالمدارس بعد المرحلة الابتدائية . وبالرغم من وجود فارق واضح بين نهاية الدراسة الابتدائية وأول صفوف الدراسة التالية لها ، والهبوط المستمر فى عدد التلاميذ بعد ذلك ، فان معظم الأطفال يحصلون على قسط من التعليم بعد الصف الثامن على الأقل .(٥)

وهذه الأرقام تمثل التوسع السريع فى خدمات التعليم الثانوى ، ففى عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ كان ٢٣ ٪ من مجموعة ١٤ ـ ١٧ عاما منتظمين فى المدارس ، فى حين التحق ٤٧ ٪ منهم بالمدارس خلال العام الدراسى ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ . وتشير الخطط الحالية للتعليم بعد المرحلة الابتدائية الى أن ذلك التوسع فى سبيل الاستمرار ، كما أنه من المنتظر أن يصبح التعليم الثانوى مجانيا وربما يصبح اجباريا أيضا فى المستقبل القريب .

ومع ذلك تبقى اختلافات خطيرة بين تعليم الأطفال الشرقيين والغربيين ، ويكون معظمها ثانويا فى المرحلة الابتدائية . ان المنزل الشرقى مزدحم ، مما يجعل من العسير على الطفل أن يستذكر دروسه ، كما أن الاسرة الشرقية أقل تكريسا للتعليم وأقل مقدرة على مساعدة الطفل فى عمله المدرسى . كذلك فان المهارات والمعارف التى تلقن فى المدارس أقل ارتباطا بثقافة الشرقى . وعلاوة على ذلك فهناك واقع من التقسيم السكنى للمجموعات العنصرية مما يحول مدارس كثيرة الى مراكز تجمع لواحدة أو الأخرى من المجموعتين العنصريتين الرئيسيتين . وأخيرا ، فان المدرسين أنفسهم غربيون بدرجة مربكة ، وبالرغم من تزايد نسبة المدرسين الشرقيين كل عام فانها لاتزال ٢٥ ٪ من مجموع المدرسين الأجانب أصلا . وحيث أن أكثر من نصف تلاميذ المدارس الابتدائية (٥٥ ٪) شرقيو الاصل فان عدم التناسب يتضح جليا ، كما أن جذور المعلم الثقافية تلون طريقه تقديمه للمناهج وخصوصا فى المواضيع الأكثر حساسية .

والأمور أسوأ حالا فى المرحلة بعد الابتدائية ، فهنا نجد أنه علاوة على العوامل التى سبق ذكرها فان الفوارق الاقتصادية بين المجتمعين تؤثر فى نسبة الالتحاق بالمدارس . وقد أصبحت الأرقام الآن معروفة للجميع ، فيسجل

أن مواليد اسرائيل من أبناء الغربيين أعلى نسبة فى الالتحاق بالمدارس اذ أن ٧٠ ٪ من مرحلة ١٤ ـ ١٧ عاما يدرسون فى أى نوع من التعليم بعد الابتدائى ، يليهم فى الترتيب أفراد الجيل الاسرائيلى الثالث (٥٥ ٪) ثم أبناء المهاجرين الغربيين ٤٩ ٪) ، ثم مواليد اسرائيل من أبناء الشرقيين (٣٨ ٪) والمهاجرين الشرقيين (٢٦ ٪) (٦) . أضف الى ذلك أن أكثر من نصف التلاميذ الغربيين الملتحقين بالمدارس الثانوية يلتحقون بالمدارس الثانوية العلمية ، أما بين التلاميذ الشرقيين فان الرقم يزيد قليلا عن الثلث (٧) .

وتظهر آثار هذه الفوارق العنصرية بصورة متزايدة فى مرحلة الدراسة الجامعية ، فخلال العام الدراسى ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ كان ١١٨٨٧ طالبا يدرسون للحصول على الدرجات الاولى فى معاهد اسرائيل المختلفة للدراسات العليا ، وقد كان ٤٢ ٪ من هؤلاء من الجيل الثانى الاسرائيلى الغربى ، كما كان ٢٧ ٪ من أبناء المهاجرين الغربيين و ٦ ٪ من الجيل الثالث و ١٣ ٪ من أصل غير معروف ويبقى بعد ذلك ١٢ ٪ يمثلها المجموع الكلى للطلبة من أصل شرقى ، بينهم أقل من ثلاثمائة من الجيل الثانى الشرقى ، وألف ومائة من المهاجرين الشرقيين (يوجد ١٨٦ من الطلبة الشرقيين من الجيلين الأول والثانى يدرسون لدرجات عليا من بين ٣٠٠٠ طالب) (٨) . وعلاوة على ذلك فان نسبة ترك الدراسة بين الطلبة الشرقيين عالية جدا ، فهى تبلغ أكثر من ٥٠ ٪ .

ان هذه الفروق بين المجتمعين من ناحية التحصيل العلمى تعنى أن الوظائف التى تتطلب دراسة خاصة أو تدريبا مهنيا تكون من حظ الغربى

العمل الغربيين بطريقة أوتوماتيكية . ولو كان ميل اليهود الى العمل الجسمانى واليدوى مازال سائدا لما كان ذلك الوضع يمثل مشكلة خطيرة ، ولكن المركز والمكانة يكتسبان ، بصوره متزايدة ، من الأيدى الحاذقة بنفس الصورة التى حدثت فى الولايات المتحدة . وهكذا الأمر تماما مع الدخل ، وبذلك تكتمل الدائرة وتستمر .

التكامل العنصرى كحصيلة تعليمية : بالرغم من كل هذه المشاكل ، فان أغلب الآباء الاسرائيليين يعتبرون التعليم مفتاحا لاقامة جسر بين التقسيمين العنصريين . وحيث أن اقامة هذا الجسر من الأهداف ذات الأولوية القصوى فان اهتماما بالغا يعطى للسياسة التعليمية . وهكذا ، فقد أنشئت صناديق خاصة للمنح الدراسية لمعونة الشباب الشرقيين بعد المرحلة الابتدائية ، كما أن وزارة التعليم والثقافة تقدم نوعا من التخفيضات فى المصروفات الدراسية لأكثر من خمسين ألف تلميذ شرقى فى المدارس الثانوية . كذلك تبذل مجهودات جبارة لتوسيع التعليم السابق على المرحلة الابتدائية للتعويض جزئيا عن "الحرمان الثقافى" . وكذلك يتزايد التأكيد على التجارب العلمية والنشاط المدرسى وغيرهما من الوسائل لرفع مستوى القدرات التعليمية بين صغار الشرقيين .

كذلك كانت المناهج الدراسية محل الاهتمام . وقد تقرر منذ بضع سنين العمل على تشجيع الاندماج عن طريق التأكيد على المواد ذات الهدف والمعنى بالنسبة لأعضاء كل المجموعات العنصرية ، ويعنى ذلك تأكيد التاريخ الدينى على حساب التاريخ اليهودى لشرق أوروبا . وقد اتخذت تلك الخطوة الى الوراء ، فى مبدأ الأمر ، بحماس بالغ لدرجة خلقت معها صورة غير مرضية ـ ان لم تكن مشوهة ـ للتاريخ اليهودى . وعندما تبين أن الطلبة لايتخرجون

وهم على جهل بأجزاء كبيرة من التاريخ خارج فلسطين فحسب بل وهم أيضا على درجة كبيرة من التحيز ضد أدب وقيم وسلوك مائة جيل من اليهود ، أعيد التأكيد على التاريخ اليهودى بعد العهد التوراتى . واليوم أصبحت التوراة جزءا رئيسيا من مقرر العلوم الانسانية ، وتستخدم كنصوص لمواد التاريخ والأدب والجغرافيا واللغة ، ولكن تجنب دراسة التاريخ الأكثر حداثة من ذلك لم يعد له نفس صفة الالزام .

ومع ذلك ، وبالرغم من المجهودات المختلفة — وقد كانت ولا تزال مؤثرة فى أبعادها وتطبيقها — فلا تزال هناك مشاكل حرجة تتحدى حلا . وليس ذلك بسبب تعقدها أو ارتفاع تكاليفها ، بل ان المسألة الرئيسية هى ذلك الغموض حول مايعنيه الاندماج : فهل الهدف هو بوتقة تذوب فيها كل مجموعة من عناصر اسرائيل الثقافية المختلفة أفضل مافى ماضيها الثقافى لتخلق مزيج جديد شامل ؟ ان لنظرية البوتقة جاذبيتها ، ولكنها تفتقر الى التطبيق العملى . ان ثقافة البلدان الغربية راسخة الأسس لدرجة لايأخذ معها الشرقى أية مواعظ من شارب الثقافات مأخذا جديا : فهل الهدف اذن هو نشر ثقافة جوهرية ؟ اذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن تعريف تلك الثقافة؟ واذا كانت هى ثقافة مجتمع الييشوف فان الشباب الغربى نفسه لايكاد يكون متعاطفا معها كالشباب الشرقى . هل يكون الهدف اذن ، هو امتصاص الغرب للشرق امتصاصا كاملا ؟ ان الاسرائيليين مفرطون فى الحساسية بالنسبة للامتصاص الجبرى لدرجة لاتسمح لهم بالتصريح بذلك جهرا ، ومع ذلك يبدو أن مايبنى من الجسر يكاد يكون دائما عملية ذات اتجاه واحد يسير المرور فوقها دائما تجاه الغرب وحده . واذا تمت هذه الحركة فعلا ، فقد تؤدى فى نهاية الأمر الى تخفيف حدة الانقسام العنصرى تمثلة . ولكن

الأمر — كما يراه "كينيز" — هو أننا نعيش في الأمد القصير ، وإذا كان الشباب الشرقي يتجه الى الغرب حقا فان النتيجة المباشرة لذلك ستكون زيادة التوتر بين الوالد والابن . وفي هذه الحالة يكون القلق الشخصي البالغ هو ثمن تحقيق الفائدة الاجتماعية المتوقعة .

وعلاوة على ذلك فمن السابق لأوانه القول بأن هناك حركة كبيرة في هذا الاتجاه على الاطلاق أو أن نظام التعليم قد حقق أثرا واضحا على المشكلة العنصرية . فاذا كان الهدف هو تعليم مهارات تكنولوجية تمكن الشخص من تطلعات أعلى من مستوى والده من قبله ، فان المدارس تؤدى مهمة جيدة في هذه الناحية . أما اذا كان هناك اهتمام أكثر بزيادة التفاهم والتعامل عبر الفواصل العنصرية فان النتائج يصعب تحديدها . وتكمن الصعوبة بدرجة كبيرة في عدم توافر المعايير المترابطة لقياس نسبة النجاح . وباختصار فان معنى الاندماج ليس أكثر وضوحا في اسرائيل منه في غيرها من البلاد ذات المجتمعات المتعددة العنصريات .

ومن الممكن ، بل وربما من الواجب ، أن نعبر عن ذلك كله بطريقة مختلفة . لم يكن لدى أصحاب النظريات الصهيونية ، وكذلك أصحاب فكرة العمل الرائد الاوائل ، أى تصور لمجتمع تعددى أو أى التزام له . ففي التربة الأوروبية حيث تخفت خططهم وايديولوجياتهم كانت وحدة اليهود ، وليس تنوعهم ، هي أبرز صفاتهم .

وحتى عندما نما اليشوف وأصبح أكثر تنوعا في عناصره ، كان من الممكن الاحتفاظ بحلم اسرائيل التي لاتعرف الاختلاف أو التمييز — يثبت مواطنوها

من نفس بذور العمل الرائد . ولكن الحلم توقف فجأة باعلان الدولة ، وبـــدا وكأنه قد فقد كل علاقة كانت تربطه بالحقيقة ، وأصبح تعداد العناصر المكونـة للدولة المبنى على أنواع الانقسام التى ناقشناها بالتفصيل (الشرق ضـــد الغرب ، الشيوخ ضد الشباب ، الدينى ضد الدنيوى ، والعرب ضد اليهود) يتطلب تفسيرا جديدا لمفهوم صهيونية اسرائيل . وكان على المرء اما أن يستنتـــج أن أولئك الذين رفضوا ، طوال الوقت فترة ارتباط عودة الميلاد الشخصـــــى بالميلاد الوطنى ، وفضلوا عليها اعتبار اسرائيل ملاذا ، قد كانوا على حق ـــ أو أن يستنتج أن المعنى الحقيقى للدولة سوف ينعكس على حياة أقلية ضئيلـــة من شعبها ، أو أن يبحث عن وسيلة جديدة تجعل الحلم القديم يطابق الحقيقة الواقعة الحالية . ومثل هذه الوسيلة ، على سبيل المثال ، قد يتمثل فى اعتبار اسرائيل مجتمعا تعدديا يرتبط فيه الناس بشدة بوباط يهودى يتهم المشتركـــة ويجدون لهم فيه ، مع ذلك ، شخصية دنيوية هادئة أيضا ، حيث يمكـــن للدولة ، ككل ، أن تستفيد من ذلك التفاعل ـــ أو التوتر فى بعض الأحيان ـــ بين المجموعات المختلفة .

وقـــد وجدت كل من هذه الحلول أنصارها . والمشكلة تكمن فى أن الحلول لايكمل بعضها البعض ، بل هى ـــ على العكس ـــ تمثل آراء مختلفة تماما : فان النظر الى اسرائيل باعتبارها ملاذا ، مثلا ، يؤدى الى مطلب " جعلهـــا طبيعية " والى رفض المفهوم التاريخى لمصير اسرائيل الخاص ، وهو مفهـــوم واسع الانتشار . واعتناق مبدأ " انقاذ البقية " يؤدى الى اتساع الهـــوة فيما بين مناصريه ، ممن يرون أن الحلم مازال فعالا ومستمرا وان كان بالنسبة للقلة وممن نفضوا أيديهم من الأحلام . أما الالتزام بمبدأ التعددية فانه ينقـــض

الدوافع " بوثقة الصهر " التى تتضمنها الندرة السابقة ، فان التحدية قبل كل شيء تنفى الشرعية على الفوارق البارزة ، وتقبل التوتر كأمر حتمى ، وحتى كأمر مرغوب فيه . فقد تحدث الحلم عن مهاجرين تحولوا وارتبطت أذرعهم وقلوبهم فى سبيل جماعى من الانسجام المثالى .

ولا تزال هناك ، بالطبع ، طرائق كثيرة للخروج من هذه الورطة . لقد اقتنع الكثيرون من الاسرائيليين بأن الدولة نفسها تستطيع أن تكون حاملة الحلم ، وأن مالم يحدد فى قدرة المواطن أن يفعله على أساس الايمان ، مثلا ، يمكن للدولة تحقيقه كمسألة من مسائل السياسة . وهناك آخرون غيرهم — يحتل الكثيرون منهم مراكز قوية — ممن يتشبثون بالحلم نفسه دون أن ينسوه أو يغيروا منه . وهم يؤكدون بحرارة أن تحقيق معجزة مولد الميلاد الوطنى لم تكن انجازا أقل قيمة مما ينتظر من تحقيق معجزة النهضة ، وأن من كانت لهم الارادة والحكمة والشجاعة لتحقيق المعجزة الأولى قادرون على تحقيق الثانية ان المتم المتشائمون حدود الصمت . وقد نفض هؤلاء المتفائلون أيديهم من دعاة " الطبيعية " ، فانهم يرون فيهم ورثة للصهاينة " المحسنين " ممن لم يدركوا مايمكن للالتزام أن يحققه . كما أنهم يرفضون مبدأ " الأقلية المختارة " باعتباره أمرا تافها لايستحق الاهتمام ، كما أنه أمر محظ وغير ضرورى . كذلك فانهم يرفضون " التحددية " ، وان كان ذلك بصورة أقل وضوحا ، فهم لايستطيعون فهم الروابط الطائفية الا عندما تكون هذه الروابط مبنية على اختلاف ايديولوجى . وأخيرا ، فانهم يشعرون بثقتهم بأولئك الذين يرون فى أجهزة الدولة بديلا مناسبا للالتزام الشخصى وللابتكار ، فهم يشعرون بأن مايجب أن يربط الاسرائيليين بعضهم ببعض هو التزامهم المشترك أكثر منه جنسيتهم المشتركة .

وليست هذه مناقشة مستورة تجرى داخل البيوت الخاصة لمفكرين برمسين ، فهى تغلب على أكثر مجادلات اسرائيل السياسية ، بلفات مختلفة ، وفى بيئات مختلفة ، وبفوارق مختلفة أيضا . وليس تقليد اسرائيل الايديولوجى وحده هو الذى يعطى للمسألة كل هذه الأهمية . وبالرغم من استجابة أغلب السياسة العامة للمشاكل الوقتية ، الا أن الكثير منها أيضا يستمد من فهم مجزأ بعض الشئ لما يعنيه المجتمع أصلا . ومن المحتمل أن يكون ذلك هو الحال فى جميع البلاد الأخرى ، ولكنه أمر واقع فى اسرائيل على كل حال ، حيث تصبح الايديولوجية الشاملة تقليدا ، وحيث تكون الدولة فى حاجة ملحة الى تبرير ذاتها كدولة جديدة . لذلك فانه ليس من الحكمة ترك هذه المجادلات جانبا باعتبارها شيئا عقيما وبعيدا عن العالم الواقعى للسياسة اليومية واتخاذ القرارات، فان اسرائيل اليوم مازالت هشة ومرنة ولينة لدرجة تجعل لنتائج هذه المجادلات ـ اذا أمكن التوصل الى حل لها ـ صلة كبيرة بما يمكن أن يكون عليه الغد .

<u>المدارس والسياسة</u> : لم تكن المدارس محصنة ضد التورط المباشر فى السياسة ، ففى عهد اليشوف كانت هناك ثلاث أنظمة تعليمية أساسية فى المجتمع اليهودى ،وكان كل منها يعكس موقفا ايديولوجيا منفصلا . وكان أحدها تحت رعاية الهستدروت ويعتنق المبدأ الاشتراكى ،والثانى تحت رعاية المجتمع الدينى ،والأخير غير منحاز رسميا وان كان هو فى الواقع نظام الصهيونيين العموميين الذين تحولوا تدريجيا من الصهيونية اللاايديولوجية الى تمثيل مصالح الطبقة المتوسطة .

وقد نشبت معارك مريرة وحامية الوطيس حول هذه "الاتجاهات" فى التعليم بعد الاستقلال . ومع ذلك فان شبح أنظمة الدراسة المتنافسة ، حيث تسعى الاتجاهات المختلفة الى الحاق أكبر عدد ممكن من التلاميذ فى مدارسها ظل يلاحق كثيرا من الناس، وأخيرا ألغيت الاتجاهات رسميا ،واستبدل بها نظام مدرسى

شامل تديره وزارة التعليم والثقافة . وقد استثنيت المدارس الدينية من ذلك تهمسا لفكرة أن الدين من الأهمية والبعد عن السياسة بدرجة كافية بحيث تسمح ببعض الانفصال . ومع ذلك فقد أخضعت المدارس الدينية للإدارة المركزية ، كما حددت أدنى المستويات التعليمية بالنسبة لجميع المدارس .

واليوم يذهب ثلثا تلاميذ المدارس الابتدائية الى مدارس الحكومة العاديـــة ، ويذهب حوالى ٣٠ ٪ الى مدارس الدولة الدينية ، كما يذهب حوالى ٦ ٪ الى مدارس مستقلة يديرها حزب أجودات يسرائيل ، ويعتقد هؤلاء أن مدارس الدولة الدينيـــة متحررة أكثر من اللازم فى آرائها الدينية . وقد تم فعلا تحييد نظام التعليـــم من الناحية السياسية بطريقة فعالة . وعلى خلاف الكثير من أعمال الحكومة ، وربما أغلبها ، فان التعليم لم يتهم أبدا بالتحيز السياسى أو التسلل السياسى .

ومع ذلك فان عددا من الأحزاب يعترض على تحطيم الاتجاه العمالى . وان حزبى أحدوت أفوداه ومابام ، على السواء يعدان موافقة المابای على التضحية بالتعليـــم الاشتراكى تنازلا لامبرر له للسياسة الدنيوية ، كما يريان فيه سببا لتدهور ايديولوجية اليشوف . و " السياسة الدنيوية " هى طريقة تناول السياسة التى تؤكد المساومـة والحلول الوسط بدلا من الايديولوجية . ويعتقد الحزبان المشار اليهما أنه لايوجـد اختلاف جوهرى بين الايديولوجية الدينية التى حصلت على التنازلات والايديولوجيـــة الاشتراكية التى حرمت من الاعتراف الرسمى . وهما يفضلان عموما تحقيق التوازن باحياء المدارس الاشتراكية بدلا من اهمال التعليم الدينى .

وقد جرى حوار مماثل بشأن حركات الشباب داخل المدارس ، وقد كان من الأمـــور التقليدية أن تدير النشاط المدرسى حركات الشباب التابعة للأحزاب المختلفة التى سمح لها بالدخول الى المدارس بغرض تجنيد الاعضاء . وقد أصبحت المنافسة حامية كما كان متوقعا وخصوصا بنهاية الاتجاه العمالى . وفى النهاية ، منعت حركات الشباب لفترة من الزمن من مزاولة نشاطها داخل المدارس ، وكانت هذه حركة أدت الى تقلص كبير فى حجمها . وقد

كانت الحكمة هذه الخطوة مسألة سياسية أكثر منها موضوع الاتجاهات ، حيث أن لحركات الشباب عموما قيمة ايجابية . ومرة أخرى ، فسر نقاد سياسة الحكومة الأمر بأنه ابتعاد عن قيم الييشوف حيث أن كل حركات الشباب تقريبا كانت تدعو لأخلاقيات الريادة وتشجعها (١١) .

وبالرغم من كل شيء فان الحكومة قد حققت نجاحها بوجه عام في جعل النظام التعليمي دنيويا . أما مايعطيه الاسرائيليون لهذا النجاح من قيمة فيختلف حتما ، حيث أن بعض الاسرائيليين على الأقل مازال ملتزما بفكرته الخاصة و " الأكثر انتاما " من التعليم " المثالي " . كما أن استمرار ذلك النجاح لم يتأكد بعد ، ولكن هذا مما يجدر ذكره طالما أن هذه هي احدى المناطق التي انتشرت فيها " الانطاعية الجديدة " بصورة بارزة ، ومنطقة لها أهميتها القصوى لو أمكن تحقيق مبدأ الدنيوية .

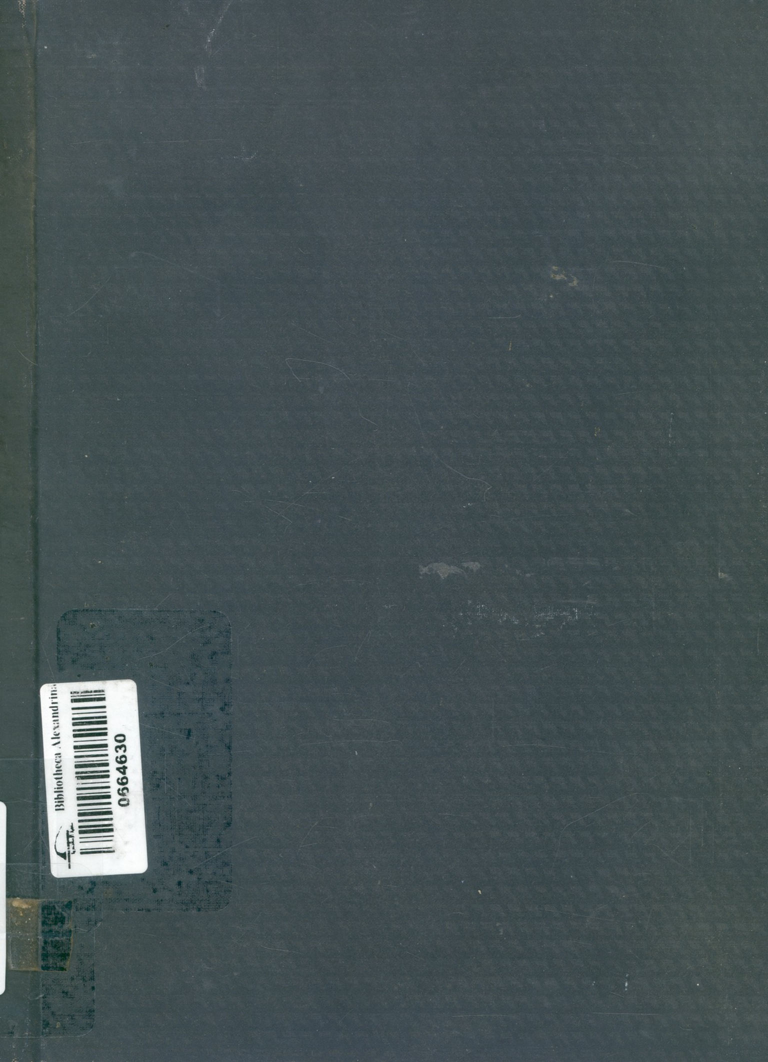
اللغة : ان مسألة اللغة تخلق جسرا طبيعيا تنتقل بواسطته من هذا الجزء الخاص بالمدارس الى الجزء التالي حيث نتناول تكييف البالغين . لقد كان احياء اللغة العبرية أحد مجالات نجاح المستوطنين الأوائل المدهش ، وهو نجاح تحسدهم عليه حركات وطنية كثيرة واجهت مشاكل مماثلة من تعدد اللغات ، وكانت لها آمال مشابهة في احياء اوتطوير لغة قديمة مشتركة . ولقد صادف احياء العبرية عقبات ضخمة في بادئ الأمر ، فان اللغة كانت تفتقر الى مفردات اللغة الحديثة ، وكان الارثوذكس يفضلون الاحتفاظ بها للأغراض الدينية البحتة ، كما كان من أسهل الأمور أن يرتد المستوطنون أنفسهم الى اللغة الروسية أو اليديدية التي كانت لغتهم الاصلية . وبالرغم من كل هذه العقبات فقد أصبحت العبرية هي اللغة الحية لأغلب يهود فلسطين بدون جدال ، وهذا يشهد بتماسك وجدية حركة مبدأ العمل الرائد .

وبقيام الدولة ثارت مشكلة اللغة العبرية من جديد ، وبشكل مختلف ، فقد أصبحت العبرية رباطا حيويا وضروريا من أجل تفاهم أناس تختلف أصولهم ولغاتهم اختلافا شاسعا وبينا . فاسرائيل ، برغم كل شيء ، أصغر من أن تسمح لنفسها بترف اللغات المتعددة ، وهو أمر يدفع أى عدد من الدول الأخرى ثمنا باهظا له . وبذلك أصبحت المسألة ضرورة عملية ملحة ، بصرف النظر تماما عما صاحبها من الالتزام الايديولوجى فى أول الأمر ، فان الاندماج — مهما كان معناه — لايمكن أن يتم دون لغة مشتركة .

ومع ذلك فقد كانت المشكلة جسيمة ، فقد كان المنتظر من الصغار أن يدبروا أمورهم بأنفسهم ، وأن يجدوا طريقهم فى المدرسة أو فى الجيش . وقد تحقق ذلك التوقع بوجه عام ، ولكن ماذا عن الكبار ؟ فمن بين أكثر من ثمانمائة ألف يهودى تجاوز أعمارهم الخمسة عشر عاما ممن وصلوا الى اسرائيل بعد عام ١٩٤٨ لم يكن يعرف اللغة العبرية معرفة حقيقية سوى عدد لايزيد من أصابع اليد الواحدة . والواقع أنه بالرغم من مجهودات الحكومة الجبارة فما زال فى اسرائيل حوالى ٢٥٠ ألف يهودى لايتكلمون العبرية ، ومثل هذا العدد ممن لاتعتبر العبرية لغتهم الاولى . وفى نفس الوقت هناك أكثر من ستمائة ألف لايتكلمون غير العبرية ، وحوالى ثمانمائة ألف يتكلمون بها كلغتهم الاولى . وأغلب أولئك الذين لايعرفون العبرية مطلقا أو يستعملونها كلغة ثانية هم من النساء اللائى تجاوز سنهن الخمسة والأربعين عاما . ويعرف ٩٧ ٪ من الذكور بين الخامسة والعشرين والثلاثين بعض العبرية ، كما يستعمل ٨٥ ٪ من نساء نفس المجموعة اللغة العبرية كلغتهن الأولى .(١٢)

ولم يكن هذا النجاح النسبي في غرس اللغة العبرية في عقول الاسرائيليين الجدد مصادفة ، فان حوالي مائتين وخمسين ألف فرد تلقوا دروسا في العبرية للكبار تحت اشراف وزارة التعليم والثقافة بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٥ (١٣) ، كما استفاد الكثيرون غيرهم من برامج الاذاعة المخصصة لتعليم المهاجرين الجدد لغتهم الجديدة أو من الفصول الختامية أو من الصحف المبسطة المطبوعة باللغة العبرية " الأساسية " . ومما يستحق الذكر أن الدروس الرسمية كانت تتضمن أكثر من مجرد تقديم اللغة ، وكما يبين النص الذي استهللنا به هذا الفصل ، فان دروس اللغة العبرية قد استخدمت للتربية الوطنية أيضا (١٤) .

وأخيرا ، فان النجاح الذي أحرز مع اللغة العبرية قد خلق مشكلة جديدة لبعض معلمي اسرائيل ، فحين تصبح العبرية هي اللغة الوحيدة المستعملة تصبح عزلة اسرائيل عن باقي العالم أشد وأبرز ، والمشكلة خامدة في الوقت الحاضر ، وتفيد البيانات الأخيرة أن ثلثي الاسرائيليين البالغين من العمر أكثر من خمسة عشر عاما يتحدثون بلغة واحدة على الأقل بالاضافة الى العبرية ، ولكن نفس البيانات تدل على أن النسبة تقل بانتظام مع التقدم في العمر ، فتصل الى أكثر من ٥٠ ٪ في مجموعة سن الخامسة عشرة الى التاسعة عشرة ، وتنخفض الى حوالي الثلث تحت سن الخامسة عشرة ، والاسرائيليون على وعي تام بمدى السهولة التي يمكن بها للعزلة أن تؤدي الى الفصل ، حتى أنهم ينظرون الى ذلك الانتقال بعين القلق ، ومن ثم فقد كرسوا جهودا بارزة لتشجيع تعلم اللغة الانجليزية أو الفرنسية في المدارس الثانوية العامة .


Bibliotheca Alexandrina
0664630